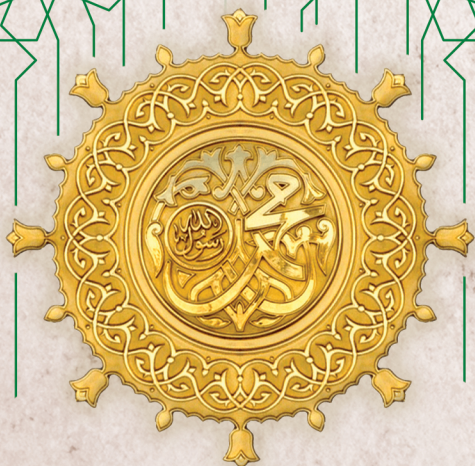




السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَعَالِمِ سِيرَتِهِ، وَدَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ



عَبْدُ الْوَهَّابِ الطَّيْسِيُّ بِأَبِي الْحَيْلِ

السِّيَرَةُ الْيَسِيرَةُ

مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَعَالِ سِرِّهِ، وَدَلَائِلِ بُتُونِهِ

السيرة النبوية

مع الرسول ﷺ في معالي سيرته، ودلائل نبوته



عبد الوهاب الطبري إمام الخليل



المقدمة

في قلب كل مسلم شوقٌ لاهف للنبي الكريم ﷺ، يتمنى لو صحبه، لو رآه، لو أنس بقربه، وكلما ازداد معرفة به ازداد حبًّا له وشوقاً إليه، وليس ثم ما يروي هذا الشوق مثل العيش مع سيرته ومزيد التعرف عليه، فهو نوع من صحبته، ومزيد قرب إليه، وإشراف على هديه وهداه، ليتحقق التأسّي وحسن الاقتداء به.

وكلما ازداد تعرفنا على سيرته اقتربنا منه حتى كأنما نعيش معه، نترأى أنوار طيفه، ونحضر مجلسه، ونصلي وراءه، نرى صلاته الخاشعة، ونسمع قراءته المرتلة، ونتعرف على عظمة أخلاقه التي جبَّله الله عليها.

المعرفة بسيرة النبي الكريم معرفة بالقرآن الذي أنزل عليه فقد تمثّل القرآن في حياته وأخلاقه، فكان خلقه القرآن، والمعرفة بسيرته معرفة بالدين الذي جاء به، فقد كان ﷺ هو التطبيق الأول والأكمل للإسلام.

إن السيرة النبوية ليست قصة ماضية، ولكنها سنة باقية، ليست حكاية تُحكى، ولا قصة تُروى، كلا كلا، إنها مصدر الأسوة الحسنة التي نفتيها، والشرعة العظيمة التي نتبعها، والدين الذي ندين الله به.

نقف مع سيرة الرسول ﷺ لنأخذ منها مدداً يُرسّخ اليقين، ويزيد الإيمان، ويزكّي الخلق، ويعين على التزام الحق والوفاء به، ويقدم ثروة طائلة من الأمثلة الرائعة على هذا كله.

ولا يزال المسلم يعيش مع السيرة حتى يشعر أن الرسول يعيش في ضميره، وتتبعه بصيرته في عمله وتفكيره^(١).

والمعرفة به تُعرف على عظمة عظيم، ونبوة نبي كريم.

هو أعظم عظماء البشر، قد يختلف الناس في الإيمان بنبوته، ولكنهم لن يختلفوا في عظمة شخصيته.

هو خير الناس كما وصفه أحد أعدائه الذي تسلل إليه يريد قتله، ففشلت خطته، وصار بين يديه يتوقع بطش عقوبته فعفا عنه، وخلق سبيله، فرجع إلى قومه وهو يقول: جئتكم من عند خير الناس. فهذا وصف عدوه له، فكيف سيصفه من آمن به وأحبه؟

هذا النبي الذي جاء إلى البشرية بتحرير العقل وإعماله حين أطفالاً ظلام الجهل أنوار العقول، فكان هتافه إلى البشر كلهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

(١) «فقه السيرة» محمد الغزالي (٦).

فنقرأ سيرته بتفكر واعتبار، فهو الذي عَرَفْنَا قيمة العقل والعلم،
وشرع لنا شرعة الإيمان والإحسان والعدل.

فهذه سيرته بين يديك، ستفيدك نورًا يزيد إيمانك، وحكمة تقود
حياتك.

وقد كتبت هذه الرسالة موجهةً لغير المسلمين لتعرفهم بالرسول
والرسالة، ولذا حرصت أن تكون مختصرة وجامعة، معروفةً بمعالم
سيرته، وكريم شمائله، ودلائل نبوته، ثم رأيت تقديمها أيضاً لناشئة
الأمّة وشبابها، لتكون مدخلاً إلى كتب أكثر إحاطةً وتوسّعاً، ولتعرفهم
من سيرة المصطفى ﷺ ما يرسّخ اليقين بنبوته، والعظمة في سيرته.

فلنقترب إليه في تهلل، ولنقرأه بأناة، لنرى الرسول الإنسان أبهى
وأنقى، في أعلى أفق يرتفع إليه بشر، وأسمى مقام يبلغه إنسان.

واعلموا يا من تطالعون هذا الكتاب أنكم تعيشون لحظات مترعةً
بغبطة الحياة مع إنسان ورسول رفع الله به قدر الحياة^(١).

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

بشاك شهير - إسطنبول

الثلاثاء ٣ جمادى الأولى ١٤٤٦ هـ

(١) «إنسانيات محمد»، خالد محمد خالد (١٢).

وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

كان نبي الله إبراهيم يعيش في أرض فلسطين، وهناك أتاه الوحي من الله أن يأخذ طفله الرضيع إسماعيل وأمّه هاجر ويذهب بهما إلى وادٍ مقفر، في جزيرة العرب في مكة التي تبعد عن الشام أكثر من ألف كم جنوباً.

وامتثل نبي الله إبراهيم الأمر الإلهي واحتمل الرضيع وأمّه، وتوجه إلى حيث أمره ربه حتى نزل بهما في وادي مكة، وكم كان الفرق شاسعاً بين أرض الشام بينابيعها وريفها وزروعها وحياة قراها، وهذه الأرض القاحلة المجذبة فلا ماء ولا زرع ولا حياة ولا أحياء.

وترك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الرضيع وأمّه وتوجه راجعاً إلى الشام فشعرت الأم بالوحشة، وتبعته تسأله: كيف تتركنا في هذا المكان القفر الذي لا حياة فيه ولا ماء، وليس فيه إنسان ولا شيء؟، فلم يردّ عليها، فسألته: هل أمرك الله بهذا؟. فأجابها: نعم، أمرني الله بهذا،

فعادت هادئة مطمئنة، وهي تقول: إذا أمرك الله بهذا فلن يضيعنا، فإنها تعلم أن إبراهيم نبي يوحى إليه من الله، وحين يتلقى أمر الله فلن يخالفه، وحين يأمره الله بهذا فلن يضيعهم.

عاد إبراهيم إلى بلده ونفذ ما كان مع هاجر من ماء، وظمئت وظمئ رضيعها، وجعلت تنظر إلى الرضيع يتلوى من العطش كأنه يشفق للموت، وشعرت بالكرب، وجعلت تبحث حولها عن ماء لها ولولدها، فتركت الرضيع كراهيةً منها أن تنظر إلى معاناته وهي لا تستطيع أن تفعل له شيئاً، وانطلقت تصعد قمم الجبال القريبة منها، لعلها ترى أحداً تناديه ليغيثها، وصارت تسعى بين أقرب جبلين لها وهما جبل الصفا وجبل المروة، وفعلت ذلك مراراً حتى أُجهدت فلم ترَ أحداً، فبينما هي في لهفتها سمعت صوتاً فأنصت لتتأكد، فإذا الصوت عند رضيعها، فجاءت إليه وإذا ملك قد فجر ينبوع ماءٍ من الأرض، فاغترفت الماء وشربت وأرضعت ولدها، ثم خاطبها الملك وطمأنها ألا تخاف، وبشّرها أن ها هنا بيت الله، وهذا الصبي سيكبر ويبنى هو وأبوه هذا البيت هنا، وإن هذا المكان سيكون عامراً، وطمأنها أن لا تخاف الضياع والهلكة فإن الله لن يضيع أهل بيته.

وبتفجر الماء دبت الحياة في الوادي المقفر، وصارت القوافل تقصد الماء، ونزلت حولها بعض القبائل العربية العابرة، وتكوّن مجتمع حضري مستقر في هذا المكان، وكبر الصبي في هذا المجتمع، وكان إبراهيم يزورهم ويتعاهدهم، وكبر إسماعيل وتزوج من العرب الذين أقاموا حوله.

ثم تلقى إبراهيم أمر الله ببناء البيت المعظم في مكة، ليكون بيت الله ومقصد الحجاج، فجاء إبراهيم وجعل بيني البيت هو وابنه إسماعيل، وكانا يرفعان البناء وهما يدعوان الله لذريتهما المتعاقبة في هذا المكان، وقد أخبر الله في القرآن عن بنائهما ودعائهما فقال تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿

[البقرة: ١٢٧-١٢٩].

لقد كان هذان النبيان الكريمان بينان البيت وهما ينظران إلى الغيب البعيد، وإلى الأجيال القادمة المتتابعة، ويدعوان الله أن يبعث في هذا البلد رسولاً يتلقى وحي الله، ويبلغهم رسالته، ويعلمهم دينه، ويزكي أعمالهم وأخلاقهم، حتى يسيروا على طريق الله وهداه.

ولما توجه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ راجعاً إلى الشام استقبل البيت ودعا بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ومنذ بنى إبراهيم البيت المعظم وكل من حوله يعظمونه ويحجون إليه، ولا يزال البيت الذي بناه مشيداً حتى اليوم، والينبوع الذي فجره الملك متدفقاً إلى اليوم، والوادي الذي كان مقفراً صار من ذلك اليوم بلداً عامراً آمناً تجبى إليه ثمرات الأرض وخيراتها كما قال تعالى في القرآن: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الفصل: ٥٧].

ظلام الوثنية

في الشام ومصر تناسلت ذرية إبراهيم من ابنه إسحاق وتتابع أنبياء بني إسرائيل الذين كان آخرهم نبي الله عيسى ابن مريم.

وفي مكة تناسلت ذرية إبراهيم من ابنه إسماعيل، وتتابع الأجيال في مكة وهم يعبدون الله ويوحدونه على دين نبي الله إسماعيل الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. وبقي البيت المعظم رمزا لتوحيد الله وعبادته، ومقصداً للصلاة عنده والطواف به تعظيماً لله وتعبداً له، كما قال تعالى في وصفه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. فالعبادة فيه لله وحده لا شريك له، فيعبد الله عند البيت، ولا يعبد البيت كما قال الله عز وجل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣].

ومرت قرون إثر قرون، وكثر الناس في هذا المكان، وكانوا متصلين بالعالم يسافرون إلى الشام وإلى اليمن ويشغلون بالتجارة،

وتجبى إليهم في مكة ثمرات البلاد وخيراتها، وبقي لأهل مكة مكانتهم ومنزلتهم لجوارهم الكعبة وقيامهم بأمر الحج والحجاج الذين يقصدون البيت، ولم تتجدد النبوات بعد بعد إسماعيل عليه السلام ولكن بقي أهل مكة على دين أبيهم إسماعيل وإبراهيم أكثر من ألفي سنة، وتتابعت القرون ولم يبق لديهم من إرث إسماعيل كتاب مكتوب غير ما حفظوه وتوارثوه، ولذا نسيت الأجيال لطول الأمد ملة أبيهم إبراهيم وإسماعيل ودعوة التوحيد التي دعوا بها، وتسربت الخرافات إلى ثقافتهم، والوثنية إلى ديانتهم، حيث رأى أحد زعمائهم وهو عمرو بن لُحي في الشام أصناماً تُعبد مع الله، فاستهوته هذه العبادة، وجلب الأصنام معه إلى مكة، ودعا إلى عبادتها، واتخاذها آلهة تُعبد مع الله، وهكذا انتشرت الوثنية في مكة، وعُبدت الأصنام حول الكعبة، ولم يبق من شعائر دينهم سوى ما كان مرتبطاً بالكعبة والحج إليها، وكان بداية تسرب الوثنية إلى العرب قبل بعثة النبي محمد ﷺ بثلاثمائة وخمس وسبعين سنة^(١)، وذلك عام (٢٥٠ م) تقريباً، وبمرور الأجيال تطبع الشرك، وصارت عبادة الأصنام هي العبادة العامة، لا يُعرف دينٌ غيرها، وانتشرت الوثنية عند القبائل المجاورة، وصار لكل قبيلة أصنامها التي يعبدونها مع الله. وكانت وثنيتهم ديانة ساذجة يعبدون فيها الأحجار والأشجار، ولم يكن نحت التماثيل سهلاً ومتيسراً في البيئة العربية، ولذا كانوا يختارون الأشجار الضخمة، والأحجار المميزة في شكلها فينصبونها ويتخذونها آلهة، وإذا أعجبهم حجر حملوه واتخذوه إلهاً،

(١) «الحنيفية والعرب» لعبد الرحمن المعلمي (١٥٣).

فإذا وجدوا حجراً أحسن منه رموه وأخذوا الآخر فعبدوه، وإنك لتعجب كيف أن هذا الحجر الذي يمكن أن يكون أساساً في جدار أو درجة في سلم يصير إلهاً يُعبد مع الله خالق الخلق ومدير الأمر.

وكان بعض عقلائهم يستنكر ذلك فيقول لهم: هذه الشاة خلقها الله وأنزل لها الماء لشرب، وأنبت لها الزرع لتأكل ثم تعتدون عليها فتذبحونها قرباناً لصنم ما خلقها ولا رزقها.

وانتشرت مع ذلك خرافات واعتقادات وعبادات كثيرة تتعلق بالجن والكهان والسحرة، وصاروا دهرين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ولا بالجزاء في الدار الآخرة، وصارت عقيدتهم: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ويتساءلون باستنكار: من يحيي العظام وهي رميم؟ وتحول الحج من شعيرة من شعائر التوحيد إلى عبادة مشوبة بالشرك وتعظيم الأصنام، وتتابع الناس على ذلك حتى خفيت معالم الحق، واندرست آثار الأنبياء.

ولم تكن اليهودية والنصرانية بمنأى عن ذلك، فقد حرّفت كتبهم وتبدّل دينهم، وتفرقوا لذلك إلى طوائف وفرق عديدة. فلم يبق على الأرض دين صحيح يُعبد الله به، وصار حال البشرية عامة يستوجب غضب الله ومقته، كما وصف هذه الحال النبي ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١).

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

وكانت الأوضاع الفاسدة أكبر من أن يقوم لإصلاحها معلمون ومصلحون من أفراد الناس، ولكن القضية كانت إزالة أنقاض جاهلية ضخمة تراكت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء، ورسالات الرسل، كانت البشرية بحاجة إلى بناء شامخ واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها، وإنشاء إنسان جديد يختلف عن الإنسان القديم، كأنه ولد من جديد، فأحيي بعد موات، وأبصر بعد عمى، واستنقاذ الإنسانية التي استجمعت قواها للوثوب إلى جحيم الدنيا والآخرة، والأخذ بيدها إلى طريق إرضاء الله وعبادته، وسعادة الإنسانية وفوزها في الدنيا والآخرة، كانت البشرية بحاجة إلى انقلاب شامل، وبعث جديد، وإلى رسول يرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله^(١). وفي هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية، وفي عام (٥٧١ م) ولد في مكة النبي محمد ﷺ، ليحمل هذه الرسالة ويتولى هذه المهمة.

(١) «مقالات في السيرة» لأبي الحسن الندوي.

أصحاب الفيل

كان أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قِبَل مملكة الحبشة، وكان نصرانياً متعصباً لنصرانيته، ولذا ابتنى في اليمن كنيسة ضخمة البناء شامخة الارتفاع، وأراد أن تكون مقصداً للعرب يحجون إليها، ولكن العرب أعرضوا عنها ولم يقصد إليها أحدٌ منهم، فقد كان لهم البيت المعظم الذي يحجون إليه وهو الكعبة المعظمة في مكة.

فلما رأى ذلك عزم على التوجه إلى مكة وهدم الكعبة حتى لا يبقى للعرب مزار إلا الكنيسة في اليمن، وأعد لذلك عدة عظيمة فجمع جيشاً جراراً بلغ ستين ألفاً وأحضر الأفيال من إفريقيا فكان مع جيشه ثلاثة عشر فيلاً ضخام، ثم سار بهذا الجيش القهّار الهائل قاصداً مكة.

ولك أن تتخيل العرب في الجزيرة العربية يسمعون بأن الأفيال ستسير مع هذا الجيش، والفيل حيوان غير مألوف في جزيرة العرب، فلم تكن العرب تراه في بلادها، ولذا فوصله للجزيرة العربية بهيئته المُستغربة يعتبر حدثاً يلفت الأنظار.

فكيف إذا قطع رحلة طويلة من اليمن إلى مكة، فهذا سيجعل كل من في الجزيرة العربية يتابعون رحلة هذا الجيش ذي الأفيال، ويتسقطون أخبارها، ولذا سمى الله جيش أبرهة بأصحاب الفيل؛ لأنه العلامة المميزة لهم.

فوجود الفيل من أسباب لفت الأنظار وشد الانتباه لما سيحدث بعد ذلك.

ووجدت مواجهات من بعض القبائل في أول طريق جيش أبرهة، ولكنها كانت تُهزم من هذا الجيش القوي مما أضعف روح المقاومة عند بقية القبائل وشعرت أن هذا الجيش مما لا قبل لهم به حتى وصل الجيش إلى مكة ونزل قريباً منها، وعلم أهل مكة أنه لا قِبَلَ لهم له، فليسوا بعدد هذا الجيش ولا قوته، ولذا تفرقوا في الجبال، وتوجَّهوا إلى الله يسألونه أن يحمي بيته، ويقولون:

لَهُمْ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاْمْنَعُ رِحَالِكَ
فجاء أمرٌ بعقوبة إلهية أهلك الجيش وأبادته، فإذا العدد الهائل والعدة العظيمة أشلاء متناثرة كبقايا القش تذروه الرياح.

وكان سبب هلاكهم أمراً خارقاً لا يحتمل أن يكون سبباً معتاداً، أو حادثاً عرضياً، بل جاءت العقوبة استثنائية لا تحتمل إلا أنها عقوبة إلهية، فلم يكن هلاكهم بسبب سيل جارف، فيقال: سيل وافقهم في طريقه فاجتاحهم، ولا بريح شديدة، فيقال: هذه ريح مرت فوافتهم في طريقها فشتتهم.

ولكن كان سبب هلاكهم أمراً خارقاً لا سابقة له، فهو طير صغار كالطوايط تجاوزت غيرهم وقصدتهم بأعيانهم، وألقت عليهم حجارة صغيرة من طين متصلب لا تقتل غالباً مَنْ تصيبه ولكنها نزلت عليهم كطلقات الرصاص اخترقت أجسادهم فأهلكتهم^(١).

ولذا سلّمت كل القبائل أن هذه حماية إلهية، وأن الله صان بلده وبيته، وتولى هو ذلك بغير سبب معتاد، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، فهو فعل الله وحده الذي أضل كيدهم، وجعل مصيرهم كهشيم الزرع الذي أكلته الماشية فلم يبق منه إلا العيدان اليابسة.

ولأن العرب كانت تتابع مسير الجيش ذى الأفيال منذ سار من اليمن فقد علمت أيضاً بهلاكه وبالعقوبة الإلهية التي أهلكته، وخلدوا ذلك في أشعارهم وأخبارهم ومن ذلك:

وللضخامة الحادثة سمّوا العام عام الفيل وصاروا يؤرخون به.

إن هذه الحادثة جددت ما في نفوس العرب من تعظيم للبيت الحرام، وبلبلده مكة، ولأهله قريش، وأن مكة بلد الله وحرمة، ولذا صانه وحماه، كما أن هذه الحادثة أوقعت في روع كل العرب حول البيت رعاية حرمة والحفاظ على أمنه، فلا يقصد بعدوان من بقية البلدان ولذا نعمت قريش بأمن لم تنعم به أهل بلد غيرهم، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]،

(١) ينظر: «تفسير القاسمي»، تفسير سورة الفيل.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ٣، ٤].

كما أن هذه الحادثة جعلت مكة في بؤرة اهتمام العرب وتحت بصرهم ومتابعتهم في كل ما يحدث فيها، فلما بعث النبي ﷺ في مكة كانت بعثته في مكان تعظمه العرب وتتابع ما يجري فيه، ولذا كانت قبائل العرب تتابع شأن النبي ﷺ ودعوته وهو في مكة، ودليل ذلك وفود من وفد إليه من نزاع القبائل الذين وفدوا على مكة في أول الدعوة مثل عمرو بن عبسة، وأبي ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي وغيرهم.

وذلك أن مكة صارت بلداً مشهوراً يتناقل الناس ما يحدث فيه ولذا تناقلت أحياء العرب خبر بعثته ورسالته.

وتوحي دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب -أبرهة وجنوده- أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يدنسه، والمشركون هم سدنته؛ لبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين، مصونا من كيد الكائدين، وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد. وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام^(١).

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٩٨٠).

ومع أن أصحاب الفيل قد أهلكوا، إلا أن الله أبقي ما يدل على ما جرى لهم، فأبقى من بقايا الفيل وآثاره، عن أبي الحويرث قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني الليثي: يا قباث، أنت أكبر أم رسول الله؟ قال: رسول الله أكبر مني، وأنا أسن منه، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ووقفت بي أمي على روث الفيل^(١).

وبقي قائده وسائسه وكانا فتين صغيرين فعاشا بقية أعمارهما في مكة أعميين يستطعمان الناس.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان بمكة^(٢).

ولعل من حكمة بقاء هذين في مكة تجديد الذكر بحادثة الفيل؛ حتى إذا سأل كل من رآهما عنهما أخبر خبرهما، وخبر أصحاب الفيل معهم وقد عاشا حتى أدركتهما عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والتي ولدت بعد عام الفيل بخمس وأربعين سنة.

وكان هذا في سنة (٥٧١ م) في شهر محرم، وبعد هذا الحادث بشهرين ولد النبي محمد ﷺ.

(١) «تفسير الثعلبي» (١٠ / ٢٩٦).

(٢) «مسند البزار» (٣٠٠).

ميلاد اليتيم

يقع شعب بني هاشم شرقي مكة، تسكنه عشيرة بني هاشم، حيث كانت عشائر قريش تسكن شعاب مكة حول الكعبة، كل عشيرة في ناحية.

وفي هذا الشعب كان يسكن عبد المطلب بن هاشم وهو سيد مكة، سكن هذا الشعب هو وأبناؤه، وفيه بيت عبد الله بن عبد المطلب وبيت أبي طالب بن عبد المطلب وإخوانهم.

هناك وُلد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ولد كما يولد كل بشرٍ من البشر، لم تحط به معجزات ولم تصحبه خوارق، غير ما كانت تحجبه له ستور الغيب ومُخَبَّات الأقدار.

أما أبوه عبد الله فهو أصغر أبناء أبيه العشرة، وقد زوّجه أبوه عبد المطلب بسيدة شريفة كريمة من بني زهرة، هي آمنة بنت وهب الزهرية، التي أحببت زوجها أشد الحب، ولكنه لم يلبث معها إلا قليلاً حتى بعثه أبوه عبد المطلب إلى المدينة ليحلب منها تمراً،

فسافر عبد الله وهو حديث عهد بعرس، وترك زوجته أمّنة بنت وهب، وترك في أحشائها جنينه محمداً ﷺ، فلما ذهب إلى المدينة نزل عند أحوال أبيه بني عدي بن النجار، وكانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا، فلما وصل إلى المدينة مرض فيها، ومُرض في دار تُعرف بدار النابغة، وهو رجل من أحوال أبيه عبد المطلب من بني عدي بن النجار، فتوفي في دار النابغة ودُفن فيها.

ولد الصبي وكان أول بساطٍ فُرِشَ له هو بساط اليتيم بموت أبيه قبل أن يولد، ولما وُلد تلقاه جده عبد المطلب بحب ولهفة، وكأنما ينظر فيه إلى أبيه الذي فقده، فأعلن فرحه، وأقام له مأدبة، وسماه محمداً، ولم يكن هذا الاسم مشهوراً ولا شائعاً عند العرب، ومع ذلك وُفق عبد المطلب لهذا الاسم الرائع الجميل الذي يدل على كثرة خصال الخير التي يحمد عليها، ولذا سمي محمداً لكثرة حمد الناس له وثنائهم عليه. وقال عبد المطلب لمن سأل: لِمَ اختار هذا الاسم غير المألوف؟: أردت أن يحمد الله في السماء وخَلَقَهُ في الأرض^(١).

وتفتح الصبي كما تفتح الورد من برعمها، يحيط به نعيم الأمومة من أمه ورعاية الأبوة من جده، فكانت طفولته هائلة وادعة، وحياته كريمة مطمئنة.

الرسول ﷺ وأمه

تزوجت السيدة آمنة بعبد الله بن عبد المطلب، ومع أنه لم يعيش معها طويلاً فقد توفي في سنة زواجهما الأولى، وترك ابنه جنيماً في أحشائها، إلا أنها عرفت بحُبها الشديد لزوجها عبد الله، ويتضح هذا الحب بأنها لم تتزوج بعد وفاته وهذه ليست عادة نساء العرب، فالعادة أن المرأة تتزوج بعد موت زوجها، أما السيدة آمنة فإنها لم تتزوج واكتفت أن تعيش على ذكرى زوجها عبد الله بن عبد المطلب، فلما بلغ النبي ست سنين سافرت به أمه إلى المدينة، والذي حملها على الذهاب إلى المدينة هو حبها لزوجها عبد الله، فذهبت إلى المدينة لتزور قبر زوجها الذي تحبه، والذي لم تمت ذكره في نفسها بعد أن مات.

سافرت آمنة بابنها ومعها خادمتهم أم أيمن الحبشية، فبقيت في المدينة شهراً وسكنت في بيت النابغة، وهو البيت الذي دفن فيه زوجها، فكانت هذه المدة مقيمة عند قبره، فلما رجعت من المدينة هي وابنها كانت قد أصابتها الحمى، فلما وصلت الأبواء وهي قرية بين المدينة ومكة توفيت هناك، ولك أن تتخيل آمنة في هذه الصحراء،

ومعها ابنها وحاضنته أم أيمن، وهي تنازع سكرات الموت وتلفظ آخر أنفاس الحياة، وأمامها ابنها تودع الحياة وتودعه، أي لوعة كانت في نفس تلك الأم!، وأي حسرة كانت تتجرعها! وهي لا تدري ما الذي سيحدث لابنها الذي ستموت وتتركه في هذه الصحراء، ماذا سيكون حاله؟، ومن المؤكد أنها وهي تعاني آلام الموت كانت هذه الأفكار تتراءى لها مع سكرات الموت، فليس كربها على الحياة التي ستفارقها ولكن على حياة ابنها الذي سيعيش بعدها.

وهكذا فُرش له بساط اليُتم مرة أخرى، فذهب إلى المدينة وهو يتيم الأب، وعاد منها وهو يتيم الأب والأم، وكأنما أراد الله لنبيه أن لا تكون لأحدٍ عليه سلطة، ولو كانت سلطة الأب والأم، لتنتقل نفسه إلى آفاقها العليا، وليتولّى الله وحده إيواؤه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ يَخَذَكُ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

توفيت آمنة في الأبواء، وكانت عينا الصبيّ تُسجّلان المشهد بدقة، فلما دُفنت أمه حفظ قبرها، وعرف مكانها تماماً، ورجعت به حاضنته أم أيمن إلى مكة، ومرت السنوات وبُعث النبي ﷺ ثم هاجر إلى المدينة وبعد خمسين سنة من وفاة آمنة بنت وهب في الأبواء إذا بالنبي ﷺ يمر بالأبواء متوجهاً إلى مكة في عمرة الحديبية، فلما وصل إلى الأبواء جاشت الذكريات وتداعت المشاهد، هنا مرّ قبل نصف قرن من الزمان وهو طفل صغير مع أمه التي كان يرضع حنانها ويعيش دفء قربها ولذة أمومتها إلى أن وصل إلى هذا المكان، ففارقت الدنيا وفارقت، هنا ماتت، وهنا دُفنت، ثم رآه أصحابه وقد قام،

فجعل يمشي ويتخطى القبور كأنما يقصد قبراً بعينه، فلما وصل إلى هذا القبر جلس عنده وأصحابه ينظرون إليه عن بُعد فأراه جالساً عند القبر وكأنه يتكلم مع إنسان أمامه، فلما طال جلوسه جاؤوا إليه فوجدوه ﷺ عند قبر أمه يبكي فقال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَرْوِرَ قَبْرَ أُمِّي فَأَذِنَ لِي فَرُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ»^(١).

وكلما تذكرت هذا المشهد أقول: يا الله، هذه لوعة النبي ﷺ على أمه مع أنه لم يدرك من حياتها إلا مثل الطيف، ومع ذلك كان هذا حنينه إليها ولوعته عليها؛ فكيف لو أدركها في سعة عمره، فوعى حنانها ونعيم قربها؟ كيف لو عاش معها صباه وفتوته وأدرك معها رجولته؟، كيف لو عاشت نبوته ودولته؟ كيف لو عاشته في بيوته؟ كيف سيكون بر هذا النبي بها، ومعاملته لها؟، وأي أسوة كانت ستلقاها البشرية من حاله ﷺ مع أمه؟

ولكن البر بالأم رافق النبي مع حاضته أم أيمن والتي كانت أمّة مملوكة لأبيه، ثم تولت حضانته بعد وفاة أمه، وقد حرّرها النبي ﷺ، وبقيت معه عمره كله، وتوفيت بعده، فكان يبرها ويعاملها معاملة الأم وليس معاملة الخدم، وكان يناديها «يا أمّه»^(٢)، وكانت تجرؤ عليه كما تجرؤ الأم على ابنها.

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٦).

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٢٤).

دخل عليها يوماً يزورها فقدمت إليه طعاماً، فإذا أنه كان صائماً أو أنه لم يشته الطعام، فلما رأته لا يأكل جعلت تتسخط عليه وتوبخه كما توبخ الأم ابنها^(١)، وكان قد قارب الستين من عمره حينها، ولكن كان يعاملها ببره بما يجزئها على معاتبته بحرص الأمومة وشفقتها.

وأبقى في تعاليمه رفعة مكانة الأم ورعاية حقها، فعندما سأله رجل: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»^(٢). وجاء رجل يريد أن يصحبه للجهاد قال: «أَحْيِيَّ أُمُّكَ؟». قال: نعم.

قال: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرِّهَا وَالزَّمْ رِجْلَهَا فَتَمَّ الْجَنَّةُ»^(٣). فصار المسلمون يقولون: الجنة تحت أقدام الأمهات.

فهنيئاً لكل من لا يزال يعيش نعيم الطفولة في ظلال الأمومة، وهنيئاً لمن لا يزال يحيا في حياة أمه ويتلذذ بالتفنن في برّها.

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٥٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٧٨١).

النبي ﷺ وعمه

توفيت أمنة فكفل الصبي جده عبد المطلب، وكان عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف سيد مكة، فقد كانت له السيادة والسؤدد، فهو الذي يتولى أمر السقاية، والمنظور له في قريش شرفاً ومكانة، وكان يُولي حفيده محمداً رعاية خاصة، ويحتفي به حفاوة الأب بابنه الوحيد، وما ظنك بعطف الشيخ الكبير على الطفل الصغير، وكأنما كان عبد المطلب يُفرغ حبه لابنه عبد الله الذي فقد في ريعان شبابه في حفيده محمد ﷺ، فكان يُفرش لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد إلا عبد المطلب أو ابنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويجلس الأشراف والسادة حوله.

لقد ذاق محمد ﷺ نعيم الأبوة من جده عبد المطلب، والذين جربوا عطف الجد وحبه يعرفون أن عاطفة الأبوة تكون فيه مضاعفة غامرة، ليس فيها إلا الحنان صرفاً والحب صرفاً، لكن هذا النعيم الأبوي بين النبي ﷺ وجده عبد المطلب لم يُعمر طويلاً، فقد مات عبد المطلب والنبي في الثامنة من عمره وهذه هي المرة الثالثة التي يُسقط فيها فراش اليتم للنبي ﷺ، فكفله عمه أبو طالب بوصية من جده عبد المطلب،

وكان أبو طالب هو الأخ الشقيق لوالده عبد الله، فضمه إلى ولده وقدمه عليهم مزيداً في رعايته وبره، فكان أبو طالب عظيم البر بابن أخيه، وكان الفتى شديد الملازمة لعمه، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره عزم أبو طالب على السفر إلى الشام كشأن رجال قريش في رحلة الصيف إلى الشام للتجارة، وأراد أن يترك محمداً مع بنيه، فالتزمه، وقال: يا عم، إلى من تدعني؟ وهذا يُبين لنا نوع العلاقة التي كانت بين أبي طالب وابن أخيه محمد وأنها كانت علاقة أبوة، فكان أبو طالب بمثابة الوالد للنبي وفيه حنان الأب ورعايته، ولذلك لما احتضنه النبي ﷺ وقال: إلى من تدعني؟ قال: والله لا أدعك، فأخذه معه في هذه الرحلة إلى الشام، وكان هذا من صنع الله لنبيه، ولعل من الحكَم في تلك الرحلة المبكرة من حياة النبي ﷺ والتي لم يكن فتیان قريش يرحلون في مثل هذا العمر، أنها نوع من الترقية للنبي ﷺ ليرتفع إلى سنٍ فوق سنه، وعمر أكبر من عمره، لأنه سيكون في هذه الرحلة بصحبة الرجال، ولن يكون مع الأطفال، أو الفتیان الذين هم في سنّه، فالرحلة إلى الشام فيها أشدّاء الرجال وعقلاؤهم وحكماؤهم، وسُعاشرهم وهو لا زال في هذا العمر المبكر، ويجلس مجالسهم ويسمع حديثهم، وفيها تجاربهم وخبراتهم، فيكتسب خبرات أكبر من خبرته خلال هذه الصحبة الطويلة -التي كانت شهراً ذهاباً وشهراً إياباً غير مقامه في الشام- وهي نوع من تهيئة النبي ﷺ واختصار لسنوات العمر.

كما أن في قطع تلك المسافات الشاسعة، وعبور البلاد المتنوعة خارج مكة فتح آفاق للنبي ﷺ في هذا العمر المبكر، إذ سيمر في طريقه بتبوك وبُصرى ومدن الشام، وهذه المدن لها طبيعة غير طبيعة البيئة المكية، وبهذا ستُفتح الآفاق أمام وعيه ﷺ ليرى ما لا يُرى في مكة، ويشاهد مرئيات يستودعها حافظته ووعيه المستقبلي.

ثم إن في رحلته هذه تهيئة للرحلة الثانية التي سيذهب فيها إلى الشام متاجراً بعد اثنتي عشرة سنة وهو في الرابعة والعشرين من عمره، حيث سيكتسب من رحلته هذه خبرة من معايشة هؤلاء التجار، ويرى كيف يشترون ويبيعون ويتصرفون في سفرهم هذا، وسيكتسب خبرات تراكمية لرحلته القادمة.

وبقيت علاقته الوثيقة بعمه طيلة حياة عمه التي استمرت إلى أن بعث النبي ﷺ بالنبوة في الأربعين من عمره وعاش معه عشر سنين من نبوته وتوفى النبي في الخمسين من عمره، وكما كان له رعاية للنبي ﷺ في صغره فقد كان سنداً ومدداً للنبي ﷺ في كبره، وكان له الحماية والإعانة بعد نبوته.

الرسول ﷺ ورعي الغنم

وبعد أن جاوز النبي ﷺ سن الطفولة وصار فتى يُحسن التصرف ويعي الأمور بدأ العمل وتحمل مسؤولية نفسه، فكان يرعى الغنم لأهل مكة مقابل أجره يأخذها من أهلها، وقضى في هذا العمل مرحلة الفتوة المبكرة قبل أن يبلغ سن الرجولة ويتأهل للأعمال التي تليق بالرجال.

وقد كان رعي الغنم سنة الأنبياء قبله، قال النبي ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ، فَقَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(١). والقراريط تفريق الدرهم.

وقوله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فيه دلالات مهمة، منها: أن جميع الأنبياء رعوها الغنم.

والحكمة في ذلك: أن رعي الغنم هو مسؤولية رعاية لهذه البهائم المعروفة بتفرقها وانتشارها، وأنها تحتاج إلى رفق في رعيها وجمعها والعناية بها، فالذي يرعى الغنم يحتاج إلى الصبر على رعايتها، والرفق بها، وهذا النوع من الرعاية، هو من التربية والتأهيل، لرعاية الأمة بعد ذلك،

(١) «صحيح البخاري» (٢٢٦٢).

والرفق بها واستنقاذها، فالرعاية الأولى في سن الشباب الأول للغنم، هي تأهيل للرعاية العظمى للأمم في سن النبوة والاكتمال.

كما أن رعي الغنم يكون في الصحراء، بعيداً عن العمران، وهذا من التأهيل لسعة الأفق، والتفكير في خلق الله، والتأمل في آياته، وليبتعد الأنبياء في هذا السن عن التأثير الثقافي السائد في بيئتهم، بحيث تكون آفاقهم رحبة ليتأملوا في ملكوت الله، وقد عاش النبي ﷺ هذه المرحلة، فكان يخرج بالغنم إلى شعاب مكة، ليتأمل في هذا الكون الفسيح المفتوح، فيقرأ في ملكوت الله، آيات خلقه، وعظيم مخلوقاته.

بقي أن نعلم أن النبي ﷺ قال هذا الكلام: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قِرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ». بعد فتح مكة، وبعد أن أصبح أمره ﷺ وسيادته على مساحة الجزيرة العربية كلها، ومع ذلك لم يستكف أن يذكر أنه كان في مرحلة من عمره راعي غنم، وهذا يُبين ما كان عليه النبي ﷺ من عظمة الشخصية، وعظمة الخلق، وعظيم التواضع لله أولاً، والتواضع مع الخلق ثانياً، وهذا بخلاف أصحاب الكبر والتباهي، فإنهم لا يذكرون حالهم السابقة التي لا تتناسب في ظنهم مع حالهم التي وصلوا إليها، أما صاحب الشخصية القوية، والعظمة الأخلاقية، فهو لا يرى في هذا أي مساس بقيمته، ومكانته، وإنما يرى هذا من التحدث بنعمة الله عز وجل، وهكذا كان نبينا ﷺ متواضعاً لله، ومتواضعاً مع عباد الله.

الزواج بخديجة

كانت خَدِيجَةُ سيدة سَرِيَّة^(١) ثَرِيَّة عاقلة من عَقَائِل نساء قريش، وأكثرهن ثراءً، ومكانة، ومهابة، حتى إنها كانت تُلقَّب في قبيلة قريش كلها بـ«الطاهرة»، وكانت حكيمة مدبِّرة، ومن تدبيرها وحكمتها أنها كانت تتاجر بمالها، فتستأجر الرجال للمتاجرة به، فيذهبون بتجارتهما ويعودون بها، مقابل نصيبٍ من الربح تعطيهم إياه، وكان لها مع ثرائها مكانة، واحترام في قومها، وقد تزوجت مرتين، ومات أزواجها عنها فتأيمت بعدهم، وكانت محل رغبة من الرجال، ولكنها لعقلها ونضجها لم تكن تقبل بكل من رغب فيها، حتى تزوجت بالنبي محمد ﷺ.

وكانت قصة زواجها أنها استأجرت النبي ﷺ ليتاجر بمالها، فاتفقت معه أن يأخذ هذا المال إلى الشام ويبيعه ويشترى به بضاعة، ويعود بها إلى مكة على طريقة قريش في التجارة، ووضح أنه قد حقق نجاحاتٍ سابقة جعلت خديجة تختاره لترسل تجارتها معه،

(١) الوجبة في قومها، والمحترمة عندهم.

وبعثت معه خادماً لها اسمه ميسرة ليكون مرافقاً ومساعداً له، فذهب النبي ﷺ إلى الشام، وتاجر في هذا المال، وعاد بربح وفير وسلّمه إليها. ومعلوم أن خديجة تفاوضت مع النبي ﷺ قبل أن يذهب بتجارتهما، وتحاسبت معه بعد أن رجع بها، وأن غلامها الذي كان مرافقاً له قد حدثها عنه ومن خلال اللقاء الأول، والثاني، وما عرفته عنه من خادمها رأت خديجة في النبي ﷺ مخايل السيادة، والطهر، والأمانة، وعرفت حسن أخلاقه ويسره في التعامل، فأعجبت بشخصيته وكمالاته الخلقية والخلقية، فقد كانت كلها جاذبة لترغب فيه امرأة، كانت مرغوبة مطلوبة، وإذا بها ترغب بالنبي ﷺ وتعرض عليه الزواج منها، فتزوجها النبي ﷺ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها^(١).

وإن الناظر إلى زواج النبي ﷺ بخديجة يجد أن ذلك من تدبير الله لنبیه، ولطفه به، وحسن تقديره وحكمته في ما يُقدّر، فقد شاء الله أن يتزوج النبي ﷺ هذه السيدة الكريمة المجربة العاقلة، لتكون معه ﷺ في سنوات الشدة والمعاناة بعد ذلك، فتكون له سنداً، وعوناً، ومدداً، فكانت الزوجة الصديقة، والمؤمنة الصديقة، ولذلك فلا خلاف في أنها أول من أسلم من البشر، فأى شرف وأي مكانة لهذه الصديقة، وأي سبق سبقت إليه، وأي منزلة رُفعت إليها!

وقد كانت لنضجها، وحكمتها، وعقلها، ومكانتها مدداً للنبي ﷺ وكان من المناسب أن تكون زوجة له ومعه في أول الدعوة،

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» د. أكرم ضياء العمري (١/ ١١٣).

ولكونها بهذه المثابة فقد ملأت حياة النبي ﷺ فما تزوج عليها ﷺ، إلا بعد وفاتها، فكل زوجاته ﷺ تزوجهن بعد وفاتها.

وقد صحبت النبي ﷺ خمس عشرة سنة قبل النبوة، وعشر سنين بعد النبوة، ورزق منها بابنين وأربع بنات، وعاشت معه زوجة وزيرة، ومواسية ومعينة.

وأحبها كأشد ما يحب رجل زوجته، وبقي وفاقاً لحبها بعد وفاتها فكان كثير الذكر لها والثناء عليها، وعلى صلة بأقاربها وصديقاتها وفاءً لعهدا وذكراها.

الرسول ﷺ يبني الكعبة

في السنة الخامسة والثلاثين من عمر النبي ﷺ تجددت له علاقة بالبيت الذي بناه أبواه إبراهيم وإسماعيل، وذلك أن قريشاً أرادت أن تُعيد بناء البيت، لأن بناءه قد تقادم جداً، فقد مضى على بنائه ألفان وسبعمئة سنة تقريباً^(١)، ثم اشتعل حريق في أستاره فتصدع بناؤه، ثم جاء سيلٌ عظيم أحاط بالكعبة فازداد التصدع، ورأت قريش أن جدران الكعبة آيلة للسقوط، فعقدوا العزم على أن ينقضوا هذه الجدران المتداعية ويُعيدوا بناءها، وسمعوا أن سفينة رومية انكسرت في ميناء الشَّعْبِيَّة، وهو ميناء قريب من مكة، فباع الروم على قريش خشب السفينة، وكان معهم نجار رومي اسمه «باقوم» فاستبقت قريش «باقوم» الرومي حتى يعينهم في بناء البيت، ثم اتفقوا على نقل الحجارة لبناء البيت، ورفع قواعده، ومع نقل الحجارة بدأ دور النبي ﷺ في بناء الكعبة، وكان من دوره أنه كان مع عمه العباس ينقلان الحجارة من مقاطع الحجارة في جبل أجياد إلى الكعبة.

(١) «الحنيفية والعرب» لعبد الرحمن المعلمي (١٥٣).

وكما بنى إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام البيت فقد شارك ابنهما النبي مُحَمَّد ﷺ في تجديد بنائه، فكان يحمل الحجارة على منكبه كما حملها أبواه إبراهيم وإسماعيل، لتكون الكعبة نسباً آخر يربط النبي ﷺ بأبيه إبراهيم ودعوة الأنبياء قبله.

فلما ارتفعوا بالبناء إلى مستوى الحجر الأسود - وهو الحجر المعظم في زاوية الكعبة الجنوبية الشرقية والذي يُقْبَلُهُ مَنْ يطوف بالبيت - تنازعت قبائل قريش فصارت كل قبيلة تقول: نحن مَنْ نضع الحجر، لأن وضع الحجر الذي سَيُقْبَلُهُ الحجيج سيبقى مفخرة لمن وضعوه، فتنافسوا على هذه المفخرة واشتد الخصام بينهم حتى أوشكوا أن يقتتلوا على ذلك، حتى تدخل سيدٌ من سادات قريش وهو أبو أمية بن المغيرة، وكان سيداً مهيباً جواداً، فجمعهم وقال: أرى أن نعتزل نحن ونُحْكَم أول داخل علينا من باب بني شيبه، وباب بني شيبه هو الباب الشرقي مقابل باب الكعبة، وهو الذي يدخل منه بنو هاشم، لأنه يواجه بيوتهم فقالوا: رضينا، رضينا. وبينما هم ينتظرون، وينظرون إلى باب بني شيبه إذا بمحيا مُحَمَّد ﷺ يُشرق عليهم، فلما رأوه فرحوا جميعاً، وقالوا: جاء الأمين، رضينا بالأمين! وكان معروفاً بينهم بالصدق والأمانة، ولذلك رضوا كلهم بحكمه، فدعا ﷺ بكساء فبسطه، ثم أخذ الحجر بيده الكريمة فوضعه عليه، ثم دعا كل مجموعة من القبائل أن يرشحوا منهم رجلاً، ثم أمر كل رجل أن يمسك بطرف من أطراف الرداء ثم يرفعه، حتى إذا حاذوا بالحجر مكان موضعه أخذه النبي ﷺ منهم فوضعه في مكانه، ففرّقوا كلهم عن طيب نفس، وشعروا أنهم قد اقتسموا الشرف ولم يستأثر به أحد منهم، ثم أكملوا بناء البيت.

وكان ذلك في السنة الخامسة قبل البعثة.

إنّ مشهد فرح قريش بخروجه عليهم وقولهم: «جاء الأمين، جاء الأمين» يدل على أن محمّداً ﷺ كان شخصية محبوبة وجذابة، وأنه لم يكن في حال منافسة مع أحد، ولم تكن بينه وبين أحد عداوة، فهو المرضي عندهم جميعاً، ويدل على شهرته بخصلتي الصدق والأمانة، ولذلك كانوا يُسمونه الصادق والأمين. كما أنك تعجب من سرعة بديهته في هذا الاقتراح السريع المرضي للجميع، والذي تم به تجنب مكة وأهلها خطر نزاع كان يمكن أن يتطور إلى حرب أهلية، ولا شك أن حكمته البالغة قد ظهرت، وأنّ مكانته الرفيعة في النفوس قد ازدادت بذلك رفعة، وصار بناء الكعبة الخالد يُذكر ويُذكر معه موقف محمد وحسن إدارته للخلاف، وحسمه للنزاع، واقتداره على تأليف القلوب.

أربعون سنة

عبرت حياة النبي ﷺ هادئة نقية حتى بلغ سن الكمال والنضج، وأكمل أربعين سنة وصار مؤهلاً للمهمة التي سيتحملها والرسالة التي سيبلغها، وإذا نظرت إلى هذه المرحلة الواسعة من عمره فستجد سمات مهمة تصف هذه الحياة، وتبرز معالم هذه الشخصية وتصور ملامح حياته قبل النبوة.

ومنها:

الأولى: أن حياة النبي ﷺ خلال أربعين سنة قبل النبوة كانت حياة هادئة هائلة مستقرة ليس فيها تموجات ولا صدمات، ولا شدائد ولا كروب، إذ لم يتعرض النبي ﷺ في شبابه لبعض ما تعرّض له بعض الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - من ابتلاءات، كما جرى على يوسف في فتوته وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَام في شبابه، وإنما كانت حياة النبي ﷺ حياة هادئة مستقرة، وكأنما كان ذلك لتمتد جذور علاقاتها في الناس بعمق، ولتتسع حياته للناس كلهم فليس في حياته قبل النبوة خصومات ولا منازعات، وليس في تاريخه مشاحنات ولا عداوات.

الثانية: النقاء الأخلاقي الباهر الذي اتسم به ﷺ فكانت سيرته قبل البعثة في غاية النضاعة والنقاء، ويدل على ذلك أن قريشاً عندما لجأت في العداوة ضده بعد النبوة، لم تجد في سيرته السابقة سيئة واحدة تُذكره بها، ولو كانت قريش تظفر من النبي ﷺ في تاريخ حياته بزلة أو هفوة لحفظوها وكبروها وشهروا بها، وقالوا هو الذي كان فعل كذا أو قال كذا، ولكن وضوح سيرته ونقاءها لم يمكنهم من ذلك، فلم تجد قريش عندما عادته ما يمكن أن تعيبه به.

الثالثة: أن النبي ﷺ إذا ذكر تاريخه قبل البعثة فأعرف الناس به أقربهم إليه، وأقرب الناس إليه قبل البعثة زوجته التي عاشت معه خمس عشرة سنة قبل البعثة، وقد وصفت حاله فقالت: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(١)، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ»^(٢). هذه الصفات الأخلاقية هي جماع مكارم الأخلاق، فخمس منها إيجابية وهي عبارة عن بذل وعطاء، واثنتان نافية للسوء عنه، حيث نفت عنه الكذب والإخلال بالأمانة.

وأنباء الله لا يوصفون فقط بأنهم أنقياء أخلاقياً، ولا يُعابون بشيء، بل كانوا أصحاب مروءة، ومكارم أخلاق، وبذل وعطاء، كما رأينا نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ورد ماء مدين ورأى امرأتين تذودان،

(١) الإعانة على نوائب الحق، أي المصائب التي تصيب بالحق فيعين عليها.

(٢) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

والناس من دونهما يسقون توجه إليهما فوراً وقال: ﴿مَا حَظُّكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]. فجاءت ردة فعله سريعة ومباشرة، وكأنما كانت هذه صفة مغروسة فيه وهي المبادرة للمكارم، ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤]، وكذلك كان نبينا ﷺ.

الرابعة: أن النبي ﷺ مع أنه كان متخلقاً بمكارم الأخلاق كلها، ولكنه اشتهر بخصلتين تبرزان أكثر من غيرهما وهما: الصدق والأمانة، لأن هاتين الخصلتين هما أكثر ما يحتاج إليه النبي ﷺ عندما يُقدِّم دعوته، ويبلغ رسالة ربه، حتى لا يُتهم في صدقه وأمانته، وهاتان الخصلتان هما ممَّا سأل عنه هرقل فقال لأبي سفيان وكان حينها مشركاً: هَلْ كُنتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قال أبو سفيان: لَا، وسأله هَلْ يَغْدِرُ؟ فقال أبو سفيان: لَا. إذن: هو الصادق والأمين، فليس في حياته كذب ولا غدر، فإذا جاء بدعوة يُبلِّغها عن الله كان الذي يؤدي رسالة الله إلى خلقه هو ذاك الصادق الأمين ﷺ، ولذا قال قيصر الروم لأبي سفيان: لقد علمت أنه لم يكن ليدعَ الكذب على الناس ويكذب على الله^(١).

الخامسة: أن النبي ﷺ طوال سنواته الأربعين قبل النبوة لم يُعرف عنه أنه شارك قريشاً في وثنياتها، فلم يُذكر عنه أنه عبد صنم أو تقرب له، أو أقام شيئاً من شعائر الوثنية، وهذا ما تعرفه قريش عنه، ومع ذلك لم تعاده قريش، ولم تقل: إن محمداً لا يشاركنا وثنتنا ولا يعبد أصنامنا،

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٠).

ولكن عندما تصدى للدعوة إلى عبادة الله وحده وصارحهم أن هذه الأصنام أحجار لا تضر ولا تنفع، وأخبرهم أن بعد الموت بعثاً وحساباً وجزاءً، هنا بدأ الصدام والمواجهة، واشتدت العداوة له بعد أن كان الصادق الأمين المرضي عندهم، لأن الصالح لا يُستقصد بالأذى، وإنما الذي يُقصد بالأذى هو الداعية المصلح، فلما تولى النبي ﷺ مسؤولية الدعوة، وقام بأعباء الرسالة ومسؤولية الإصلاح وبيّن الحق من الباطل، نُصبت له العداوة.

السادسة: أن النبي ﷺ وُجد في مجتمع عشائري يتنافس على الزعامة والرئاسة، وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ لم يؤثر عنه المنافسة على الزعامة، ولم يؤثر عنه أنه دخل دار الندوة قصر الرئاسة في مكة، وهو ما أشار إليه هرقل حين سأل: هل كان من آبائه ملك؟، قالوا: لا، قال: لو كان من آبائه ملك لقلت: رجل يطلب مُلك أبيه، ولإعراضه عن المنافسة على الرئاسة كان يتمتع بعلاقة جميلة مع الجميع، وبثقة ومحبة عند الجميع، أما لو دخل في منافسة على الزعامة، فسيحصلها عند قوم ويواجه بالعداء عند آخرين، فالمنافسة على الزعامة تعني استجلاب الأعداء، لأن منافسة الناس على حظوظهم الدنيوية مجلبة للعداوة، وهذه من حكمة الله أن النبي ﷺ خلال أربعين سنة لم يكن ينافس على الزعامة مع امتلاكه لمؤهلاتها نسباً وعقلاً وصفاتٍ، حتى لا توجد له عداوات قبل النبوة، لهذا بعث يوم بُعث ﷺ وهو مرضي عندهم جميعاً.

وبما أنه كان زاهداً في الزعامة قبل النبوة، فلا يمكن أن يقال إنه أراد أن يتطلبها بالنبوة.

طلائع البعثة النبوية

لما بلغ النبي أربعين سنة بدأت إرهاصات النبوة^(١) وبشائرها تتابع إليه لتهيئته لتلقي الوحي، فإن نزول الوحي من السماء على بشر يعيش حياته مع الناس واحداً منهم يحتاج إلى تهيئة وإعداد يتدرج به لتلقي القول الثقيل، خاصة أنه كان يعيش في بيئة قد بعد عهداً بالرسالات، وانقطع فيها تتابع الرسل، فكانت هذه الإرهاصات تهيئة وإعداداً للقاء الأول بالملك المرسل من الله.

وكان من هذه الإرهاصات تسليم حجر عليه بمكة قبل أن يُبعث، فعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»^(٢). وكان في مكة إلى عهد قريب زُقاقٌ يسمَّى زُقاقَ الحَجَرِ، يُقال إن فيه الحَجَرَ الذي كان يسلم على النبي ﷺ، وهذا من التهيئة الإلهية للنبي ﷺ ليتأهل بالتدريج لرؤية الخوارق وتلقي الوحي.

(١) إرهاصات النبوة: مقدماتها المبشرة بها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٧٧).

ومن الإرهاصات صدق الرؤيا التي يراها في نومه، فلا يرى رؤيا في منامه إلا رآها في يقظته كضيء الصباح. وهذا ليس معتاداً في حياة الناس، فالرؤيا غالباً تكون رمزاً أو إيحاءً، أما أن تقع في الواقع كما هي في الرؤيا، فهذه إشارة ملفتة، فكيف إذا تكرر ذلك في كل رؤيا يراها عياناً كما رآها في المنام، وكأن هذه رسالة تقول له: أنت شخص استثنائي وأمامك رسالة إلهية فاستعد لها.

ثم كان من الإرهاصات أن حُبب إليه الخلاء والخروج من العمران والتعبد لله خالياً بعيداً عن الناس، فكان يذهب إلى جبل خارج مكة يسمى جبل حراء، ثم يصعد إلى قمته العالية فيتعبد في غار هناك في أعلى الجبل ويقيم فيه الأيام ذوات العدد قبل أن يعود إلى بيته ليتزود بما يحتاجه ثم يعود إلى عزلته وعبادته.

وهذا لم يكن من عادته ولا طبيعته، بل كل إنسان يحب الاجتماع بالناس والأنس بهم، فأن تحبب إليه العزلة ويجد أنسه في الوحدة والتعبد لله في الخلاء البعيد، فهذه تهيئة أخرى ورسالة إلى قلبه كأنها تقول له: استعدّ لما أمامك.

وحين ننظر بتأمل إلى إرهاصات البعثة وزمانها ومكانها، نجد أن هناك معجزات في الاختيار الإلهي للزمان والمكان والرسول وأمه، وفي تدبير أحداث التاريخ حتى تتألف حول هذا الحدث فتُحفّ به ثم تنطلق منه، ومما نلاحظه:

أولاً: الرشد البشري:

لقد مرت البشرية في أطوارها بمراحل يمكن أن نُعبّر عنها بطفولة البشرية، وفتوتها، ثم رشدها، فحين كانت البشرية في طور الطفولة كان الله - عَزَّوَجَلَّ - يُدبر بقدره المباشر أحوالهم، فقد كان يُرسل الرسول إلى قومه فإذا كذبوه أهلكهم الله بعذاب من عنده، فقد أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا بالريح، وشمود بالصيحة، وأصحاب مدين بالظلة، وقوم فرعون بالغرق.

وكان الله يتولى حسم المعركة بين الرسل وأقوامهم، وهو ما عبر عنه أحد الباحثين فقال: «قُلِّمَت شجرة البشرية في طور نموها فشذبت منها الأغصان الجافة بإهلاك الأمم الفاسدة» حتى إذا تراكمت معارف البشر ونضجت تجارب الأجيال، وبلغت البشرية مرحلة اكتمال نموّها الحضاري، وتبادل معارفها وسهولة التواصل بينها، وهي الفترة التي بُعث فيها النبي ﷺ والتي كانت مرحلة نضج البشرية وتهيؤّها لتلقي رسالة عامّة خالدة، فقد تطوّر الوعي البشري وصار قابلاً لتلقي هذه الرسالة الخالدة.

ثانياً: الاختيار التاريخي:

إن الذي يدرس الفترة التاريخية التي بُعث فيها النبي ﷺ يلاحظ أن الفترة التي وُلد فيها ﷺ إلى أن توفي كانت فترة اضطراع عالمي، حيث كان العالم تسيطر عليه الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية، وكانت تخوضان معارك عنيفة متطاولة لدرجة أن الفرس انتصروا على الروم

حتى اجتاحوا الشام، وشمال العراق، وآسيا الوسطى وهزموا الروم هزيمة ساحقة حتى وصلوا إلى القسطنطينية عاصمة الروم آنذاك فحاصروها.

ثم تغير ميزان القوى في الجولة الثانية من الصراع، وبدأ الروم يستعيدون قوتهم ويستردون بلادهم حتى هزموا الفرس هزيمة ساحقة في نينوى، ووصلوا إلى عاصمة الفرس في العراق.

فبعث ﷺ وهذه القوى العظمى محتربة فيما بينها مشغولة ببعضها، فانتشرت دعوته وتوسعت دولته في فترة غفلة هذه الامبراطوريات وانشغالها ببعضها، ولو كانتا في حال وفاق، أو تفوق لإحداهما لما تركوا الدعوة وشأنها ولصار لهم معها مواجهة ضارية، ثم توفي ﷺ، وكل واحدة من الإمبراطوريتين قد شاخت وهرمت واستهلكت قواها، وأصبحت البشرية مهتأة لأمة جديدة فتية تحل محل هاتين الأمتين.

ثالثاً: الاختيار المكاني:

بعث النبي ﷺ في مكة، ولمكة ميزاتها فهي بلد له إرث من الرسالات، حيث توجد فيها الكعبة التي بناها إبراهيم، وعاش فيها إسماعيل، فلها نسب عريق بالهداية، وما زال أثر إبراهيم وإسماعيل موجوداً فيها إلى اليوم.

كما تميزت بموقعها الجغرافي وسط الشريط الغربي لجزيرة العرب، ومع كونها تقع وسط الجزيرة العربية إلا أنها كانت مستقلة بذاتها، فلم تكن تتبع الفرس ولا الروم ولا اليمن،

وكان موقعها متصلاً بالعالم منفصلاً عنه، فرحلة الشتاء والصيف تصلها بالعالم، حيث تصلها بالإمبراطورية الفارسية، والدولة اليمنية والإمبراطورية الرومية، ومع ذلك فمكانها لا يصل إليه النفوذ الامبراطوري، فهو مكان مختار بعناية إلهية ليكون متصلاً بالعالم، فيوصل الرسالة، ومنفصلاً عن العالم فلا تصل إليه هيمنة دولة عظمى^(١).

وكما كانت متوسطة في موقعها الجغرافي فقد كانت متوسطة في حالتها الاجتماعية، فلم تكن غارقة في الترف، مسترخية في النعيم، ولم تكن تعاني شظف العيش وجفاء البداوة.

كما أن مكة بلدة عشائرية لا يستبد بالنفوذ فيها ملك أو أمير أو زعيم قبيلة أو أحد، وإنما كان النفوذ فيها موزعاً بين رؤساء عشائرها، ويتخذ القرار فيها بطريقة تشاورية بينهم، وهذا التوزع في مراكز النفوذ مكّن عشيرة النبي ﷺ وهم بنو هاشم من حماية النبي طوال مدة دعوته في مكة ثلاث عشرة سنة.

لم يواجه النبي ﷺ في دعوته ملكاً متجبراً كالنمرود الذي واجه إبراهيم، أو طاغية متأله كفرعون الذي واجه موسى، أو حاكماً كيبلاطس الذي واجه المسيح.

رابعاً: اختيار الله للأمة:

فكما أن الله اصطفى النبي ﷺ فقد اصطفى الأمة التي سيبعثه فيها وهي أمة العرب، لأنها تتميز بميزات تؤهلها لتلقي الرسالة،

(١) «طلائع النور» للعقاد.

كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فقد كانت فيهم ميزات أخلاقية، ومن أعظمها استقباحهم الكذب، حيث كان السيّد عندهم لا يكذب، ومن تلك الميزات أن العرب أمة أمية ليس لهم تراث ثقافي، ولا فكري، وليس لهم كتاب ولا ثقافة فكرية خاصة بقدر ما كانت أعرافا وتقاليد قبلية، فعقولهم فطرية، ولم تكن محشوة بثقافات متراكمة معقدة، الأمر الذي جعل طريقتهم في التفكير سهلة ومباشرة، إذ لم تكن عندهم ثقافة الإغريق، ولا حضارة الرومان، ولا أساطير الفرس وكانت ديانتهم الوثنية ساذجة سطحية وليست عميقة ولا مؤصلة فليس لها كتاب مقدس، ولا طبقة رجال دين، وإنما كانت أشبه بالأعراف القبلية، ولذا سهل تفكيكها من عقولهم، واجتثاثها من نفوسهم، ولم يعودوا من بعد إليها، ولا يُعرف في تاريخ العرب كتاب قبل القرآن، فهو أول كتاب في تاريخ الأمة العربية.

وكلّ ذلك من حكمة الله في تقديره وتدبيره لنبيه الذي اصطفاه، ورسالته التي أرسلها.



في غار حراء

بُشِّرَى مِنَ الْغَيْبِ أَلَقَّتْ فِي فَمِ الْغَارِ وَحَيًّا وَأَفْضَتْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَسْرَارِ
بُشِّرَى النَّبُوَّةِ طَافَتْ كَالشَّدَا سَحَرَا وَأَعْلَنْتْ فِي الرُّبَى مِيلَادَ أَنْوَارِ
وَشَقَّتْ الصَّمْتَ وَالْأَنْسَامُ تَحْمِلُهَا تَحْتَ السَّكِينَةِ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارِ
وَهَدَّهَتْ مَكَّةَ الْوَسْنَى أَنْامِلُهَا وَهَزَّتْ الْفَجَرَ إِذَا نَا بِإِسْفَارِ^(١)

كلما نظرتُ إلى جبل حراء من بين جبال مكة شعرت كأنما خلقه الله لهذا الحدث، لما يتميز به من خصائص من بين كل الجبال حوله، فالناظر إلى جبال مكة يراها ممتدة كأنما هي مضطجعة، إلا جبل حراء يقف بينها منتصبا كأنما تتناول قمته إلى السماء، وفي قمته غار حراء، والذي يجلس في غار حراء يرى الكعبة تلقاء وجهه، ويمتد نظره في فضاء رحيب فيرى الجبال المتطاولة والأودية الفسيحة، فهو مكان يمتد فيه البصر، فإذا كان في النهار رأى عظمة خلق الله في هذه الجبال العظيمة والأودية السحيقة، والرحاب الواسعة،

(١) من قصيدة بشرى النبوة للشاعر عبد الله البردوني.

وإذا كان في الليل رأى عظمة ملكوت الله في قبة السماء الواسعة، وهذه الكواكب السيّارة متشابكة في الأفق البعيد وكأنما تناجيه وتومض إليه. في هذا المكان كان ﷺ يتعبّد الليالي ذوات العدد ويتزود لمقامه ما يكفيه.

إن هذا المكان في علوّه الشاهق، ومنظره المهيّب، وموقعه المميّز هو المكان اللائق لسبح الفكر العميق، والتفكر في خلق السموات والأرض، والتوجّه إلى الله بعد امتلاء النظر والفكر من رؤية عظمة ملكوته كما قال الله في القرآن: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وفي ليلة ساجية، والكون في سكونه، والنبى ﷺ في تفكّره وتعبّده، يحضنه غاره في أعلى ذروة في الجبل، إذ قطع عليه سكونه وفكره نزول المَلَك، وفجّته الحقّ من ربه.

ويا لله لرسول الله ﷺ وهو في الغار وكل ما حوله سكينه وسكون، لا يسمع فيه صوتاً، ولا يحس حركة، فليس هو على طريق سالك أو حول مكان أهل، ثم يقطع عليه سكون الليل فجأة الحقّ له، وتنزل المَلَك عليه، على غير توقع ولا انتظار، فما كان ينتظر رسالة يُرسل بها، ولا وحيًا يُوحى إليه، ولا كتابًا يُبشّر به كما قال الله في القرآن: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الفصص: ٨٦].

أيُّ فزعٍ يمكن أن يستولي على النفس حينها مهما كانت ثباتاً ورباطة جأش، لقد كان مجيء المَلَك مفاجأة، ولكن خطابه الذي خاطبه به وطلبه الذي طلبه منه كان مفاجأة أخرى حين أمره قائلاً: «اقرأ». يخاطب بها أُمِّيًّا لم يقرأ يوماً مكتوباً، ولم يكتب مقروءاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولذلك أجاب بالجواب الذي لا يمكن أن يجيب بغيره: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ». أي: ما أنا بالذي يقرأ، فأخذه المَلَك فضمَّه ضمًّا شديداً بلغ به غاية ما يحتمله، وجَهِد به جَهِدًا شديداً، ثم أطلقه وأعاد عليه الأمر مرة أخرى: «اقرأ». فأجاب بذات الجواب: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ». وما أَحْسَن القراءة، فأخذه فضمَّه مرة أخرى ضمًّا شديداً حتى بلغ به الجَهِد والإعياء مَبْلَغَه ثم أطلقه، وأعاد عليه المرة الثالثة قائلاً: «اقرأ». فأجاب بالجواب ذاته، فقد كان صادقاً عندما قال أول مرة ولم يتغيَّر شيءٌ من حاله: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ». فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وكانما هذا الضغط المتكرر لتهيأ النبي ﷺ لتلقي القول ويفرغ له قلبه، ويستشعر لقاء الملك بكل إحساسه وشعوره فلا يظن أن ذلك وهمٌ توهمه أو حلمٌ رآه، ولكنه مشهد عاش معاناته وأحسه واستوعبه ووعاه، ولذا فإنه لما انتهى اللقاء وذهب الملك اجتمعت الآيات قرآنها ومعناها في قلب رسول الله ﷺ، وعاد بها مسارعاً إلى بيته، فَرِعَا يَرْجُفُ فؤاده،

حتى دخل على زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو يقول: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»^(١). فرَمَّلُوهُ فقد كان بحاجة إلى الراحة بعد الجَهد، والسَّكينة بعد الفزع، فلما هدأ روعه واستراح بعد إعياء، واطمأنَّ بعد خوف، حَدَّثَ زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأخبرها خبره وما رأى وما سمع ووعى، فهي المرأة الْمُحَبَّة العاقلة الرَّشيدة التي يَتَّقُ بِحَبِّهَا ونُصْحِهَا ورجاحة عقلها، وبث إليها مشاعر نفسه، وهو يقول: «لَقَدْ حَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

فبادرت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بجواب قاطع ساطع، موثَّق مؤكَّد، تُقَسِّم عليه بيقين: أَبَشِّرْ، فَوَالله، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ^(٢)، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ^(٣)، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ^(٤).

لقد كان موقف خديجة أشرف المواقف التي تحمد لمرأة في الأولين والآخرين، طمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكرته بما فيه من فضائل، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يُخْذَلُونَ أَبَدًا، وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم والسماحة والإحسان فليكما يجعله أهل إعزازه وإحسانه^(٥).

(١) زَمِّلُونِي: أي غطوني بلحافٍ يدفئني.

(٢) الْكُلُّ: هو الأمر الثقيل الذي يعجز عنه غيره.

(٣) تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ: بفتح التاء، أي: تُعْطِي الناس ما لا يجدونه عند غيرك. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٥) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (٩٣).

ولتكاد تسمع الكون كله بملأئحته وأفلاكه وعظيم مخلوقاته يردّد مع خديجة ويحاول أن يُسمع محمداً ما أسمعته زوجته: كلا والله ما أنزل الله عليك، وأرسلك وأرسل إليك، واختارك من بين كل هذه البشرية السادرة الحائرة ليُخزبك أو يُحزنك، ولكن ليُكرمك ويُكرم بك، ويُرْفَعك ويرفع بك، ويُسَرِّفك ويُسَرِّف بك، ويشرح صدرك، ويرفع ذكرك، فلا تخش على نفسك، كلا والله، لا يُخزبك الله أبداً^(١).

فلما سكن روعه قالت: انطلق بنا إلى ابن عمي ورقة بن نوفل، فهو رجل كبير في السن وصاحب تجربة وبحث عن الحقيقة، وهو عالم قد قرأ كتب أهل الكتاب لعلنا نجد عنده علماً.

وكان ورقة قد سافر إلى الشام ولقي علماء أهل الكتاب، فتنصّر، وكان يقرأ الإنجيل ويكتبه، ويُجيد العبرانية، ويكتب منها بالعربية.

وإذا النبي ﷺ يتقبّل الاقتراح ويسير مع زوجته فلما حضر عند ورقة تكلمت خديجة وقالت: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فلما أخبره النبي بما رأى، قال له ورقة: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، ففزع النبي ﷺ لَمَّا قَالَ لَهُ: إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟!». قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا^(٢).

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١٣٩ / ٢).

ويظهر أن خبر بعثة النبي ﷺ وهجرته مما ذكر في كتب أهل الكتاب وكان عند ورقة منه علم، ولذا كان يعيش فترة انتظار بعثة هذا النبي، فلما أخبره النبي ﷺ بما رأى علم أن هذا هو النبي المنتظر.

عاد النبي ﷺ مع زوجه خديجة ثم لم ينشأ ورقة أن مات، وفتر الوحي حتى يستوعب النبي ﷺ هذا الموقف فتهدأ نفسه ويذهب روعه ويستعد لما أمامه.

وهنا نرى معاني عظاماً منها:

١ - عظيم عطاء الله وفضله وكرمه - وهو الأكرم - حيث أقبل على البشرية فأنزل عليها وحيه، وخاطبها بكلامه، واختار منهم بشراً مثلهم - أبرهم وأزكاهم قلباً - ليكون فؤاده مُتَنَزِّلَ كلمات الله إلى الخلق، وليكون رسوله إليهم، يأتيهم بالهداية فلا يحتارون، ويدلهم على الطريق الصحيح فلا يضلّون، ويخبرهم بمهمّتهم في الحياة ومصيرهم بعد الحياة، ويصل دنياهم بآخرتهم، فيعرفون موقعهم في الدنيا، ويرون نهايتهم في الآخرة، ولذا تتابعت رسالات الرسل، وصحب الأنبياء أجيال البشرية، يتلقون وحي الله، يهدون به أممهم، ثم بُعث هذا النبي ليكون مصدّقاً للأنبياء قبله وخاتماً لرسالاتهم.

وهو فضل من الله وعطاء تطوّل به من غير استحقاق من البشر، بل ولا سؤال منهم، ولكن هو عَزَّوَجَلَّ بفضله ورحمته يبتدئ بإنعامه ويوالي إفضاله.

أشعر قلبك أن ربك العظيم الأعظم الذي كُلُّ الكون الفسيح الرّهب بعض خلقه وملكوته يُقبل بعظمته وجلاله وكبريائه فينظر إلى البشرية،

وهي تعيش على هذه الأرض والتي ليست إلا هباءة سابحة في كونه
الفَسِيح، فيتكلم في شأنها ويتكلم إليها، وَيُنَزِّلُ كلماته تبين للبشرية
دينها، وتدلها طريقها؟

فيا لعظمة عطاء الله وفضله، ويا لشرف الإنسان بهذا العطاء
والإفضال!

وبذلك تحققت نعمة الله ومنته على البشرية، حيث أرسل إليهم
بهديته رسولاً منهم؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وأجبت دعوة النبيين إبراهيم وإسماعيل حينما دعوا
لذرّيتهما: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٢ - كل كلمة في هذه الآيات لها دلالتها، وإنها لحكمة عظيمة أن
ينزل القرآن بهذا الاستفتاح:

﴿أَقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، ففي البداية جاء الأمر بالقراءة والإشادة بالقلم
والعلم، ويتنزل ذلك على نبيٍّ أُمِّيٍّ، ما قرأ يوماً كتاباً، ولا خطّه بيمينه،
ولو كان هذا الأُمِّيُّ يختار ما يُوحى إليه أو يتقوله -وحاشاه- لما بدأ
بإشهار أمر وإعلانه وهو غير مُتَّصِف به، لتبقى هذه الآية دلالة على نبوة
النبي وربانية الوحي، وأن محمداً ﷺ نبيُّ يُوحى إليه فيُبلِّغ ما أنزل إليه
من ربه.

فهذا النبي الذي أشاد وحيُّ الله عليه بالعلم والقلم تتابع آلاف العلماء وآلاف آلاف الكتب في كتابة وقراءة علمه وشريعته ووحى الله إليه، وهو أُمِّيٌّ ما قرأ ولا كتب، ولكن العلماء يتعلمون ما كتبه غيرهم، أمَّا رسولُ الله فهو أُمِّيٌّ علَّم الناس ما يكتبون.

٣ - لو كان محمد ﷺ مدعيًا للنبوَّة ومتشوقًا لها لنزل من غار حراء فرحاً مستبشراً ينادي، ويقول: يا معشر قريش لقد نزل عليَّ الوحي وجاءني جبريل فأنا نبيكم، لكنه رجع من غار حراء فرعاً يقول: لقد خفت على نفسي، ولا يدري من الذي لقيه حتى أخبره ورقة، حين قال: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، ومصدق ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ [القصص: ٨٦]. فالنبي لم يكن في حال انتظار للنبوَّة، ولا في حال تهيؤ لنزول الوحي، حتَّى فحِثَّه الحق.

وهذا علامة على صدق النبي ﷺ وأنه لم يكن مدعيًا في دعواه، ولا متقوِّلاً في ما قاله.

٤ - قول خديجة: «كَلَّا أَبْشِرْ، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا»^(١). لقد أتت خديجة بهذا اليقين من خِبرَةِ المعاشة مع النبي ﷺ فقد عايشته خمس عشرة سنة قبل البعثة، واطَّلعَت منه على ما لا يَطَّلَعُ عليه إلا الزوجة من زوجها، وكل ما اطَّلعَت عليه من شأن رسول الله ﷺ كان دالًّا لها على أنه لا يمكن أن يُخْزَى أو يحزن، فقد عرفت منه المروءات،

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٥٣).

ومكارم الأخلاق، ونفع الناس، وحب الخير لهم، ومن استقرائها للتاريخ وسنن الله في خلقه علمت أن من كان بهذه المواصفات، فإن الله لا يمكن أن يخزيه، إذ لا يمكن أن يُسخّر الله أحدا لنفع الناس والإحسان إليهم والبر بهم ثم يجعل عاقبة أمره خسراً.

وهذا يبين لنا أن الله عزَّ وجلَّ يصطفى الرسل أهل إحسان للخلق، وأهل مروءة وبر، ورحمة بعباد الله، والحبُّ لنفع الناس هو القاسم المشترك بين رسل الله جميعاً قبل الرسالات، لذلك إذا أتهمت رسالات الله وكُلفوا ببلاغها للناس فإنها تلاقي في نفوسهم استعداداً فطرياً لاستنقاذ البشرية ونفعها والإحسان إليها.

٥ - هناك تشابه في نزول الوحي أول مرة على نبي الله موسى ونبيه محمد عَلَيْهِمَا السَّلَام، فموسى أتاه الوحي في الصحراء عند الشجرة ثم عاد إلى زوجته التي كانت تنتظره، ومحمد ﷺ أتاه الوحي في الصحراء في الغار ثم عاد مسرعاً إلى زوجته في مكة، فكانت الصحراء مهبط الوحي الأول لهما، وكانت الزوجة أوّل من تلقى الرسالة منهما، وآمن بها، وأعان عليها.

قم فأنذر

كان من حكمة الله أن يفتر الوحي عن النبي ﷺ بعد اللقاء الأول حتى يستوعب الموقف، فلم يأت الوحي بعد اللقاء في غار حراء متتابعاً، وإنما فتر وانقطع فترة من الوقت حتى إن النبي ﷺ بعد أن كان فرعاً من اللقاء صار متشوقاً له، وقد عرف الرسول وأنه الملك والرسالة، وأنها وحيٌ من الله، فصار يتشوق لهذا اللقاء الملائكي.

وفي فترة انقطاع الوحي هذه استمر النبي ﷺ يذهب إلى غار حراء، لعل الذي آتاه يأتيه، قال ﷺ: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبَطْتُ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». أي أنه رآه على هيئته الملائكية التامة قد سَدَّتْ عَظْمُهُ خَلْقَهُ أَفَقَ السَّمَاءِ.

قال ﷺ: «فَأَخَذَنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ حَدِيدَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ ٤ وَالْجَنَّةَ فَأَنْذِرْ ۝ ٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ ٧﴾» (١).

ثم حمي الوحي وتتابعت الآيات وتوالى لقاء الملك بالنبي مع كل آيات تنزل عليه.

ولعل الحكمة من رؤية النبي ﷺ لجبرائيل على هيئته التي خلقه الله عليها ليزداد النبي معرفة بعالم الملائكة وصفاتهم وحقيقة خلقهم النوراني، فإن الملائكة هم الواسطة بين الله ورسله في بلاغ الوحي الإلهي، والملك جبرائيل هو الذي ينزل بالوحي على الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٤﴾ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]. فكان من إيناس النبي ﷺ أن يرى هذا الملك الذي ستطول صحبته له ويتوالى تنزله بالوحي عليه.

كما أن النبي ﷺ عندما يرى الملك الذي يأتي إليه برسالة الله بهذه الهيئة العظيمة الهائلة يسد الأفق، بحيث أنه لا ينظر إلى ناحية من السماء إلا سدها خلق جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فما وزن أعداء دينه الذين سيواجهونه بالعداوة والإيذاء أمام قوة جبرائيل ليكون في ذلك تثبيت له وتقوية لقلبه، وليرى النبي ﷺ آية من آيات الله العظمى وهي خلق ملائكته وهيئتهم، ولذلك كانت رؤية النبي ﷺ لجبرائيل على هيئته سكينَةً لفؤاده، ومزيداً ليقينه، وتثبيتاً لجنانه، ليكون رابط الجأش إذا لقي أعباء الدعوة وشدائدها بعد ذلك.

محمدُ الرسول

بعد هذا اللقاء الثاني بين جبريل ومحمد ﷺ أنزل الله قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ رَبَّكَ فَكَيِّرْ ۝ وَبِابِكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالنُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ [المدثر: ١-٧]. وفي هذه الآيات كان التكليف بالرسالة، لأن النبي ﷺ عرف أنه يتلقى وحياً، وأن هذا رسول الله إليه، وأن هذا تكليف من عند الله له بالندارة، ولذلك تصدَّى النبي ﷺ لأعباء الإنذار وقام لها وبها، فاستجاب لهذا الأمر الإلهي القاطع الصارم، الذي يوحي بأنه سيلاقي شدائد في هذا الإنذار، وسيلاقي صدوداً وإعراضاً ولذا كان عليه أن يستعين على ذلك بالصبر، وهو صبر لربه، كما قال سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾ [المدثر: ٧].

فانطلق النبي ﷺ صباحاً إلى الصفا، وهو أصل جبل مرتفع يُشرف على الحرم، فالذي يصرخ على الصفا يُسمع أندية مكة ودورها كلها، فصعد النبي ﷺ على الصفا وجعل ينادي: «يَا صَبَاحَاهُ، يَا صَبَاحَاهُ». فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، قَالُوا: مَا لَكَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟».

قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ»^(١). وفي هذا توجيه لهم إلى الجزاء الأخروي والدار الآخرة والبعث بعد الموت، وكل هذا لم يكونوا يؤمنون به، ثم أمرهم أن يعبدوا الله وحده «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢). وكان خطاباً مفاجئاً صادماً لقناعاتهم الوثنية المتوارثة، وكان أشدهم استنكاراً ومواجهة له هو عمه أبو لهب بن عبد المطلب الذي كان أول من واجهه وقال له: تَبَّ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَتَزَلْتُ: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ أِني لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ٥ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ... [المسد: ١، ٢] إِلَى آخِرِهَا^(٣).

وكانت كلمة «يا صباحاه» نداء الإنذار عند العرب يستعملها الذي يأتي ليُخبر قومه أن أمراً عظيماً قد وقع، كأن تقبل غارة أو تنهب الأموال، فمثل هذه الأحداث العظيمة كان يُنادى لها بـ «يَا صَبَاحَاهُ».

بعد هذا النداء استشهدهم على ما علموه من صدقه، فلمّا أقروا أنهم ما علموا عنه إلا الصدق، حتى وإن أخبرهم بأمر غير متوقع، وهو غارة عدوّ عليهم، مع أنهم كانوا في حال أمان تامّ لا يخشون عدوّاً، ولا ينتظرون غارة، ولكن إن كان هو المخبر فسيصدّقونه.

فلمّا أقروا بذلك أخبرهم برسالته ودعاهم بدعوته وهي توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم الإشراف في عبادته، فليس للخلق إله يعبد إلا خالقهم وهو الله وحده.

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

(٢) «مسند أحمد» (١٦٠٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٩٤)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

ومع أن هذه الدعوة كانت صادمة لهم جميعاً، لأنها تخالف ما كانوا عليه وما وجدوا عليه آبائهم، إلا أن أول مَنْ واجهه وأساء الردّ عليه هو عمّه، وهذا دليل لقومه على أن دعوة النبي ﷺ هذه ليست دعوة عشائرية اتفق فيها مع عشيرته لتكون فضيلة لهم على غيرهم، فهذا عمّه هو أول مَنْ واجهه وأنكر عليه، فهي إذن دعوة عامّة مصدرها الوحي من الله لم يستشِرْ فيها محمداً قرابته ولا أسرته، وإنما تلقى الأمر من الله فصّاع بما أمر به، وبلغ رسالته قائماً منذراً ممثلاً قول ربه له: ﴿فُفَّانْذِرْ﴾ [المدثر: ٢].



القضايا الكبرى في الدعوة المكية

صدع رسول الله ﷺ بدعوته، وأعلنها بنصاعة ووضوح وجلاء، وإذا نظرنا إلى الآيات المكية والأحاديث النبوية في بداية الدعوة وجدنا أهم القضايا التي تكررت هي:

أولاً: إفراد الله بالعبادة، كما كان خطاب كل الرسل إلى أقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وهو ما تقتضيه كلمة التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، إن أعظم الحقائق وأوضحها برهاناً وحدانية الله **جَلَّ وَعَلَا** وتفرد بالخلق والتدبير، وتفرد باستحقاق العبادة وحده لا شريك له، فوحدانية الله حقيقة أزلية أبدية، وكذلك افتقار العالم كله إليه، ولذا جاءت آيات القرآن تقرر هذه الحقيقة، وتدلل عليها، وتردُّ على مَنْ خالفها.

وبرغم عظمة هذه الحقيقة ونصاعتها، فإن البشرية كثيراً ما كانت تضل عنها، فتتخذ مع الله آلهة أخرى وتوجه بالعبادة إلى غير الله من التماثيل والأصنام والكواكب والآلهة المتعددة في ثقافات كثيرة وأمم متنوعة.

وكانت رسالات الرسل تتتابع لتصحيح هذا الانحراف، ودلالة البشرية على خالقها المستحق للعبادة وحده.

لقد كانت أكبر حماقة وقعت فيها البشرية هي التوجه بالعبادة إلى غير الله، وإشراك المخلوقات في حق الخالق الذي لا يجوز التوجه به إلى غيره وهو العبادة، والتي لا تليق إلا له **عَزَّجَلَّ**، وكيف يرتفع المخلوق إلى مستوى الخالق؟ وكيف يسوّى بين الموجود ومَن أوجده؟!.

وكان من أعظم الإكرام للإنسان أن شرفه الله بأن تكون عبادته لله وحده فلا يتوجه بالعبودية لغير ربه الجليل، فالعبودية لله وحده تحريراً للإنسان من كل عبودية لغيره.

كما أنَّ من أعظم الظلم صرف حقِّ الله الذي لا يستحقّه غيره إلى من لا يستحقّه ولا يليق به، فيُشْرِك في حقه مخلوقٌ ضعيفٌ من خلقه، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولضخامة هذه القضية وأهميتها، وكثرة الانحراف البشري عنها، جاءت الآيات كثيرة في عددها، ومتنوعة في دلالتها، لتأكيد هذه الحقيقة العظمى، وهي وحدانية الله وإفراده بالعبادة^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

(١) يُنظر: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» محمّد الغزالي (٢١-٣٠).

﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ ۝١٩٣ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَفْئَالُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩٤ أَلَمْ أَنْجَلْ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيِدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ۝١٩٥ وَإِنِّي وَلِيُّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۝١٩٦ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٨].

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ثانياً: كانت قضية الإيمان بالبعث بعد الموت من أعظم وأهم المسائل التي اعتنى القرآن بإثباتها، وبخاصة أن عامة من خاطبهم القرآن أول ما أنزل كانوا ينكرونها، ويقولون: ﴿مَوْتُ وَحْيًا وَمَا يُهْلِكُكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. و﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا وُفُتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]. ويواجهون ذكر البعث بعد الموت بالإنكار والسخرية حتى جاء أحد المشركين إلى النبي ﷺ وبيده عظم بالٍ قد نخر فنته في يده ثم نفخه حتى طار هباءً، فقال للنبي ﷺ: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما بلي وتفتت، فقال له النبي ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ». وأنزل الله الرد في القرآن على كل من أنكر مثل إنكاره:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٣] ^(١).

وجاءت الآيات القرآنية تقرر الإيمان بالبعث وتقربه للفهم، وتضرب له الأمثال، وترد على من أنكره بأنواع البراهين الدالة على أن بعد الموت بعثاً وحياةً وثواباً وعقاباً، وأن المنقلب من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، ومن العمر القصير العابر إلى الحياة الخالدة الباقية.

وكانت قضية توحيد الله والإيمان بالآخرة هما أكبر قضيتين واجه بهما القرآن من أنزل عليهم، فقد كانوا يشركون مع الله غيره، ولا يؤمنون بحياة بعد حياتهم الدنيا، ويواجهون من دعاهم إلى الإيمان بها بأشد الاستنكار؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّا لَنَكُمُ لَفَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: ٧، ٨].

والاعتقاد بيوم الدين فيه تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض، فلا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجالهم الأرضي المحصور.

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٩).

وعندئذ يكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في الأرض أو في الدار الآخرة سواء، في طمأنينة الله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين.

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر، وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها، وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمداً على العوض الذي يلقاه فيها.

وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل، فهما صنفان مختلفان من الخلق، وطبعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء، وهذا هو مفرق الطريق^(١).

وقد أكثر القرآن الحديث عن الآخرة وحسابها الدقيق ونعيمها المقيم وعذابها الأليم، وأكد للبشر أن حياتهم فوق التراب قصيرة، وأن الموت رقدة مؤقتة بين مرحلتين من الوجود، الأولى للغرس والأخرى للحصاد، وأن بني آدم بعد رحلتهم في أرجاء الدنيا وتوارثهم عمرانها جيلاً إثر جيل سوف يعودون إلى الله كرة أخرى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(١) «في ظلال القرآن» سيد قطب (١/ ٢٤-٢٥).

وردّ على مَنْ أنكر البعث بعد الموت بأنواع الأدلة فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٠-٥٢].

ثالثاً: تزكية النفس بعبادة الله **عَزَّوَجَلَّ**، والعبادة هي طاعة الله في أداء ما افترض علينا مع الخضوع والتعظيم والحب له **جَلَّوَعَلَا**.

وقد بين الله في القرآن أنه إنّما خلق الخلق لعبادته فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وكلّ ما في هذا الكون مسبّح لله عابداً له، فالسماوات والأرض وما فيهنّ مسخرٌ لله بالعبودية، ومسبّحٌ له بعظمته، ﴿سُبْحٌ لَّهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتسبيح هذه الأكوان بالتسخير، وعبودية الجنّ والإنس لله بالتّخيير، حيث جعل الله لهم حرية الاختيار، فأداؤهم للعبادة هو باختيارهم، ولذا عظم الله أجور الطّائعين، وتوعّد بعقاب العاصين.

وتكرر في القرآن أمر الله للناس بعبادته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

رابعاً: الأخلاق الحسنة في التعامل بين الناس، والتي تقوم على العدل والفضل، والإحسان، فكان في أول ما نزل من القرآن التأكيد على هذه المعاني: قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ ﴿٢﴾ وَلَا يُخْضِ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ ﴿٣﴾ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ١-٥]. ففيها التأكيد على الجزاء يوم القيامة وهو يوم الدين، والأمر بالعطف على اليتيم والإحسان إلى المسكين، والتحذير من إهمال الصلاة والغفلة عنها.

وجاء في أول ما نزل من القرآن سبب عذاب المجرمين بالنار يوم القيامة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُومِينَ ۚ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ۚ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۚ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ۚ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر: ٤٢-٤٦]. فهم لم يكونوا يصلون لله، ولم يكونوا يحسنون إلى الضعفاء والفقراء، ولم يكونوا يؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء في الآخرة، فلذا استحقوا هذا العذاب الأليم.

وتكررت في القرآن آيات كثيرة تحثُّ على مكارم الأخلاق والإحسان إلى الناس وبذل المعروف، وأن هذه معاملة مع الله كما هي إحسان إلى الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۚ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۚ﴾ [النساء: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۚ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وتكاد آيات الأخلاق والتعامل بين الناس أن تبلغ ربع القرآن الكريم. وهذه القضايا الكبرى التي أعلنها النبي ﷺ في أول الدعوة المكية زمن الشدة هي التي استمر يؤكدها في الفترة المدنية حال الرِّخاء، ويجدد الوصاة بها إلى آخر عمره وفي كل وصاياه.

إن محمداً ﷺ لم يدعُ الناس إلى مغنم عاجل، أو طمع مادي قريب، ولكنه أراح بدعوته الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حُجِبَتْ عنه، ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، لقد وصل البشر بربهم فربطهم بسببهم الوثيق، وكانوا قبل ذلك حيارى تائهين، إنه وازن للناس بين الخلود والفناء، فاختاروا الدار الآخرة الخالدة على الدار الدنيا الزائلة، وخيرهم بين أصنام هي آلهة وهمية حقيرة وإله عظيم رحيم قادر قاهر فاحتقروا الآلهة المصنوعة الموهومة، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض، والذي له الخلق والأمر عَزَّجَلَّ وتقدس^(١).

لقد كانت دعوة النبي ﷺ واضحة سهلة، فلو سئل أي مُطَّلَع عليها سواء كان مؤمناً بها أو غير مؤمن: إلى ماذا يدعو محمد ﷺ؟ فالكل سيتفقون في الجواب، لوضوح هذه الدعوة وسهولة فهمها، وملاقاتها للفطرة السوية.

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (١١٣).

أسباب رفض قريش الدعوة

كان موقف ملأ قريش الجماعي من هذه الدعوة هو الكفر والإعراض والتصدي لمن آمن، أما المؤمنون فكانوا أفراداً يسربون إلى هذا الدين أحاداً، أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد... وهكذا، كان الداخلون أفراداً، أما المشركون فكانوا فتناً يواجهون الدعوة مواجهة جماعية، وكان لهذه المواجهة العدائية أسبابها، ومن أهمها:

أولاً: تعظيم الآباء والأجداد، ولذلك نجد الأمم كلها تدفع في وجه الأنبياء بحجة أن ما هم عليه هو ما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم فيقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. وكانوا ينظرون إلى ميراث الآباء الديني بتقديس، ويتبعونه معصوبي الأعين بلا تفكير، ولذا أمرهم القرآن بالتفكير في ما وجدوا عليه آباءهم، فقد يكون ما عليه الآباء جهل وضلال،

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ثانياً: أن النفوس البشرية تميل للمحسوس، ولذلك نجد قاسماً مشتركاً بين كل الأديان الشركية وهو وجود الأصنام، لأن الشيطان يدخل من هذا الميل البشري إلى المحسوس إلى إدخال عقيدة الشرك في النفوس، فنرى بني إسرائيل بعد أن عبروا البحر مع موسى، ورأوا هلاك فرعون بأم أعينهم قالوا ما حكى الله عنهم: قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. لقد كانوا مؤمنين بالوهمية الله - عزَّ وجلَّ - لكنهم يريدون آلهة شاخصة محسوسة، ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ثم لما ذهب موسى إلى ميعاد ربه صنع لهم السامري ﴿عَجَلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. فعبدوه، ولما قال لهم هارون: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿[طه: ٩٠، ٩١].

ثالثاً: بُعد عهد قريش بالنبوات، فبنو إسرائيل كان الأنبياء يتعاقبون فيهم، والفترات بين الأنبياء ليست متطاوله، بينما العرب كانت آخر نبوة فيهم هي نبوة أبيهم إسماعيل الذي كان قبل موسى وعيسى، وبينه وبينهم قرابة (٢٥٠٠) سنة، فبُعد عهدهم بالنبوات جعلهم يستغربون الدعوة النبوية والرسالة الإلهية ويقفون ضدها.

رابعاً: التنافس العشائري الموجود داخل قريش، لأن قريشا كانت بطونا عشائرية، وكل عشيرة تريد أن تستأثر بالشرف، ولذلك لما بُعث النبي ﷺ من بني عبد مناف بن قصي نفست العشائر الأخرى ذلك، ويؤكد لنا ذلك ما رواه المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ثقفني من أهل الطائف نزل إلى مكة على صديقه أبي جهل عمرو بن هشام، وهو أشد أعداء دعوة النبي عداوة، قال: فكنت أسير أنا وأبو جهل في أحد سكك مكة، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَبَا الْحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِهِ، أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ». فقال له أبو الحكم وهو أبو جهل: أما إني لو أعلم أن ما تقوله حق ما اتبعتك. قال: فمضى رسول الله ﷺ وجعلت أسير أنا وأبو جهل، قال: فالتفت إليه وقلت: كيف تقول لو أعلم أن ما تقوله حقاً ما اتبعتك؟ وهنا استطاع أبو جهل أن يُنفس عما في نفسه ويُعبّر عن الحقيقة، لأنه يتكلم مع رجل ثقفني ليس من قريش، فقال: إني لأعلم أن ما يقوله حق، ولكننا تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم. قالوا: فينا الحجابة. قلنا: نعم. قالوا: فينا الرفادة. قلنا: نعم. قالوا: فينا الراية. قلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، وأعطوا وأعطينا حتى إذا كنا معهم كفرسي رهان وتحاكت الركب، يعني صارت ركبنا عند ركبهم في مضممار الشرف، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمن أين نأتي بها؟! لا، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً^(١).

وهكذا شَرِقَ أبو جهل والوليد بن المغيرة ومشايخ بني مخزوم بالدعوة نفاسة وحسداً بسبب التنافس العشائري.

وهذه الأسباب هي التي جعلت الملاً من قريش تقف موقفاً جماعياً في وجه هذه الدعوة، ولا يعني أنها مشتركة عند جميعهم، لكن كان عند كل منهم ما يدفعه إلى هذه المواجهة، وبذلك أصبح الموقف الجماعي هو الصدود عن الدعوة، وأصبح المتبعون لهذا الدين آحاداً يسربون إليه فرادى.

والعجيب أن هؤلاء السابقين إلى الإسلام بقوا في مقدمة المسلمين إلى يوم الدين، لأنهم اتبعوا الدين يوم كانت البشرية في حال إعراضٍ وصدود عنه، فهذه السابقة المؤمنة بقيت دائماً في المقدمة.



برهان النبوة

لم يرسل الله نبياً إلا جعل معه علامة تدلّ على صدق نبوته ممّا لا يمكن أن يأتي البشر بمثله، كما جعل العصا آيةً لنيه موسى عليه السلام يُلقِيها في الأرض فتصير حيّةً تسعى، ويضرب بها البحر فيصير طريقاً يَساً، ويضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء عيوناً.

وجعل لعيسى عليه السلام علامة وهي إحياء الموتى، وشفاء الأعمى والأبرص.

وهذه العلامات الحسية كانت مناسبة للأمم السابقة، أمّا النبي محمد ﷺ فقد كانت رسالته عابرة للزمن، ولذلك كان دليل نبوته خالداً، متجدداً مع كل جيل ولكل أمة، وهو القرآن الذي أنزله الله إليه، فهو دليل النبوة الظاهر القاهر.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنْ آيَاتٍ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٨١)، و«صحيح مسلم» (١٥٢).

فالقرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ أنزله على رسوله، وبلغه الرسول كما تكلم الله به، فسمع الناس من هذا الرسول كلاماً لم يسمعوا قبله مثله، وكيف تظنّ أن يكون كلام الله عَزَّوَجَلَّ بالنسبة لكلام البشر في لفظه وفي معناه. جاء القرآن متميّزاً في بيانه، فلا يُشبهه شعر الشعراء، ولا خطب الخطباء، ولا حكم الحكماء، هو صياغة فريدة، وتقسيم للكلام غير مسبوق، في سورة وآياته، فلا يوجد هذا النظام في كلام قبله ولا بعده. وهو مُحَكَّم في سبكه ليس فيه صرامة الشعر، ولا سيولة النثر. وتمتاز آياته بالإيجاز العجيب فتعبّر بكلمات قليلة عن قضايا كبيرة يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل طويلة.

وهو مبهر في خطابه للناس، ففيه البرهان العقلي، والخطاب الوجداني، جمع بين إقناع العقل وإثارة المشاعر، فكان له سطوة على كل من سمعه، فلا بد أن ينصت له، وأن يتأثر به، يقول جبير بن مطعم -وكان قدم المدينة قبل أن يسلم، فدخل المسجد والنبي ﷺ يصلي صلاة المغرب-: فلمّا سمعته يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضِيِّطُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٧]﴾. كاد قلبي أن يطير^(١). أي أصابته هزة وجدانية لشدّة تأثير هذه الآيات وقوة وقعها على نفسه.

ثم إن خطابه المُبهر يستوعب الناس على تفاوت مستوياتهم، فلا ينزل عن ذكاء الأذكياء، ولا يرتفع عن فهم العامة والبسطاء،

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٥٤)، و«سنن أبي داود» (٨١١).

فكلُّ يُدرك منه بحسب فهمه، ويعترف من معناه بحسب سعة إنائه، فهو كتاب الخاصة والعامة، فالقرآن لا يبلغه عقل، ولا يقصر عنه فهم^(١).

وكل كلام إذا كررته مللته إلا القرآن، فكلما كررته ازددت إعجاباً به وشوقاً إليه، وكل كلام إذا أعدت قراءته اكتشفت عيوبه إلا القرآن، إذا كررته اكتشفت مزاياه.

وإنك تجد في هذا الكلام قوة قاهرة، تؤثر ولا تتأثر، تصف الحقائق خيرا وشرها في عزة من لا ينفعه خير واقترار من لا يضره شر.

وكل هذا دليل مستبين قاهر بأنه ليس من كلام البشر، وهو الدليل على أن مبلّغه نبيُّ مُرسلٍ من عند الله عزَّ وجلَّ.

وعندما أتى النبي ﷺ إلى الناس بهذا القرآن كان جازماً قاطعاً يقول لهم بكل طمأنينة ووثوق: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. ثم يلفت نظرهم إلى عظمتهم بأن يطلب منهم أن يحاولوا أن يأتوا بسورة واحدة في مثل نظامه ومعناه، ثم يخبرهم بنتيجة المحاولة لو حاولوا وأنهم لن يستطيعوا وإن استعانوا بكل أحد مهما تكررت المحاولات وتطاول الزمن، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٣] فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. وقال: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. وهذا التحدي ليس بين النبي وقومه العرب فحسب،

(١) «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٧ / ٤٦).

بل بينه وبين البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم، بل بينه وبين الإنس والجن مجتمعين.

إن التحدي الصارم الذي واجه به القرآن الكفار، وأنهم لم ولن يأتوا بمثل شيء من سوره، يبعد عن الرسول -مع ما عرف عنه من الحصافة والحكمة- أن يغامر في الدخول في هذا التحدي المفتوح مع أئمة البيان وفحول الفصاحة، لولا أن مصدر التحدي هو وحي يوحى إليه وليس خياراً يختاره.

وَصُدِّمَ المشركون بهذا التحدي، فهم أعلم الناس بالبلاغة والبيان، وأعرف الناس بمستويات الكلام، ولذا دُهِشُوا ووجموا، وشعروا أن هذا مستوى من القول لا يمكن السَّمْوُ إليه، ولا يجروء أحد على محاولة الإتيان بما يماثله.

ومنذ ذلك اليوم الذي أنزل فيه القرآن وأُعلن هذا التحدي وإلى هذا اليوم لم توجد محاولة جادة لتأتي بمثل هذا القرآن، ولذا احتار أعداء النبي ﷺ والمنكرون لدعوته ماذا يسمّون عجزهم؟، فاجتمعوا قبل موسم الحج ليتفقوا على رأي واحد يقولونه للناس، وأتوا إلى كبيرهم وهو الوليد بن المغيرة، وقالوا له: ما تقول يا أبا عبد شمس، فأقم لنا رأياً نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته^(١)، قالوا: فنقول: شاعر، قال:

(١) خنق الجنون: الحال التي تصيب المجنون فيصير كالذي خنقه أحد، وتخالج المجنون ما يظهر منه في حركاته ومشيته من تجاذب يميناً وشمالاً عن غير إرادة.

ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله؛ رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه^(١)، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. ففترقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره^(٢).

ومع ذلك فلم تنجح أي من هذه الدعاوى الباطلة، ولذا لجئوا إلى الصّخب والضجيج عند قراءة القرآن ليمنعوا الناس من سماعه فقالوا:

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولا يزال لهذا القرآن تأثيره وإبهاره، وأكثر الذين أسلموا اليوم من المثقفين كان سبب إسلامهم قراءة القرآن وتأثرهم بمعانيه وإن قرؤوها مترجمة بغير لغته، وعندما تنظر إلى من تأثروا بالقرآن فإنك لن تجد آية واحدة هي التي أثّرت فيهم، ولا قضية واحدة هي التي أثّرت فيهم جميعاً، ولكن نجد لكلّ منهم موقفاً مع القرآن يختلف عن غيره، وآيات تأثّر بها كأنما أنزلت عليه وله، وشعر باختصاصها بحاله،

يُنظر: «الإملاء المختصر في شرح غريب السير» لابن أبي الرّكب (٨٤).

(١) الرّجَز والهزَج والقريض والمقبوض والمبسوط كلها أنواع من الشعر. يُنظر:

«الإملاء المختصر في شرح غريب السير» لابن أبي الرّكب (٨٥).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٩٩).

وآخر تأثر بآياتٍ شَعَرَ أَنَّهَا تعنيه هو بالذات وتصف حاله، فكلُّ تأثر به من جانب معين، لأن كل واحد وجد فيه ما يبحث عنه ويحل مشكلته ويعالج قضيته، فإذا كان القرآن أثر بصفةٍ دائمة على عقولٍ مختلفة وكلهم وجدوا فيه ما تتطلع له نفوسهم في العقيدة والسلوك، وحلولاً للمشكلات الكبرى التي تقلقهم فلا بُدَّ أن يكون مصدره ممَّن خلق هذه النفوس وعلم دقائقها ومساربها، ومواقع انفعالها وتأثرها، ومواطن تساؤلها وحيرتها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ^(١).

(١) يُنظر «النبأ العظيم» للشيخ محمد عبد الله دراز، و«القرآن المعجز» د. جاري ميلر.

حقائق القرآن

لَمَّا خَضَعَتْ قَرِيشٌ لِتَحْدِي الْقُرْآنَ لَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فَلَمْ يَحَاوِلُوا
لِعَلْمِهِمْ بِعَجْزِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، لَجَّوْا إِلَى التَّشْكِيكِ فِي مَصْدَرِ الْقُرْآنِ،
فَقَالُوا مَرَّةً: ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾
[الفرقان: ٥]. ومرة قالوا إِنَّ هُنَاكَ مَنْ يَعْلَمُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾
[النحل: ١٠٣]. ومرة قالوا: بَلْ هُوَ كَذِبٌ اخْتَرَعَهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]. وهذا الاضطراب فِي أَقْوَالِهِمْ دَلِيلٌ
عَلَى حَيْرَتِهِمْ وَعَجْزِهِمْ عَنْ مُوَاجَهَةِ التَّحْدِي الْحَقِيقِيِّ، وَلِذَا وَاجَهُهُمْ
بِتَكَرُّرِ التَّحْدِي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]. وَكُلُّ هَذِهِ التَّهْمِ مَكَابِرَةٌ لِلْحَقِّ الَّذِي
تَبَيَّنَ لَهُمْ، فَقَدْ عَاشَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَيْنَهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَقُلْ كَلَامًا مِثْلَ هَذَا
الْكَلَامِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

إِنَّهُ ﷺ رَجُلٌ أَمِيٌّ نَشَأَ بَيْنَ قَوْمِ أُمِّيِّينَ، يَحْضُرُ مُشَاهِدَهُمْ وَيَعِيشُ
مَعِيشَتَهُمْ، لَا صِلَةَ لَهُ بِالْعِلْمِ وَالْعِلْمَاءِ، يَقْضِي فِي هَذَا الْمَسْتَوَى أَكْثَرَ

من أربعين سنة من عمره لم يُحفظ عنه أنه نظم شعراً، ولا ارتجل خطبةً، ولم يُروَ عنه قولٌ ممّا يُروى عن البلغاء، ثم يطلع فجأةً فيكلم الناس بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، وييدي لهم فيه من أخبار القرون الأولى والرسالات السابقة ومضامين دعوات الرسل وأنباء الآخرة والأولى، أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأُمّية؟! إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يلتمس خارجاً عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة.

ثم إنّ قصص الأنبياء يوسف وموسى وداود وسليمان وأيوب وعيسى عليهم السلام ومن قبلهم لم تكن تروى في تراث العرب، ولم يكونوا يعرفون تفاصيلها، وكانت معرفتهم مقتصرة على آبائهم إبراهيم وإسماعيل، فجاءت هذه القصص مفصلة في القرآن: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، فمن أين أتى بها محمد ﷺ؟

وكما جاء بالأخبار الماضية التي لا يعرفها هو ولا قومه، جاء بالعود الصادقة التي لم يكن شيء يدل عليها يوم قالها، ولا يبشر بها يوم وعدّها.

ومن ذلك ما جاء في القرآن أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إنها آيات تناول بها محمد ﷺ ما وراء حسّه وعقله من أنباء ما كان وما سيكون وما هو كائن، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشؤون غيبه صدقته الأنبياء والكتب.

ومن دلائل صدقه أن القرآن هو أول كتاب لدى أمة العرب ولا يُعرف للعرب كتاب مكتوب مؤلف بين أيديهم قبله، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يتبع طريقة سابقة فيحتذي بها، وإنما أتى هذا النبي الأمي إلى أمة أمية بكتاب وما كانت تعرف الكتب.

كما أنّ من المعروف أن حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرّت بأحوال صعبة، فكلّ أولاده وبناته قُبضوا في حياته ما عدا السيدة فاطمة، وقد كانت له زوجة لها مكانة كبيرة في قلبه وحياته وهي السيدة خديجة رضى الله عنها ثم ماتت في أصعب ظروف حياته، وبالرغم من ذلك فإن القرآن الكريم لم ترد فيه مثل هذه الأشياء، لا موت بنيه، ولا موت زوجته، بالرغم من أن هذه الأمور قد آلمته وشغلته وأخذت جزءاً كبيراً من انفعالاته، ولو كان القرآن الكريم من نتاجه الشخصي لظهرت انفعالاته النفسية في نصوصه.

كما أن قارئ القرآن سيُفاجأ بأن القرآن لم يذكر اسم أمّ النبي ﷺ ولا اسم زوجته التي كان يحبّها، ولا أيّاً من بناته، ولا أحداً من أصحابه الأقربين كصاحبه أبي بكر أو ابن عمّه علي أو عمه حمزة.

وإنما الأسماء التي تكررت في القرآن هي أسماء الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم.

والمرأة الوحيدة التي ذُكرت في القرآن باسمها، وتكرّر ذكرها،
وسُمّيت سورة كاملة باسمها هي مريم أم عيسى عليهما السلام، ﴿وَإِذْ
قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾
[آل عمران: ٤٢].

وكذا تضمّن القرآن آيات التحذير الشديد التي وجهت للنبي ﷺ
والتي لا يمكن أن يختار أحد أن يخاطب بها، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ
عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ
مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]، ﴿لَيْتَ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾
[الزمر: ٦٥]، ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

إن هذه كلها دلائل على أن محمداً ﷺ لا يختار ما يُنزل إليه، ولكن
يتلقاه ويُبَلِّغه كما بَلَّغَهُ^(١).

فلم يبقَ إذن إلا الاحتمال الأوحده، وهو أن هذا القرآن وحي
أوحاه الله إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى الأنبياء من قبله، وليس لمحمد
فيه إلا تلقيه وبلاغه إلى الناس، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[يونس: ٣٧].

إن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وإنه لم يفيض من قلبه بل
أفيض عليه.

(١) «القرآن المعجز» للدكتور جاري ميلر.

ودلائل ذلك ساطعة إلى درجة التألق، ولا يوجد للقرآن مصدر إنساني لا في نفس صاحبه ولا عند أحد من البشر، فليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعة ومهبطه^(١)، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

(١) يُنظر «النبأ العظيم» للشيخ محمد عبد الله دراز.

وَعَدُ اللَّهِ يَتَحَقَّقُ

كانت آيات القرآن تنزل على الرسول حاسمة في أخبارها، قاطعة في وعدها، بصيغة جازمة لا يمكن أن يقطع بها إلا القدير الذي بيده الأمر كله.

ومن ذلك ما وقع في السنة السابعة من البعثة حين جرت المعركة بين الفرس والروم، فهزم الفرس الروم هزيمة ساحقة اكتسحوا فيها بلاد الشام ودخلوا القدس وانتزعوا منها الصليب المقدس عند النصر.

وقد كان المسلمون يتعاطفون مع الروم ويتمنون انتصارهم لأنهم يشتركون وإياهم في الإيمان بالنبوات والإيمان بالآخرة.

وكان المشركون يتعاطفون مع الفرس لأنهم مثلهم مشركون، يعبدون النار ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وفي أجواء نشوة المشركين بانتصار الفرس وحسرة المؤمنين بهزيمة الروم تنزل القرآن بآيات بينات قاطعات تُبشِّرُ بانتصار الروم بعد هزيمتهم تلك، وتحدد الموعد لهذا الانتصار،

قال تعالى: ﴿الَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ فِي آذَنِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ
سَيِّئَاتُوتٌ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ
لَا يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [الروم: ١-٦].

ولقد كان انتصار الروم بعد هزيمتهم تلك أمراً مستبعداً غاية البعد،
فقد كانت الهزيمة ساحقة حتى وصل الفرس إلى عاصمة الدولة
القسطنطينية وحاصروها، فماذا بقي من دولة تحاصر عاصمتها، وأي
أمل في انتصارها بعد ذلك؟.

ومع ذلك جاء خبر القرآن يبشر بانتصار بعد الهزيمة، ويحدد المدة
بأنها لن تتجاوز تسع سنين.

إن أي عاقل حصيف لا يمكن أن يغامر بهذه النبوءة المحددة إلا أن
يكون الذي نبأه اللطيف الخبير، وقد استبشر المسلمون بهذه البشرى
حتى راهن أبو بكر بعض المشركين على تحقق ذلك^(١).

ومرّت الأيام ووقعت الاضطرابات في دولة الفرس واستعاد الروم
قوتهم، ودخلوا في حروبٍ متتابعة مع الفرس، وبعد سبع سنين هُزم
الفرسُ هزيمة ساحقة، واكتسح الروم بلاد فارس وتحققت بشرى
القرآن وما كان أحد يرجوا تحقيقها إلا الذين آمنوا، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

ومثل ذلك تلك الآيات التي نزلت والمسلمون في شدة ضعفهم في مكة والمشركون في قمة قوتهم وغلوائهم فتَنَزَّلَ آيات القرآن تصف العاقبة وتصور المشهد النهائي، قالت عائشة: لقد أنزل على رسول الله ﷺ وأنا جويرة ألعب في مكة: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ۖ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦] (١).

وبعد خمس سنوات تقريباً تقع معركة بدر فيُهْزَمُ جمع قريش هزيمة منكرة ويهرب الجمع بعد الهزيمة مولّين الأدبار، فكيف صوّرت الآيات المشهد بهذه الدقة؟، وقطعت الوعد باليقين والجزم إلا أنه وحي يوحى؟، إن الذي أظهر هذا الدين هو الذي أنزله، والذي نصر الرسول ﷺ هو الذي أرسله، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ومن ذلك الوعد القرآني الساطع القاطع بحفظ القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وتنزلت هذه الآية قبل أن يكتمل نزول القرآن وقبل أن يُجمع في كتاب، وهو عرضةٌ لضياح ما كُتب منه، ونسيان ما حفظ منه، ولكن الوعد القرآني كان جازماً يقينياً أنه محفوظ بحفظ الله الذي أنزله.

وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٧٦).

الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوناً محفوظاً لا تتبدل فيه كلمة، ولا تحرف فيه جملة، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل، وتصونه من العبث والتحريف.

وقد مرّت بالمسلمين حالات ضعف في قوتهم وتسلبت من أعدائهم، وحاول الأعداء النيل من الإسلام والمسلمين بكل سبيل، لكنهم لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا القرآن ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تُنال، لكنهم لم يقدرُوا مع كل ما قدرُوا عليه أن يُحدثوا شيئاً في هذا الكتاب المحفوظ، فدلّ هذا على ربّانية هذا القرآن، وشهدت هذه المعجزة الباهرة على أنه تنزيل من عزيز حكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ﷺ مجرد وعد، أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة برّبانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول.

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]^(١).

وها نحن نرى مئات الآلاف من مخطوطات القرآن المتباعدة في زمان كتابتها ومكان نسخها، ولا يوجد اختلاف بينها في كلمة فما فوقها، ونجد الملايين من حفاظ القرآن منتشرين في كل دول العالم، لا يختلف حفظ قارئ منهم عن غيره، ولا يزال المسلمون يقرؤون القرآن اليوم في مساجدهم كما كان يُقرأ في مسجد رسول الله ﷺ يوم أنزل عليه.

ولو وُجد خطأ في نسخة صحّحته آلاف النسخ، ولو أخطأ فيه قارئ صحّحه له ملايين الحفاظ.

في حين تزدهم المكتبات بآلاف النسخ الخطية للكتاب المقدس، ولكن لا توجد منهما نسختان متطابقتان. وكلّما اكتُشفت مخطوطات جديدة زاد عدد الاختلافات^(١).



(١) «براهين النبوة» د. سامر العامري (٩٤)،

Bart Ehrman The Orthodox Corruption of Scripture: The Effect of Early Christological Controversies on the Text of the New Testament (Oxford: Oxford University Press 1996) p.27.

حالة المؤمنين في مكة

انطلقت دعوة النبي ﷺ واستجابت له الطليعة الأولى من الصحابة الذين كانوا هم أول من آمن به، زوجته خديجة وصاحبه أبو بكر وابن عمه علي بن أبي طالب، وكون أول من آمن به هم أقرب الناس إليه وأعرف الناس به دليل على صدقه، فهؤلاء إنما صدقوه واتبعوه عن معرفة ومعايشة وخبرة سابقة، فليسوا جاهلين بحاله فيمكن أن يخدعهم، ولكنهم يعرفونه معرفة قديمة عميقة أكدت لهم صدقه فيما يقول، فأمنوا به عارفين موقنين، واتبعوه مؤمنين مطمئنين، ثم تتابع بعدهم السابقون، كطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام وغيرهم، وهذه الطليعة التي آمنت كانت خلية نامية، والحق الذي معها يفسو ويتشر، حتى انتشر في قريش خبر اتباع أناس منهم لدعوة النبي ﷺ التي أعلنها وصدع بها منذ أن أنزل الله عليه الوحي وأمره بالإنذار، وكان هؤلاء الأتباع يكثرون ولا يقلون، ولا يترد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه.

وكان هذا من صنع الله أن تُشرق الدعوة في مثل هذا المجتمع العشائري والذي يتوزع النفوذ فيه بين العشائر ولا يستبد بالزعامة فيه حاكم فرد، ولذا فإن هؤلاء الذين أسلموا كان أكثرهم من عشائر قريش وأبناء الأشراف، فحمتهم أسرهم وعشائرتهم من أن يعتدي أحد عليهم، ولكن بعضهم تعرّض للإيذاء من أقاربه بالحبس أو التوبيخ، فإذا رأوا ثباته وإصراره كفّوا عنه، وهذا ما دفع كثيرين لكتمان إسلامهم أول الأمر، وجعل علاقتهم بالنبي ﷺ سرّية، وكانوا يجتمعون به خفية في دار أحد الشباب منهم واسمه الأرقم حتى كثروا واشتهر أمر الإسلام والمسلمين فأعلنوا إسلامهم.

وأسلم بعض العبيد والموالي كبلال بن رباح، ياسر وزوجته سمية، وابنه عمار، وخباب بن الأرت، وصهيب الرومي، وكان العبيد يعتبرون في ثقافة ذلك العهد متاعاً من المتاع، يتصرف فيه مالكة كما يشاء، ولذا فإنهم لما أسلموا وخالفوا سادتهم عذبوهم بأشدّ أنواع العذاب.

فكانوا يلبسونهم دروع الحديد ويوقفونهم في شمس مكة الملتهبة، وربّما جرحوهم على رمال مكة الحارقة في شدة الحر، فمنهم من مات تحت العذاب مثل ياسر والد عمار، ومنهم من صبر على شدة العذاب كبلال بن رباح، ومنهم من أظهر لهم الموافقة حتى يسلم من عذابهم وهو مؤمن يكتُم إيمانه مثل عمار بن ياسر.

وجاء هؤلاء المستضعفون يوماً إلى النبي ﷺ وقد لقوا شدة من أذى المشركين فقالوا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟

فقال لهم: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فُجَاءٌ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَكْتُمَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(١).

إن النبي هنا يذكرهم بصبر المؤمنين مع الأنبياء قبلهم، واحتمالهم أشد العذاب في سبيل إيمانهم، ثم يمد أبصارهم إلى بشائر المستقبل، وهو ظهور هذا الدين وانتشاره واستقرار الأمن في أنحاء الأرض البعيدة.

وإنك لتعجب من يقين هذا النبي ﷺ وأصحابه بوعد الله، فأصحابه غير آمنين معه في مكة ويخبرهم بأن الدين والأمن سيستقر في أبعد ناحية من جزيرة العرب وهي ما بين صنعاء وحضرموت، وما أسرع ما تحققت هذه البشيرة وأدركها هؤلاء كلهم، فبعد أقل من عشرين سنة كانت الجزيرة العربية كلها بلد أمن وإسلام، ليس من صنعاء إلى حضرموت بل من صنعاء إلى الشام وإلى العراق، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

ومن الملاحظات الظاهرة أن المؤمنين الأوائل كانوا من أجناس متنوعة، ففيهم العربي كأبي بكر، والإفريقي الحبشي كبلال، والفارسي كسالم مولى أبي حذيفة، والرومي كصهيب الرومي، وهذا التنوع كان في بداية الدعوة المبكرة ليحدد اتجاه رسالة محمد،

وأنها رسالة عالمية إلى البشر كلهم على تنوع أجناسهم وأقطارهم، وليست رسالة لوطن أو جنس ولكن رحمة للعالمين كل العالمين.

وهذا ممّا يدلّ على صدق نبوة هذا النبي أنه وجه خطابه أول ما وجّهه إلى الناس كلهم، فلم يوجّه الخطاب لقومه قريش، ولا لأُمته العربية، وإنما كان خطابه إلى البشر كلهم، وكانت آيات القرآن تنزل عليه تخاطب الناس كل الناس، بندااء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾. ويخاطبه القرآن فيقول له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. نعم للعالمين كلهم، بكل أجناسهم وأزمانهم وبلدانهم.

بقي أن نفكر هل يمكن أن يطمح خيال إنسان يعيش في هذه البقعة النائية من الأرض أن يكون خطابه ورسالته عالمية للناس كافة، مع صعوبة وسائل المواصلات، وضعف وسائل التواصل حينها، ومع ذلك يقدّم خطابه بحسم أنه للناس وللعالمين على كل أرض وتحت كل سماء، وعلى تعاقب الأجيال وتتابع الأزمان، ويقطع بيقين أن دينه سيظهر ويتشر، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩].

إن التفكير العقلي والنظر إلى طبائع الأمور وعالم الأسباب والممكنات لا يمكن أن يطمح لذلك ولا أن يتخيله ما لم يكن هذا التوجيه برسالة من الله الذي بيده تدبير الأمور وهو عالم الغيب.

وكم سافرت إلى بلاد بعيدة في إفريقيا وأمريكا الجنوبية وزرت المساجد فجعلت أتفكر في دعوة الرسول ﷺ أول ما انطلقت في مكة وأقول: هل كان أولئك الذين كانوا يكذبونه ويعادونه يتخيلون أن دينه ودعوته ستبقى إلى هذا الزمان، وستصل إلى هذا المكان؟، أين هم ليروا الآن ما أراه، ويسمعون ما أسمعه؟، ليعلموا أنه لا زال ينادي في كل نواحي الأرض بعد أكثر من ألف وأربعمئة سنة: أشهد أن محمداً رسول الله.

هل كان في معاناة الدعوة الأولى ما يبشّر بذلك أو يدلّ عليه لولا أنّه وحي الله وقدره ورسالته؟.



طريق الدعوة

واستمرّ النبي ﷺ في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده، واجتهد في دعوة الزعماء والقادة، لأنهم لو استجابوا لاستجاب أتباعهم، ولو أسلمت قبيلة قريش لأسلمت القبائل التي حولها.

ولذا كان يجتهد في دعوتهم وإقناعهم بصبر عجيب ومثابرة مستمرة، وكان مرةً مُقبلاً على بعض أشرافهم يحدثهم وكأنه رأى منهم إنصتاً فجعل يسألهم هل لديهم اعتراض على ما يقوله لهم، وفي أثناء هذا الحوار جاءه رجل أعمى ممّن أسلم من أصحابه، وجعل يسأله ويقول: يا رسول الله، علّمني ممّا علّمك الله، وكان النبي ﷺ منشغلاً بدعوة هؤلاء الزعماء، فأعرض عنه لما يرجوه من اقتناع هؤلاء القادة، وكره إلحاح هذا الأعمى عليه مع ما هو فيه من شغل، فأنزل الله في القرآن آيات تصف المشهد، وتعاتب النبي ﷺ على إقباله على من أعرض عن دعوته وإعراضه عن من أقبل عليها وإن كان ضعيفاً مُعاقاً، نزل القرآن بآيات خالديات فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَبْكِي ۚ ٢﴾ ١ وَأَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ ٣ فَأَن ت لَهُ صَدَدَى ۚ ٤ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ٥

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۖ وَهُوَ يَخْشَى ۖ فَأَنزِلْ عَنْهُ تِلَافُيًۙا ﴿٨﴾ [عبس: ١-١٠]. وقرأها النبي ﷺ وحفظها أصحابه، ولا زالت تُكتب في مصاحف المسلمين وتُتلى في مساجدهم، فلو كان هذا النبي يختار ما يوحى إليه هل كان سيعاتب نفسه هذا العتاب الشديد مع أنه في حال مواجهة مع خصوم دعوته وأعداء رسالته.

ثم أليس عجيباً وصف العبوس والتّوّلي مع أن الذي عوتب النبي ﷺ من أجله أعمى، لم ير عبوساً ولم يشعر بتول؟!

إنّ هذا يدلّ على أن هذا النبي مبلّغ أمين لما يوحى إليه من الله.

وأكدت الآيات في أول طريق الدعوة حقوق الضعفاء والمعوقين وأهمية التلطّف بهم والإقبال عليهم، ولذا كان النبي ﷺ بعد ذلك إذا أتاه هذا الأعمى يرحّب به ويكرّمه^(١)، فهو الذي عاتبه فيه ربّه.

وقد أراد الزعماء من قريش يوماً أن يتميزوا بطبقتهم فلم يقبلوا أن يجلس النبي ﷺ إليهم أو يجلسوا إليه ومعه جماعة من المستضعفين من المؤمنين به، لما يرون أنهم أقل منهم مكانة وأضعف حالاً، فقالوا له: اطردهؤلاء فلا يصحّ أن نجلس وإياهم جميعاً فيجترئون علينا، وقبل أن يجيبهم النبي ﷺ بشيء نزل الوحي من السماء بآيات من القرآن يقرؤها كلٌّ من يقرأ القرآن اليوم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]^(٢).

(١) «مسند أبي يعلى» (٣١٢٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤١٣).

وهكذا جاءت الآيات حاسمة برفض التفريق الطبقي والتمييز العنصري، وأن هذا الدين لا يمكن أن يستقر في قلوب يملؤها الكِبَر واحتقار الآخرين وازدراؤهم، إذا كانوا أقل منهم ثراءً أو مكانةً وسلطةً.

لقد كانت القيم العليا تؤسّس في خطوات الدعوة الأولى فهي رسالة الله، وهؤلاء خلقه وعباده، وهم في ميزان رسالاته سواسية كأسنان المشط، لا فرق بينهم إلا بتقوى الله عزَّوَجَلَّ.

انتشار الدعوة

مع هذه المواجهة الشديدة من ملأ قريش وزعمائهم ودفاعهم المستميت عن أصنامهم ووثنيّتهم إلّا أن أتباع النبي ﷺ كانوا يزدون شيئاً فشيئاً، ثم إن من دخل في هذا الدين فإنه لا يرتدّ عنه مهما كانت الإغراءات أو التحديات، ولأن مكة مقصد ديني للقبائل فقد انتشر خبر الدعوة والدين في القبائل المتصلة بمكة، وإذا بأناس من هذه القبائل يأتون إلى مكة يسألون عن هذا الرسول ودينه، فاتخذت قريش احتياطاتها، وجعلت تحذّر من أتى أن يستمع للنبي ﷺ، وتقوم بدعاية مضادة لدعوته، وممن جاءه أبو ذرّ الغفاري، وهو من قبيلة تسكن شمال مكة.

وقد حدث أبو ذر عن رحلته إلى النبي ﷺ فأخبر أنه كان يعتقد بطلان وثنية الجاهلية قبل أن يعرف الإسلام، ولم يكن يعبد إلا الله، فسمع بدعوة النبي ﷺ في مكة، فسافر إليه، فلمّا لقيه قال: اعرض عليّ الإسلام. فعرضه عليه، قال: فأسلمت مكاني. فأمره النبي ﷺ أن يكتم هذا الأمر حتى لا تؤذيه قريش، وأن يرجع إلى بلده ويبلغ قومه، وقال له: «فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ عَلَيْنَا»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (٥ / ٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٤).

وجاء مثله عمرو بن عَبْسة وهو من قبيلة أسلم، وتسكن شمال مكة، وقد أخبر عمرو بن عَبْسة عن لقائه بالنبي ﷺ، فقال: إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل في مكة يخبر أخباراً فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ، وقومه قد تجرؤوا عليه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت: ما أنت؟ قال: «أنا نبي». فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله». فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصفة الأرحام، وأن تحقن الدماء، وتؤمن السبل، وتكسر الأوثان، ويعبد الله وحده لا يشرك به شيء». فقلت: نعم ما أرسلك به، إني أشهدك أنني قد آمنت بك، وصدقتك، أفأمكث معك؟ قال: «إنك لا تستطيع ذلك، ألا ترى حالي وحال الناس؟، ولكن ارجع إلى أهلِكَ فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتيني»^(١).

وجاء الطفيل بن عمرو الدوسي وهو من قبيلة تسكن جنوب مكة على طريق اليمن، فأسلم ورجع إلى قومه يدعوهم لما دعاه إليه رسول الله ﷺ^(٢).

وإنما اقترح عليهم النبي ﷺ الخروج من مكة والرجوع إلى قبائلهم لعدم وجود عشيرة تحميهم في مكة لو أقاموا بها وعلمت قريش بإسلامهم.

(١) «مسند أحمد» (١٧٠١٦)، و«صحيح مسلم» (٨٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤)، و«سيرة ابن هشام»

وهنا نلاحظ يقين هذا النبي - مع ما هو فيه من شدة - بأنه سيظهر، وأن نور دعوته سيشرق على الدنيا، ومن شدة يقينه بذلك يجعله موعداً للقاء به ممن تبعوا أركانهم عن مكة، وهكذا كان، فإن هؤلاء لحقوا به إلى المدينة لما هاجر إليها وأقام دولته فيها، ورأوا تحقق وعده لهم.

كما نلاحظ وجود أناس قد نفروا من الوثنية وعبادة الأصجار والأشجار مع الله عز وجل ولذا كانوا يتطلعون إلى دين صحيح، فما إن سمعوا برسول الله ﷺ حتى قصدوه، وآمنوا به، واتبعوه.

وأن دعوة النبي ﷺ قد خرجت عن نطاق مكة وسطوة زعمائها، وصار لها أتباعها المؤمنون بها خارج مكة في قبائل متعددة وأماكن متفرقة.



الهجرة إلى الحبشة

فشا الإسلام في مكة وكثر أتباع الرسالة والمؤمنون بدعوة رسول الله ﷺ وعُذِّبَ المستضعفون والأرقاء من قِبَلِ ساداتهم، وأما أبناء العشائر والقبائل فلم يتعرضوا للإيذاء الجسدي إلا نادراً وفي حالات خاصة، ولكنهم تعرَّضوا للإيذاء من نوع آخر وهو الإيذاء النفسي بأن يتنكَّرَ لهم أقاربهم ومجتمعهم ولا يُلَاقُونَ إلا بالعتاب واللوم، وكان هذا نوعاً مؤلماً من الأذى، وإن لم يكن أذى حسيّاً بل كان أذى معنوياً، ولا يتصور هذه الحال من يعيش اليوم في مدن كبيرة، أما في المدن الصغيرة فإن هذا النوع من الإيذاء شديد على النفس، أن يكون الإنسان في مجتمع صغير ثم يتنكَّرون له، فتضيق عليه الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ، ويشعر بالغربة مع من يعيش معهم.

ومن أشد أنواع الإيذاء النفسي الذي كان المؤمنون في مكة يتعرضون له السخرية والغمز حيث كان المشركون يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم وسخريةً منهم، ويتخذون المؤمنين مادة لفكاهاتهم المردولة، ويغمز بعضهم لبعض بعينه أو يشير بيده،

وهي حركة وضیعة تكشف سوء أدب، وتُشعر بالسخرية والازدراء بمن آمن، وقد وصف الله هذا المشهد في القرآن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

وأخذ خط الإيذاء والتضييق في التصاعد في ظل انتشار الإسلام وثبات الرسول ﷺ والذين آمنوا معه.

وهكذا كان وضع المسلمين في مكة بين قومهم وعشيرتهم وأقاربهم، ولذلك كان لابد من مكان يكون متنفساً لهم، ولذا اقترح عليهم النبي ﷺ أن يهاجروا إلى بلد يؤويهم ولا يتعرّضون فيه لهذا الإيذاء والاضطهاد، فاقترح عليهم الهجرة إلى الحبشة، وهذه الهجرة لم تكن هجرة مغادرة نهائية، وإنما كانوا يقولون نذهب إلى مكان نعبد الله فيه من غير أن نتعرض لهذه المضايقة حتى يحدث الله لنا فرجاً من عنده.

والفرج الذي كانوا ينتظرونه هو ما وعدهم به الرسول ﷺ بأنه وُعد أنه سيظهر، ويهاجر إلى أرض أخرى، ولذلك فهم ينتظرون هذا الموعود.

والذين هاجروا إلى الحبشة كانوا في مجملهم من أبناء العشائر والأشراف الذين يستطيعون السفر والهجرة، وليسوا العبيد والمستضعفين، وإنما كان المهاجرون عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي ﷺ، وعثمان بن مظعون، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وغيرهم من أبناء الأشراف والأسر الكبيرة.

وكانت هجرتهم هجرة علنية، فقد خرجوا أفواجا إلى الشعيبة ميناء مكة، وكأن خروجهم من مكة إعلان احتجاج على قومهم وعشائريهم. أما اختيار الحبشة بالذات فلا اعتبارات منها:

١- أن الحبشة كانت مكانا معروفا لقريش، لأنها كانت متجرا لهم في رحلة الشتاء إلى اليمن، فإذا هاجروا إليها فهم سيذهبون إلى مكان اعتادوا الذهاب إليه يعرفونه ويعرفهم أهلُه وليس مكاناً غريباً عليهم.

٢- وأن الحبشة بها ملك عادل، لا يظلم عنده أحد وهذه نقطة مهمة ولذا أبرزها النبي ﷺ لَمَّا رشح الحبشة لهجرتهم.

٣- وأن أهل الحبشة نصارى أهل كتاب وهم أقرب مودة للذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ يَأْتِ مِنْهُمْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ فَمُشْرِكُونَ، يشاركون قريشاً عداوة [المائدة: ٨٢]. أما بقية قبائل العرب فمشركون، يشاركون قريشاً عداوة الدين الجديد. فذهبوا إلى نصارى أهل كتاب لأن بينهم جوامع إيمانية مشتركة.

وقد تتابعوا حتى اجتمعوا عند النجاشي ملك الحبشة، واستقروا عنده فلمَّا رأى أهلهم في مكة ذلك قالوا: نرسل للنجاشي ليرجعهم إلينا، فأرسلوا وفداً برئاسة عمرو بن العاص في مهمة دبلوماسية بهدف إعادة هؤلاء المهاجرين من الحبشة إلى مكة، فوصل الوفد إلى النجاشي وأهدوه هدايا مما يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وسألوه أن يُسلم

المهاجرين عنده ويردهم إلى مكة، فَعَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُسْلِمُ قَوْمًا لَجَّوْا إِلَى بِلَادِي، وَاخْتَارُوا جَوَارِي عَلَى جَوَارِ غَيْرِي حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ. فَدَعَاهُمْ، وَكَانَ الَّذِي يَكْلُمُهُ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَهُ النَّجَاشِيُّ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشَّرِكِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، فِي سَفَكِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَصَدَّقْنَاهُ، وَأَمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟،

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: اقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ سورة مريم وفيها ذكر مريم، وولادة المسيح وثناء الله عليه كما وردت في القرآن، ومن ذلك خبر مريم ولقائها بالملك وحملها بالمسيح في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧ قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ١٩ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ٢٠ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ٢١ [مريم: ١٦-٢١]. وما تكلم به المسيح في المهد إلى بني إسرائيل: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٢٢ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٢٣ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٢٤﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٢٥ [مريم: ٣٠-٣٣].

فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لِيَخْرِجُنِي مِنْ مَشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، أَنْطَلِقًا، فَوَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا^(١). ففشلت مهمة وفد قريش هذه، وبقي المهاجرون في الحبشة، ثم رجعوا على دفعات فمنهم من رجع والرسول في مكة، ومنهم من رجع بعد هجرة الرسول إلى المدينة.

وقد كان من نتيجة بقائهم عند النجاشي أن أسلم النجاشي سرًّا وأسلم بعض أهل الحبشة، وانتشر الإسلام في شرق إفريقيا قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

وتوفي النجاشي في آخر حياة النبي ﷺ فخرج بأصحابه وصلى عليه ودعا له، وقال: «تُوفِّيَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (١٣٢٠)، و«صحيح مسلم» (٩٥٢).

حصار الشعب

انتشر الإسلام في مكة وكثر المسلمون، وعاش ملاً قريش وكبراًؤهم حالة استنفار، لأنهم رأوا أن هذا الأمر يزداد ولا ينقص، ويكبر ولا يصغر، وأن أصحاب محمد الذين آمنوا به كثروا وصار الناس يأتونه من قبائل أخرى غير قريش فيؤمنون به ويتبعونه، وأن أصحابه المؤمنون به قد وجدوا ملاذاً ومهاجراً عند النجاشي في الحبشة، فصاروا يتشاورون في أمر النبي ﷺ، فقال عتبة بن ربيعة وهو أحد ساداتهم وأشرافهم: يا معشر قريش دعوني أقوم إليه فأكلمه في هذا الأمر، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ وصار يتحدث إليه بلطف فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السُّطة في العشيرة^(١)، والمكان في النسب، وإنك قد آتيت قومك بأمر عظيم فَرَقْتَ به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَرْتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك

(١) السُّطة في الشيء: خياره، أي: أنت من خيارنا وأفضلنا. يُنظر: «مطالع الأنور» للقاضي عياض (٦/ ٢٤٢).

أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ»، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع^(٢) على الرجل حتى يداوى منه. ورسول الله ﷺ يستمع منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ منصت له مستمع إليه قال له: «أَفَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟». قال: نعم، قال: «فَأَسْمَعْ مِنِّي»، قال: أفعل فقل، فقرأ رسول الله ﷺ سورة فصلت من أولها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيهِ ءَاذَانُنَا وَقَدْ أُنْذِرْنَا وَبَيْنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّا عَلِمَلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبِ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ [فصلت: ١-٦].

واستمر النبي ﷺ في القراءة وعتبة منصت لما يسمع حتى ألقى يديه خلف ظهره يعتمد بهما وهو متأثر بما يسمع إليه حتى بلغ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. ففزع عتبة لهذا الوعيد ووضع يده على فم النبي ﷺ وهو يناشده ويقول:

(١) الرئي: ما يتراعى للإنسان من الجن.

(٢) من يتبع الناس من الجن.

ناشدتك الله والرحم -أي: أرجوك أن لا تكمل هذا الوعيد-، وذلك لِمَا كان مستقراً في نفوسهم من صدق النبي ﷺ في ما يقول، ثم عاد عتبة إلى أصحابه وعليه علامات التأثر فقال بعضهم لبعض: لقد جاء أبو الوليد بوجه غير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: إني والله قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه^(١). وهذا ما جعل عتبة يتراجع عن موقفه ويتجاوز تأثره ويبقى على موقف قومه وعداوتهم لتبقى له مكانته وسيادته وشرفه فيهم.

أما النبي ﷺ فإن هذه الإغراءات التي تُقدم له بما فيها الزعامة المطلقة على قومه فقد كانت في نظره ونظر المؤمنين معه عرضاً تافهاً أمام مهمة عظيمة ورسالة شريفة، فأعرض عنها بإباء، ومضى لِمَا أمره الله من الدعوة والبلاغ، ويا لله! هل علم عتبة ومن معه ماذا تُساوي الدنيا كلها في جنب الآخرة وأنها كومة من التراب أو لحظة بالنسبة لعمر الآخرة الأبدي الخالد؟ وماذا يساوي متاع الدنيا وزينتها؟ وموطئ قدم في الجنة خير من الدنيا وما عليها، وشتان بين مَنْ يؤمن بالآخرة ويرجو لقاء الله وثوابه فيها، ومن هو في شك منها، ﴿قَالَيْنِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

فلما رأت قريش أن محاولة الإغراء لم تنجح اجتمعوا ومشوا إلى مركز الحماية للنبي ﷺ وهم عشيرته الذين يحمونه،

فإن بني هاشم مسلمهم وكافرهم لا يقبلون أن يُصاب النبي ﷺ بأذى، وزعامة بني هاشم عند أبي طالب، فمشى إليه زعماء قريش بقيادة أبي جهل عمرو بن هشام يطلبون منه أن يكفَّ ابن أخيه عن عيب دينهم وآلهتهم، فلما أكثروا عليه دعا أبو طالب النبي ﷺ وقال: إن قومك يشتكون منك أنك تعيب آلهتهم، ويريدون منك أن تكفَّ عن ذلك، فقال النبي ﷺ كلمته الخالدة: «وَاللَّهِ يَا عَمَّ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ»^(١).

كم يبلغ السفه والرعونة بهؤلاء المغرورين حين يظنون أن كلمة أبي جهل أو عتبة بن ربيعة أو أمية بن خلف لها وزن عند من تلقى كلمة الله وأمره، وماذا تساوي قوتهم وقواهم عند من يتنزل عليه جبرائيل ويتجلى له في صورته التي خلقه الله عليها، ماذا يساوي هؤلاء أمام قدرة الله وعظمته؟ إنهم هباء في هباء، فلما رأى أبو طالب صلابة النبي ﷺ في ذلك، قال: امض لما أنت فيه، فوالله لن يصلوا إليك وأنا على قيد الحياة.

فلما رأت قريش وزعماءها أن أبا طالب لن يكف عن حماية ابن أخيه اتخذوا خطة أخرى فاجتمعوا وتعاهدوا وتعاهدوا على أن يجتمعوا جميعاً فيواجهوا أسرة النبي بني هاشم ويقفوا ضدهم، حتى يكفوا محمداً أو يسلموه ويتخلوا عن حمايته، وألبهم أبو جهل وجمّعهم حتى يُبرموا اتفاقية ويكتبوا صحيفة سوداء تسمى صحيفة المقاطعة، بنودها:

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٦٦).

لا نتزوج من بني هاشم ولا نؤزجهم، ولا نشترى منهم ولا نبيعهم حتى يكفؤا محمداً أو يُسلموه، فلما كُتبت هذه الاتفاقية استنفر أبو طالب بني عمه بني المطلب، ونزلوا في مساكنهم في شعب بني هاشم المعروف حتى يكونوا قوة حماية مع بني هاشم.

وبقي أبو طالب وبني هاشم وبني المطلب في الشعب، في حصار اقتصادي، وكانت مدة معاناة عسيرة شديدة الوطأة عليهم، ولك أن تتخيل مكة البلد المجدب، والوادي غير ذي الزرع، فليس بلد ريف يعيش أهله وقوت كل منهم ما تنتجه مزرعته وماشيته، وإنما كانوا تجارا قوتهم ما تربحه تجارتهم، فيخرج أحدهم ليشتري طعاما فلا يبيعه أحد، ويخرج ببضاعته لبييعها فلا يشتريها منه أحد، فمرت بهم فترات عصيبة قل فيها الطعام حتى سمع صوت تضاعي صبيانهم في الشعب من الجوع، وأشد من معاناة الجوع المعاناة النفسية التي كان النبي ﷺ يعانيها لمعاناة قومه وعشيرته، فنظرات الوجوه الشاحبة التي تغالب جهدها وجوعها كأنما تقول للرسول ﷺ: إننا نتحمل ذلك من أجل دعوتك.

وهذا الموقف يجعل أقوى العزائم تضعف وتتهار، ولكن النبي ﷺ احتمل ذلك بصبر أولي العزم من الرسل، وباليقين الواثق بموعد الله الصادق.

ولذا احتمل هو وعشيرته الأقربون هذا الحصار المفتوح الذي لا يعلم أحد متى ينتهي؟، ولا كيف سيتهي؟.

لكن هذا الحصار لم يكن مطبقاً وإنما تجري اختراقات له، فكان بعض ذوي المروءات في مكة لا يقبلون بهذا الحصار فربما جاء أحدهم يسوق البعير محملاً بالطعام إلى شعب بني هاشم ثم ينزع خطامه ويضربه على جنبه حتى يدخل في الشعب^(١).

كما كان هناك قبائل أخرى حول مكة لم تدخل في المقاطعة وهم حلفاء بني هاشم في الجاهلية، وكانت الأسواق العامة في المواسم التجارية فرصة لتعويض هذا الحصار، وكان هذا كله ممّا أعان بني هاشم على الصمود في هذا الحصار ثلاث سنوات متتابة.

وهذا الحصار كما كان ضاغطاً على بني هاشم فإنه كان ضاغطاً على قريش، لأنه كلما جاء الناس إلى مكة قالوا: بنو هاشم قاطعتهم قبيلتهم قريش، وهذه ثقيلة على قريش في المجتمع العربي الذي يفاخر بالكرم ويتمجد به، فكيف يتحدث الناس أن بني هاشم الذين عرفوا بالسقاية وإطعام الحجاج قد جاعوا في مكة لا يجدون فيها طعاماً، وهذا ما ضاق به أهل المروءة من قريش واستشعروا العار لو قد هلك جماعة فيهم جوعاً ولم يجدوا من بني عمهم من يطعمهم، فاجتمع بعض النبلاء من قريش واتفقوا على نقض الصحيفة، وأعلنوا رفضها وعدم الموافقة عليها أو الالتزام بها، واتبعهم الناس على ذلك، وبذلك انتهت هذه المقاطعة الظالمة، بعد معاناة ثلاث سنين شداد، وازداد بعدها المؤمنون قوة واعتزازاً.

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥).

أحزان الرسول ﷺ

حصل الفرج لرسول الله ﷺ والمؤمنين معه ولبني هاشم وبني المطلب بانتهاء حصار الشعب، ولكن أعقب ذلك مصائب شديدة أصيب بها النبي ﷺ، فقد فجع بوفاة عمه أبي طالب ثم بوفاة زوجته خديجة، وفقد النبي ﷺ بوفاة أبي طالب السند والظهير الخارجي، الذي يحميه من غلواء كفار قريش، ويقف معه في وجه جميع عشائرها، وفقد بوفاة خديجة السند والمأوى الداخلي الذي كان يحتويه، ويعود إليه فيؤويه، لقد تتابعت الأحزان على الرسول ﷺ فلم يكن بين وفاة خديجة ووفاة أبي طالب إلا ثلاثة أيام، فوقعت فجيحة على فجيحة ومصيبة على مصيبة، لكن نبيك محمدا ﷺ ما هو بذلك الذي تكسره الأحزان وتضعضه المصائب، ولكنه لاقى ذلك بصبر أولي العزم من الرسل، وبالرضا بعد القضاء، والتسليم لما قدر الله وقضى، وعاش وفيًّا لذكرى أبي طالب فقال: «مَا نَأَلْتُ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»^(١). وعاش بقية عمره بغاية الوفاء لذكرى خديجة الصديقة وهو يقول: «إِنِّي قَدْ رَزِقْتُ حُبَّهَا، إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَأَنْتَ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»^(٢).

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

ماتت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وما ماتت ذكرها في نفس النبي ﷺ بل بقيت حية في قلبه، وبقياً لذكرها، لم ينسها ولم ينس فضلها، ولم ينس صوابها وصديقاتها، فقد ظل يعيش وكأنها لا زالت معه، تقول عائشة: كان رسول الله ﷺ يذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صديات خديجة فيقول: «اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى بنت فلانة، فإنها كانت تحب خديجة»^(١)، فقد كان يستعذب ذكرها، ويذكر لها سابقتها وفضلها فيقول: «قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله - عز وجل - ولدها إذ حرمني أولاد النساء، إنني قد رزقتُ حبها»^(٢).

فهذا الوفاء لذكرى خديجة بعد وفاتها، وهكذا كانت لخديجة تلك المكانة، وكان في رسول الله ﷺ ذاك الوفاء لها، ومن وفائه ﷺ لذكرى خديجة، أنه كان يهش ويهش لكل ما يذكره بها، تقول عائشة: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة، فلما سمع رسول الله ﷺ صوتها ارتاع لذلك - أي: هاجت مشاعره وابتهج بطفرة فرح - وقال: «اللهم هالة بنت خويلد»^(٣). يعني لعلها هالة بنت خويلد، يكفي أنها أخت خديجة معها ريح خديجة وذكرى خديجة.

(١) «صحيح البخاري» (٣٨١٨).

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٧).

وَجَاءَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَهَشَّ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَبَسَطَ لَهَا رِداً،
لأن العرب لم تكن البسط متوفرة عندهم، فإذا أراد أحدهم إكرام غيره
خلع له رداءه الذي على ظهره وبسطه له، فالنبي ﷺ بسط لها رداءه
ثم أقبل عليها وجعل يقول: «كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ
بَعْدَنَا؟». ويُقبل عليها وكان اسمها جثامة، فقال لها ﷺ: «بَلْ أَنْتِ
حَسَّانَةٌ»، وهذا من ملاطفة النبي ﷺ لها، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا خَرَجَتْ
قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الْإِقْبَالَ؟ فَقَالَ ﷺ: «هَذِهِ
جَثَامَةٌ إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).
كم أقرأ هذا الحديث وأتعجب وأقول: يا الله، النبي ﷺ يرتاع لسماع
صوت أختها ويقول: «اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ». ويهش لعجوز كانت
تزورهم زمن خديجة! فماذا لو جاءت خديجة نفسها، كيف ستكون
حال النبي ﷺ؟ كيف تكون هشاشته وبشاشته وحفاوته؟! إِنَّهُ الْوَفَاءُ
النَّبَوِيُّ، وَحُسْنُ الْعَهْدِ لِيَذْكَرَ الْعِشْرَةَ الطَّيِّبَةَ الْكَرِيمَةَ.

الخروج إلى الطائف

لما توفي أبو طالب تجرأت قريش على النبي ﷺ بما لم تكن تجرؤ عليه من قبل، ونالت منه ما لم تكن تناله، وبلغ من جرأتهم ما حكاه عبد الله بن مسعود عن حادثة شاهدها ووعاها ثم رواها وكأنه يراها، قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام، ثم انتصب يصلي في ظل الكعبة، وكان أبو جهل جالساً عند الكعبة، وحوله ملاً من كفار قريش: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعُمارة بن الوليد، وعُقبه بن أبي مُعيط.

فلما رأى أبو جهل طول سجود رسول الله ﷺ أقبل على أصحابه فقال: ألا تنظرون إلى هذا المُرثي، أيكم يقوم إلى جزور بني فلان - وكانوا قد نحروا جزوراً بالأمس في ناحية مكة - فيأخذ من قرثها ودمها وسَلَاها - وهي البقايا التي تستقذر منها - ثم يُمهل محمداً حتى يضع وجهه ساجداً، فيضعه على ظهره؟ فكأنهم هابوه، فقال أشقاها عُقبه بن أبي مُعيط: أنا. فانطلق إلى بقايا تلك الجزور، فاحتمل من قرثها وسَلَاها، فأتى به، ثم انتظر حتى إذا سجد رسول الله ﷺ ألقاه بين كتفيه،

فَضَحُّوا يَضْحَكُونَ، حَتَّى جَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ، تَهَكُّمًا وَسُخْرِيَةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَا أَغْنِي شَيْئًا، لَيْسَ عِنْدِي عَشِيرَةٌ تَمْنَعُنِي، فَأَنَا أَخَافُهُمْ، وَلَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ لَطَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاَنْطَلِقُ إِنْسَانٌ إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأُخْبِرُهَا، فَأَقْبَلَتْ وَهِيَ جَوِيرِيَّةٌ تَسْعَى، فَطَرَحَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسْبُّهُمْ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ وَضَعَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَاسْتَمَرُّوا فِي ضَحْكِهِمْ وَسُخْرِيَتِهِمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحْكُ وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، وَكَانُوا يَرُونَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ وَعِنْدَ الْكَعْبَةِ مُسْتَجَابَةٌ^(١).

وَلَكِ أَنْ تَتَخِيلَ أَيَّ أَلَمٍ نَفْسِي شَعَرَ بِهِ هَذَا النَّبِيُّ وَهُوَ مُسْتَغْرَقٌ صَلَاتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ فَإِذَا بِالْقَدَرِ يَلْقِي عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ يَسْمَعُ سُخْرِيَةَ أَعْدَاءِ رِسَالَتِهِ وَضَحْكِهِمْ وَشِمَاتَتِهِمْ.

أَيَّ أَلَمٍ نَفْسِي عَاشَهُ حِينَ لَمْ يَجِدْ مِنْ يَنْصُرُهُ إِلَّا بَنِيَتَهُ الصَّغِيرَةَ. إِنَّ كُلَّ فَتَاةٍ بِأَبْيَهِهَا مَعْجَبَةٌ تَرِيدُ أَنْ تَرَاهُ فِي أَعْظَمِ وَأَجْمَلِ حَالٍ، فَكَيْفَ وَهُوَ يَرَى بُنْيَتَهُ هِيَ الَّتِي تَرْفَعُ عَنْهُ الْأَذَى وَتَسُبُّ مِنْ شِمْتٍ بِهِ وَتَدْعُو عَلَى مَنْ آذَاهُ، أَيَّ أَلَمٍ يَقُومُ فِي قَلْبِهِ لِأَلَمِهَا، وَأَيَّ أَسَى مِنْ نَفْسِهِ لِأَسَاسِهَا.

(١) يُنْظَرُ: «صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ» (٢٤٠).

ولكن هذا النبي كان قد وطن نفسه على تحمل كل ما يلقاه لا يصدّه ذلك عن مهمته ورسالته التي أرسل بها، ودعوته التي كلف ببلاغها.

إن هذا المشهد صورة لبعض ما تجرأت به قريش على النبي لما انكشفت الحماية العشائرية عنه بوفاة عمه أبي طالب.

ولذا بحث النبي ﷺ عن تربة جديدة خارج مكة يستنبت فيها بذرة دعوته. وكانت أقرب بلدة عامرة حول مكة هي الطائف، فتوجه إليها علّه يجد هناك آذاناً صاغية، وقلوباً مؤمنة، تحتضن الدعوة فتؤمن بها، وتبلغها للناس، وتؤويه وتنصره حتى يبلغ رسالات ربّه إلى العالمين.

فتوجه إلى الطائف سيراً على قدميه ومعه مرافقه المؤمن به زيد بن حارثة، والطائف تبعد عن مكة قرابة (١٠٠ كم)، وهي بلاد مرتفعة خصبة غزيرة المياه وارفة الأشجار، كثيرة البساتين والثمار.

وصل النبي ﷺ إلى الطائف في فصل الصيف وفي ذلك الوقت يكون ملأ قريش قد صعدوا إلى بساتينهم فيها، فقريش معه في مكة وقريش معه في الطائف. أقام النبي ﷺ قرابة عشرة أيام يدعو أهل الطائف وكان ملأ قريش يحذرونهم منه، يقول خالد العدواني وهو من أهل الطائف: أتانا رسول الله ﷺ في الطائف فرأيتُه واقفاً معتمداً على عصا، فقرأ سورة ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]. فحفظتها منه وأنا مشرك، فقال لي قومي وقد وعيتها، ماذا قال؟ فقرأتها عليهم، فقال ملأ قريش عندهم: نحن قومه أعلم به لا يفتنكم^(١). فحرّض القرشيون أهل الطائف أن يرفضوا دعوته ويردوا على النبي أقبح رد.

(١) «مسند أحمد» (١٨٩٥٨)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٧٧٨).

فرجع النبي ﷺ من الطائف ولم يتحقق ما كان يرجوه من استجابتهم، وفُجع بضلال أهل الطائف وغلوئهم في الكفر، ثم هو سيعود إلى مكة التي كان أهلها جراء عليه، فيا ترى كيف ستكون جراءتهم إذا عاد من الطائف، وأخبار ما لقي في الطائف قد وصلت إليهم قبل أن يصل؟!، وكيف ستكون شماتتهم وسخريتهم وجراءتهم وأذاهم.

ولذلك كُرب النبي ﷺ وهو يسير من الطائف إلى مكة كرباً شديداً، لما يتوقعه من جراءة أهل مكة إذا وصلها وشماتتهم وأذاهم، ومشى في الطريق وهو مغموم يدعو ربه ويستنصره: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَنْجَحِّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أُمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزَلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

بهذا الدعاء الضارع كان ﷺ يناجي ربه مكروبا مغموما حتى إنه قطع الطريق من الطائف إلى أن وصل إلى مكان يسمى قرن الثعالب وهي مسافة (٤٦ كم) وهو في حالة استغراق مع نفسه لا يشعر بما حوله فما استفاق إلا بالسماء قد صُدمت، والملائكة قد تنزَّلت، وجبرائيل يسلم عليه ويقول: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ،

وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاهُ مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِينَ؟». وهما الجبلان الذان يحيطان مكة فيدفنهم تحت أحجارها كما قلبت ديار قوم لوط في سدوم على أهلها. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١). أي: لو أن هذا الجيل كله لم يستجب لي فإني أنتظر الجيل الثاني.

ثم سار ﷺ حتى وصل إلى مشارف مكة، فلم يدخلها وقرش في شَرَّتِهَا وشماتتها وغلواء جرأتها وإنما أرسل يطلب الجوار والحماية لدخول مكة، ويا لله لكرب النبي ﷺ محمد بن عبد المطلب، الذي كان جده عبد المطلب سيّد مكة، وجده هاشم سيّد مكة ومطعمها، وهو ابن بيت زعامة مكة وسيادتها فإذا به يطلب الحماية ليدخل إلى مكة، بلده التي فيها وُلِدَ، وفيها سيادة آبائه، والأعجب أن يطلب الجوار من بعض سادة مكة فيعتذرون منه، فطلب الجوار من المطعم بن عدي فأجاره المطعم بن عدي، وكان سيّداً مهيباً شهماً كريماً، وخرج في الصباح مع أولاده وألبسهم السلاح وأقامهم على أركان البيت، ودخل النبي ﷺ فوقف المَطْعَم وقال: «يا معشر قريش، إني قد أَجَرْتُ محمداً فلا يعرَضَنَّ أحدٌ منكم له بسوء»^(٢). قالوا: قد قبلنا جوارك يا أبا جبير. فدخل النبي ﷺ في جوار المطعم بن عدي، وبقي وفيّاً لذكرى المطعم وجواره، يذكره ويذكر موقفه هذا بالذكرى الحسنة^(٣).

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: «صحيح البخاري» (٤٠٢٤).

وهنا ترى هذا النبي يرجو ربه أن يرفع العقوبة عن قومه برغم عداوتهم وأذاهم، لأن له أملاً في الأجيال القادمة أن تعرف الحق وتتبعه «أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»^(١).

لقد كانت عاطفة الرحمة في قلبه أعظم من شهوة الانتقام، وكان حرصه على هداية الناس وإنقاذهم من ظلام الوثنية وضلال الكفر هو الهدف الذي يقود مسيرته، وليس ردّات الفعل، ولا حالات الانفعال.

وأقرّ الله عين نبيه فلم تَمِّمْ عشر سنين حتى رأى أبناء سادة مكة وأشدّ أعدائه الكفار فيها مسلمين مؤمنين، فأبو جهل أسلم ابنه عكرمة، وأمّية بن خلف أسلم ابنه صفوان، وعتبة بن ربيعة أسلم ابنه أبو حذيفة وغيرهم، وهم من أبناء كبراء قريش وأشرافهم، فتحقق رجاء النبي ﷺ، وصاروا دعاة للدين، ومجاهدين في سبيله، وما أقصر عشر سنوات في عمر الزمن، صدق الله فيها نبيه ما وعده، وحقق له فيها أمّله.

الإِسْرَاءُ وَالْمَعْرَاجُ

عاد النبي ﷺ من الطائف بعد أن عاش في ذهابه ورجوعه أشد كرب مرَّ عليه في حياته.

ثم حصل له بعد ذلك التكريم والتثبيت الذي ما طاله بشر قبل النبي ﷺ ولا بعده، وذلك بالإِسْرَاءِ به من مكة إلى بيت المقدس، ثم العروج به إلى السماوات العلى، وهذه الرحلة خرق للأسباب المعتادة والقوانين الأرضية، فقد ألغيت فيها مسافة الزمان والمكان، وانتقل النبي ﷺ من قوانين الأرض إلى عوالم السماء.

فلا نتساءل عن المسافات كيف تجاوزها، ولا السماوات كيف ارتقى إليها، لا نسأل عن الجاذبية ولا الأكسجين، ولا مدة الزمن وبُعد المسافة، فهنا ألغيت الأسباب الأرضية وعبرت إرادة الله وقدرته.

لقد ضرب موسى البحر فصار طريقاً يَساً، وضرب الحجر فتفجّر ينابيع متدفقة، ومسح عيسى الأعمى فعاد مبصراً، ومسح الميت فقام حياً، ورفع الله بعد أن توفّاه إلى السماء، وهذه كلها على غير

الأسباب المعتادة، ولكن يتجاوزها أمر الله الذي قدّر هذه الأسباب وأجرى هذه السنن، فهو الخالق وهذا خلقه، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون.

فرحلة الإسراء والمعراج ليست رحلة روحية أو رمزية ولكنها حقيقية بالروح والجسد خرقت نواميس الكون وقوانين الأسباب بقدرة مُسَبِّب الأسباب وأمره.

فأسرى الله نبيّه إلى القدس، ثم عرج به إلى السماء ليرى من آيات ربه الكبرى ما يُثَبِّت الله به فؤاده، ويرفع به مقامه.

وكان من قصة الإسراء والمعراج أن جبريل أتاه في الليل، ومعه البراق، وهو يشبه الفرس، لكنه يسير بسرعة خارقة كسرعة الضوء، فيضع حافره عند منتهى بصره، فركبه وسار به جبريل إلى القدس، فدخل المسجد وصلى فيه ركعتين ثم خرج، فأخذ جبريل بيده فصعد به إلى السماوات السبع يخترقها سماءاً إثر سماء، وُصِّوَتْ له أطيايف الأنبياء فالتقى بهم في منازلهم في السماوات، فالتقى بآدم ويحيى وعيسى، ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم، فعرفهم وعرفوه، يحييهم ويحيونهم، ويرحبون به: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، أمّا آباؤه آدم وإبراهيم فيقولون: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح.

وشتان بين هذا الترحاب المتكرر في الملاء الأعلى وذاك الإعراض والصدود الذي لقيه في الطائف، فكأن تكريم أهل السماء كان تعويضاً عن إعراض وتنكّر أهل الأرض.

ثم صعد إلى الأفق الأعلى فوق السماوات العلى ورأى حجاب النور الإلهي، وكلمه ربه^(١).

فأي قوة أعطاه الله للنبي ﷺ حتى يكون في قدرته احتمال أن يرى حجاب النور الإلهي الذي بينه وبين الله - عَزَّجَلَّ -، ولما سئل النبي ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(٢)، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٣).

وسمع النبي ﷺ الخطاب الإلهي فخطبه ربه، ونال النبي ﷺ بذلك التشريف الذي ما ناله بشر قبله ولا بعده، حيث كلمه ربه في الملاء الأعلى.

وفي رحلته تلك فُرِضَتِ الصلوات الخمس التي يؤديها المسلمون في كل يوم ليلة، وفي هذا مزيد تعظيم للصلاة أن تكون فريضة هناك في الأفق الأعلى.

ثم نزل إلى بيت المقدس آخر الليل، فلمّا وصله وحانت صلاة الفجر صَلَّى بالأنبياء الذين رأى أطيا ف أرواحهم في السماء، ثم اجتمعوا إليه في الأرض فصلّى بهم جميعاً، فهو آخرهم وهو إمامهم. واجتمعوا له في بيت المقدس تكريم وتعظيم له، واجتمعوا لوداعه في الأرض بعد استقباله في السماء.

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٨٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٧٩).

ثم ركب البراق وعاد إلى مكة وكل ذلك في ليلته تلك.

إن هذه الرحلة العلوية كانت تثبيتاً للنبي ﷺ، فكيف ستكون نظرة النبي إلى قوة ملائكة قريش وبغيهم وغلوائهم وقد رأى جبرائيل في الملائكة الأعلى على هيئة الملائكة العظيمة؟

وفي هذه الرحلة تكريم من الله له بأن رفعه إلى هذا المقام الأعلى، فما قيمة عرض قريش بعد ذلك عندما تقول له: إن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا؟ وقد رأى الجنان العلا، وسدرة المنتهى، وكلمه ربّه وقربه وأدناه، ولذلك كان العروج به إلى السماء تثبيتاً لفؤاده وتشريفاً لمقامه.

وفي رؤية الأنبياء والسلام عليهم صلة بهم وارتباط بدعوتهم ورسالاتهم، وفي التحيات المتبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثيق لهذه الآصرة وتقوية لهذه العلاقة، فالنبوات المتتابعة في عمر الزمن يُصدّق بعضها بعضاً، ويمهد السابق منها لللاحق، وهذه الرابطة بين الأنبياء من أسس دعوة هذا النبي ﷺ، ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

لقد هيأ الله لنبيه هذه الرحلة العلوية لتكون إنعاماً عليه وتشريفاً لقدره وتطميناً لقلبه، وليشعر أنه بعين الله منذ قام يوحد الله ويعبده، ويدعو الناس إلى توحيده وعبادته.

وأتاح الله بها لرسوله الاطلاع على الملكوت الأعلى وما فيه من مظاهر قدرته وجلال عظمته حتى يملأ قلبه ثقة فيه واستناداً إليه وهو يواجه قوى الكفر المتألبة، وسلطانها الغاشم.

إن رحلة الإسراء والمعراج وقعت قريباً من منتصف عمر الرسالة التي مكثت ثلاثاً وعشرين سنة وبذلك كانت علاجاً مسح متاعب الماضي، ووضع بشائر النجاح للمستقبل^(١).

ولمّا أصبح النبي ﷺ حدّث الناس بخبر الإسراء والمعراج وقصّه عليهم بيقين ووثوق، فأما الكفار منهم فازدادوا إنكاراً وسخرية، وقالوا: نحن نسير إلى القدس شهراً ذهاباً، وشهراً رجوعاً، ويحدّثنا أنه ذهب إليها وعاد منها في ليلة.

ومزيداً في التعنت والإنكار جعلوا يسألون النبي ﷺ عن وصف بيت المقدس وأشياء يعرفونها هناك لم ينتبه النبي ﷺ لها في رحلته تلك، فإنّه وصل إليه في الليل وعاد في الليل، وكان منشغلاً بصحبة الملك ولقاء أطيف الأنبياء، ولم يكن مهتماً بعدد الأبواب ووصف الأعمدة والجدران، ولم يتصوّر ما سأله عنه فكرب كرباً شديداً لأنه لو لم يجبههم وجدوا حجة في اتهمه بالكذب، فرفع الله له صورة بيت المقدس، فإذا هو ينظر إليه أمامه^(٢)، فلم يسأله عن شيء من صفته إلا أخبرهم به، وكان في هذا دليلاً على صدق خبره، ولكنهم مع ذلك ازدادوا إنكاراً وتكديباً، لأنهم لم يسألوا بحثاً عن الحق وإنما سألوا مكابرةً وإنكاراً.

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (١٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧١٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٠).

وأما المؤمنون فازدادوا إيماناً و يقيناً، لأنهم يعلمون أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه على كل شيء قدير، وعلموا أنها كرامة ومعجزة من الله لنبهه الكريم، وقال لهم أبو بكر حين أخبروه وظنوا أنهم سيخرجونه بهذا الخبر وأنه لا بدّ سيكذّبه فقال لهم: إن كان قال فقد صدق، إني أصدّقه بما هو أعجب من ذهابه هذا، أصدقه بخبر السماء يأتيه في الصباح أو المساء^(١).

(١) «المستدرك» للحاكم (٤٤٠٧).

بيعة العقبة

برغم كل مرارات المصائب المتتابعة على النبي ﷺ من حصار الشعب ووفاة أبي طالب وجراءة قريش بالإيذاء وما لقيه في سفره إلى الطائف، فإنه استمر في دعوته وبلاغ رسالات ربه، ومحاولة فتح آفاق جديدة لدعوته، ومن ذلك غشيان الناس في مجامعهم، وشهود مواسمهم، ولقاء وفود القبائل إلى مكة، أو الأسواق التجارية، ودعوتهم إلى الإسلام، وكان طوال تلك السنين يلاقى بالصدود والإعراض، مع تحذير قومه منه مما جعل وفود القبائل يعرضون عنه ويقولون: قومه أعلم به، ولكن بعد موت عمه أبي طالب صار مع عرض الدعوة على الناس يطلب الحماية والنصرة ويقول: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»^(١).

(١) «مسند أحمد» (١٥١٩٢)، و«المستدرک علی الصحیحین» (٤٢٢٠)، و«سنن

الدارمی» (٣٣٩٧).

وكان عمه أبو لهب يسير خلفه فإذا فرغ رسول الله من حديثه يقول: **إِنَّ هَذَا يَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ تَفَارِقُوا دِينَ آبَائِكُمْ، وَأَنْ تَسْلُخُوا اللَّاتَ وَالْعُرَى، إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالِ^(١).**

وقد وصف ذلك أحد الشباب الذين رأوا هذا المشهد، وهو ربيعة بن عباد الديلي، فقال: **إِنِّي لَمَعَ أَبِي رَجُلٌ شَابٌّ أَنْظَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَّبِعُ الْقَبَائِلَ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ، وَضِيءٌ دُوْ جُمَّةٍ، يَقِفُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبِيلَةِ فَيَقُولُ: «يَا بَنِي فَلَانِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، أَمْرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُصَدِّقُونِي وَتَمْنَعُونِي حَتَّى أَنْفِذَ عَنِ اللَّهِ مَا بَعَنِي بِهِ».** فإذا فرغ رسول الله ﷺ مِنْ مَقَالَتِهِ، قَالَ الْآخَرُ: **مَنْ خَلْفَهُ يَا بَنِي فَلَانِ، إِنَّ هَذَا يُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَتْرَكُوا آلِهَتَكُمْ، فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ، وَلَا تَتَّبِعُوهُ، فَقُلْتُ لِأَبِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ^(٢).**

ومع كل ما يلاقيه من الناس من الإعراض والصدود، وما يلاقيه من عمه وقومه من التكذيب له والتحذير من دعوته إلا أنه استمر في دعوة الناس إلى الإسلام، وتلقي القبائل لبلاغ رسالة الله إليهم، ولا يصدّه إعراض مَنْ أَعْرَضَ وتكذيب مَنْ كَذَّبَ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي الدَّعْوَةِ وَالْبَلَاغِ بصبر وإصرار، فهو على يقين أنّ دينه سيظهر على كلِّ دين، وسيبلغ ما بلغ الليل والنهار.

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على نفر من الخزرج أهل (يثرب) المدينة قدموا حُجَّاجًا، فجلسوا معه فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأمنوا به وقبلوا دعوته.

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٢٧).

(٢) «مسند أحمد» (١٦٠٢٥).

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وهم أهل كتاب وعلم، فإذا حصل بينهم وبين اليهود منافرة أو قتال قال لهم اليهود: إن نبيا مبعوثا قد أظلم زمانه ستنبعه ونقاتلكم معه ونقضى عليكم^(١). فصار لديهم ترقب لنبوة نبيٍّ قادم كما أخبرهم اليهود.

وهناك سبب آخر أدى إلى تهيئة أهل المدينة لقبول الإسلام، وهو ما جرى بينهم من حروب، فقد كانت المنافسة بين الأوس والخزرج شديدة تصل إلى الاقتتال، وكانت آخر الحروب بينهم قبل خمس سنين، وانتصر الخزرج في أولها ثم كانت الغلبة للأوس وانتهت المعركة وبقي بينهم التنافر والشحناء.

فصار لديهم علم من ترقب الرسالة كما عند أهل الكتاب، وتهيؤ للاجتماع على قيادة جديدة، فلما دعاهم رسول الله ﷺ نظر بعضهم لبعض وقالوا: تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه^(٢). فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعك الله عليهم فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل،

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٣٥٤). وقولهم: «قتل عاد وإرم» أي: سنبيدكم إبادة جماعية

كما وقع لقبيلة عاد وإرم الذين أهلكهم الله كلهم.

(٢) «دلائل النبوة» لأبي نعيم (٨١).

وكان هؤلاء النفر طليعة الدعاية والدعوة الموفقة للإسلام في يثرب، وقد أثمرت دعوتهم وتكاثر عددهم.

وفي الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة جاء إلى الحج منهم اثنا عشر رجلاً من المسلمين من المدينة بعضهم ممن لقي النبي ﷺ في الموسم السابق وآمن به، فلقوا رسول الله ﷺ وبايعوه، وقد روى عبادة بن الصامت هذه البيعة وفيها أن رسول الله ﷺ قال لهم: «تَعَالَوْا بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِيَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعُصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقِبُهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ» قَالَ: فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ^(١).

وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى مُقْرِئَ المدينة.

وفشا الإسلام في المدينة حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟!.

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٩٢).

وأرسلوا يترحون على النبي ﷺ أن يهاجر إليهم ويقيم في مدينتهم، وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى الاتفاق على تحديد زمان ومكان اللقاء، لإبرام اتفاق من أعظم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

وفي موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة، ضمن حجاج كثيرين من مشركي المدينة، وكان زعيمهم جميعا البراء بن معرور.

قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أحد من شهدوا هذه البيعة: خَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ، وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْعَقْبَةِ فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَهَا، خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ الْقَطَا^(١) مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشَّعْبِ عِنْدَ الْعَقْبَةِ، وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: فَاجْتَمَعْنَا فِي الشَّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ (عُمَةُ) الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَقَّعَ لَهُ. فَلَمَّا جَلَسَ كَانَ أَوَّلَ مُتَكَلِّمِ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزَرَجِ إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الْإِنْجِيَاَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ،

(١) أي: نسير بحدَرٍ وخفية كطائر القطا المعروف بحدَره.

وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَازِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنْ الْآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ ^(١).

فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَتَلَا الْقُرْآنَ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ علام نبايك؟ قَالَ: «تُبَايَعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالتَّفَقَّةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ، وَأَرْوَاجَكُمْ، وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ» ^(٢).

فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَرْوَاجَنَا، فَبَايَعَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعَنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا، وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ ^(٣).

ونلاحظ هنا أموراً مهمة، منها:

١- أن الأنصار اهتموا بالعلم الذي سمعوه من اليهود، بينما الذين كان عندهم هذا العلم كفروا وبقوا أشد الناس عداوةً لهذا النبي ولدينه، وذلك حسداً من عند أنفسهم، لأنهم كانوا ينتظرون أن يكون النبي إسرائيلياً منهم، فلما بُعث من غيرهم حسدوه وكذبوه وعادوه،

(١) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).

(٢) «مسند أحمد» (١٤٤٥٣).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٤٥٦).

وهذا يبين أن الهداية هبة من الله وإنعام، وتوفيق وإلهام، يوفق الله لها من صدق في طلبها، ويصرفها عمّن استكبر عنها أو أراد بها علوّاً في الأرض وتطاولاً على الخلق، كما قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٢- لم يعد النبي ﷺ الأنصار بشيء من أمور الدنيا مع معرفتهم أنهم سيواجهون عداوة شديدة وسترميهم العرب عن قوس واحدة ومع ذلك لم يضمن لهم النبي جزاء إلا الجنة.

وهكذا الأنبياء كلهم اجتمعوا على طلب واحد، ووعد واحد، طلبوا عبادة الله وحده، ووعدوا بالجنة في الآخرة.

٣- كانت هذه أعظم معاهدة في التاريخ وكان الأنصار وهم يصفقون بأيديهم على يد النبي ﷺ يديرون اتجاه تاريخ البشرية إلى مسار آخر، وكل الأحداث التي وقعت بعدها إنما هي من تداعياتها فلولها ما كانت معركة بدر ولا أحد ولا فتح مكة ولا حجة وداع.

٤- تأثير الداعية الأول مصعب بن عمير في نشر الإسلام في المدينة وما كان معه إلا ما وعاه من القرآن من رسول الله ﷺ، فقد كان القرآن هو المفتاح الذي يفتح القلوب، فأول بلد فتح في الإسلام هي المدينة، وكان فتحها بالقرآن.

الهجرة إلى المدينة

لما بايع أهل المدينة رسول الله ﷺ على الإسلام وعلى إيوائه وحمايته ونصرته وجه النبي ﷺ أصحابه للهجرة إلى المدينة، وقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمُنُونَ بِهَا»^(١). وكان قد أخبرهم من قبل أن الله أراه في منامه أرضاً ذات نخل سيهاجر إليها^(٢). فظن أنها من واحات النخيل التي في وسط جزيرة العرب أو شرقها فإذا هي المدينة.

فلما وجه النبي أصحابه بالهجرة خرجوا إليها أفراداً وجماعات، مشاة وركبانا، خرجوا من مكة وطنهم الذي فيه ولدوا ونشؤوا، تاركين دُورَهم وقرابتهم وأموالهم متجهين إلى بلد لا أهل لهم فيها ولا مال، لا يدرون ماذا سيواجهون ولا كيف سيعيشون، وكل ذلك في سبيل الله ومن أجل دينهم وإيمانهم وصحبة النبي الذي آمنوا به واتبعوه،

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٣).

حتى فرغت بيوتهم وصارت يباباً تخفق الريح بأبوابها، ولم يبق في مكة من المؤمنين إلا أفراد قلائل حبسهم أقاربهم ومنعواهم من الهجرة.

ولعل من أسباب تهاون قريش مع المهاجرين في هجرتهم بقاء النبي وأبي بكر في مكة مما طمأن قريشاً، وحسبوا هذه الهجرة كالهجرة التي سبقتها إلى الحبشة، واستأذن أبو بكر النبي ﷺ في الهجرة فأمره بالانتظار وقال له: «لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلَ لَكَ صَاحِباً فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»^(١). فبدأ أبو بكر بالاستعداد للرحلة منتظراً أمر النبي ﷺ بها.

وهكذا تأخر النبي كما يتأخر الرُّبَّان الشريف على ظهر الباخرة الميؤوس منها، فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً، تأخر يحمي أتباعه واستقبل بصدرة الخطر^(٢).

وخلال ثلاثة أشهر كانت مكة قد خلت من المسلمين ولم يبق إلا من عجز عن الهجرة.

وقد مر عتبة بن ربيعة والعباس وأبو جهل بدور بني جحش الذين آمنوا وهاجروا، فنظروا إلى البيوت تخفق أبوابها، وتصفر الريح في جنباتها، ليس بها ساكن فقال عتبة: أصبحت الدار خلاءً من أهلها، فقال أبو جهل للعباس: هذا من عمل ابن أخيك، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع ما بيننا.

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٤٦٢).

(٢) من مقالة «سيد رجال التاريخ» للشيخ علي الطنطاوي.

وهكذا يبرر الطغاة إجرامهم ويحملون المسؤولية على ضحاياهم، فالمهاجرون إنما هاجروا لأن كفار قريش ضيقوا عليهم وأذوهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

ولم يكن لهم ذنب إلا أنهم اختاروا عبادة الله وحده واتبعوا النبي الذي آمنوا به، واكتشفوا زيف الوثنية وبطلانها والتي جعلت الأحجار والأشجار آلهة تعبد مع الله عز وجل.

ولم يكتف كفار قريش بذلك بل عدّوا على ممتلكات المهاجرين ودورهم وما بقي من أموالهم فاستولوا عليها وباعوها، وكان من ذلك دور النبي ﷺ عندما هاجر عنها.

أما هؤلاء المهاجرون فإن هجرتهم إلى المدينة ليست كأى هجرة وسفرهم ليس ككل سفر، لقد كانت خطواتهم إلى المدينة هي الخطوات الأولى من مسيرة زحف طويل متتابع لم يقف ولم يتباطأ حتى تجاوز شرق الشرق وغرب الغرب ينشر هداية الله ورسالة النبي ﷺ، ويعلن الحرب على الكفر والظلم والمنكر، فلم يبق اليوم أرض على هذه الأرض إلا وقد وصلها شعاع من نوره، وهداية من هداة.

وبهذه الهجرة ختمت من تاريخ الدعوة صفحة وفتحت صفحة أخرى، ومضى عهد الضعف والأذى وبدأ عهد القوة والبناء وكانت الهجرة هي الحد الفاصل بين هذين العهدين^(١).

(١) «فقه السيرة» محمد الغزالي.

هجرة النبي ﷺ

هاجر أصحاب النبي ﷺ إلى المدينة ولم يبق ممن هو قادر على الهجرة إلا النبي وصاحبه أبو بكر والذي استبقاه ليكون مرافقه في هجرته، وابن عمه على ابن أبي طالب والذي استبقاه ليرد إلى أهل مكة أماناتهم وودائعهم التي كانت عنده، فقد كان أهل مكة يضعون ودائعهم المالية عنده لما عرفوه من أمانته وصدقه.

وبقي النبي ﷺ ينتظر إذن الله له، وبينما أبو بكر في بيته في ساعة الظهيرة واشتداد الحر إذا بالنبي ﷺ قد جاءه مثلثاً، فلما رآه أبو بكر جاء ظهراً قال: ما جاءنا رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

فإن عادة النبي ﷺ أن يأتهم في الصباح أو المساء، أما الظهيرة فلم يكن أحد يخرج في مكة من بيته لشدة الحرارة ومن خرج فإنما يخرج لضرورة أو أمر طارئ.

فدخل رسول الله ﷺ وعند أبي بكر ابنتاه عائشة وأسماء فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «إِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «الصُّحْبَةُ».

قالت عائشة وكانت تراقب المشهد: فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح، وما كنت أعلم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت بكاء أبي بكر.

فقال أبو بكر: يا رسول الله عندي ناقتان قد كنت أعددتكما للخروج فخذ إحداها، فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ أَخَذْتُهَا بِثَمَنِهَا»^(١).

ثم أعدوا لهما جهازاً سريعاً مما يحتاجه المسافر، ثم خرجا من باب خلفي في بيت أبي بكر، وانطلقا إلى جبل جنوب مكة يسمى جبل ثور، واختارا جهة الجنوب عكس الاتجاه إلى المدينة شمالاً، لأن قريشاً إذا تبعتهم ستتجه غالباً جهة الشمال ولذا توجهها جنوباً واختبأ في غار في أعلى الجبل مدة ثلاثة أيام، وهي المدة التي ستستغرق قريش رجالها للبحث عن النبي وصاحبه.

وخلال هذه المدة كان عبد الله بن أبي بكر وهو شاب فطن، يأتيهما كل ليلة عند حلول الظلام فيخبرهما بما سمعه مما يدبره لهما كفار قريش من كيد.

وخلال هذه الأيام الثلاثة حين فقدت قريش النبي ﷺ وعلمت أنه قد هاجر، وأحست بالخطر أن يهاجر النبي وأصحابه فيكون لهم تجمع آمن ولدعوتهم منطلق وحماية ونصرة، فأرسلت طلائع تتبع النبي وتبحث عنه لتدركه فتقتله، أو تحبسه عندها.

والعجيب أن إحدى طلائع البحث قد تتبعت أثر الأقدام واتجهت إلى الجبل وصعدت إلى الغار حتى كان أبو بكر يرى أقدامهم وهو

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥، ٥٨٠٧).

في الغار فقال للنبي: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال له النبي بطمأنينة ويقين: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ بِأَنْتَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟»^(١). وفعلًا صرف الله توقعهم أن يكون النبي ﷺ وصاحبه في هذا المكان وغادروا من غير أن ينظروا في الغار أو يتوقعوا وجود أحد فيه، وكل ذلك من حماية الله لنبيه لِيَتِمَّ مهمته ويبلغ رسالته. وكان أبو بكر قد استأجر رجلاً ليكون دليلاً في الطريق إلى المدينة، وكان رجلاً خبيراً بطرق الصحراء ومسالكها، ومع أنه كان على دين كفار قريش إلا أنه كان أميناً نبيلاً، فاستلم ناقتي أبي بكر ثم أتاها على مواعده معهما بعد ثلاثة أيام في الغار فخرجا معه ليسلك بهما إلى المدينة طرقاتاً غير مطروقة، لأن قريشاً قد وضعت من يراقب الطريق المعتاد وينتظر مرورهما به، كما وضعت جائزة ضخمة لمن يأسرهما أو يقتلهما، فجعلت لمن أتى بهما مئتي بغير وهي جائزة سخية يسيل لها لعاب عرب الصحراء، ولذا تطلّب البدو في الصحراء هذين المسافرين وطمعوا في الجائزة الثمينة.

فلما مرا بالطريق بمحاذاة قبيلة بني مدلج رأهما عن بعد أحد رجال القبيلة وأخبر قومه، فتبعهم أحد فرسان القبيلة واسمه سُراقَة بن مالك يعدو خلفهما على فرسه شاهراً رمحه طامعاً بجائزة قريش، ممنياً نفسه بقرب الغنى وسعة الثراء، حتى قرب منهما فرأى أبا بكر يكثر الالتفات إلى الخلف، أما النبي ﷺ فلم يكن يلتفت وإنما كان يقرأ القرآن،

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥، ٥٨٠٧).

فاقترب حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وكاد أن يصل إليهما فساخت قوائم الفرس وانغrust في الأرض وسقط منها، وصار يحاول إخراج أرجل الفرس من الأرض فلما أخرجها بعد جهد كبير ثار من مكان أرجل الفرس غبار مثل الدخان الصاعد إلى السماء.

وفوجئ سُراقَة بما رأى وخاف وهو الفارس الجريء، وعلم أن هذا إنما أصابه بدعوة النبي ﷺ وأنه لن يستطيع أن يصل إليهم، وأن هذا المنع الذي أصابه منع إلهي لا قدرة عليه، فناداهما وقد ابتعدا عنه وأعطاهما الأمان فوقفوا، فركب فرسه فانطلقت به إليهم، ووقع في نفسه بعد أن أصابه من الإعاقة عنهم أن أمر هذا النبي سيظهر، وأن الله الذي حماه سينصره ويظهره، فلما وصل إليهم أخبرهم بما يمكن أن يعرض لهما في طريقهما، وعرض عليهما الزاد والإعانة، فلم يأخذا منه شيئاً، ولكن قالوا: أخف عنا حتى لا يتبعنا أحد، فوعدهما بذلك، ثم طلب من النبي أن يكتب له كتاب أمان، وهو أغرب طلب يطلبه هذا الفارس، فكيف يطلب من النبي وهو في هذه الحال أن يكتب له كتاباً يأمن فيه على نفسه من العقوبة على فعلته تلك؟.

كيف يعطي المطلوب أماناً للطالب؟

فكتب له كتاباً في رقعة من جلد، فأخذها سراقَة واحتفظ بها معه^(١).

لقد فطن هذا الأعرابي -بعد أن رأى هذه المعجزة- إلى أن نبياً يسير بحماية الله سوف ينتصر على من عادوه كلهم،

(١) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٤٨).

وخشي إذا انتصر أن يعاقبه على ما أراد بهم، ولذا طلب كتاب الأمان واحتفظ به، ثم مضى النبي وأصحابه في طريقه وعاد سراقة راجعاً إلى قومه يقول لكل من سألهم: دعوا هذا الطريق ولا تتبعوه، فقد سرت فيه وتبعته، فكان في أول نهاره طالباً لهم، وفي آخره مُدافعاً عنهم.

بقي أن نتذكر أن سراقة الذي أخذ كتاب الأمان قد جاء به إلى النبي بعد ثمان سنين تغيرت فيها الأحوال، فقد جاء نصر الله والفتح ودخلت مكة في الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجا، وصارت الجزيرة العربية كلها بساطاً لدين هذا النبي، وتحقق ما توقعه سراقة أن هذا النبي سيظهر ويتنصر، فقدم على النبي ﷺ ومعه كتاب الأمان، فتلقاه النبي وهو يقول: «الْيَوْمُ يَوْمٌ وَفَاءٍ وَبِرٍّ»^(١).

ولكن سراقة اكتشف أنه لم يكن بحاجة لهذا الكتاب فإن هذا النبي قد عفا عن كل الذين عادوه وحاربوه وأعلن عفواً عاماً عنهم جميعاً، لأنه لم يكن يحتفظ بالأحقاد ولا يتطلب الانتقام وإنما كانت عاطفته التي تملأ قلبه هي الرحمة لكل الناس، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهدفه الذي يسعى إليه ويجتهد في تحقيقه استنقاذ البشرية من الجاهلية الوثنية، وهدايتها إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم الذي يوصلها إلى الله، ويحقق لها سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٦٦٠٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ٤٨٧).

مع النبي ﷺ في مكة

عندما تُلقَى نظرة عامّة على حال النبي ﷺ في مكة نجد ملاحظات عامّة على تلك الفترة من أهمّها:

١ - الكف عن القتال، والأمر بالصبر، وقوة التحمل ما أمكن ذلك، وأن المواجهة بالقوة ليست الخيار الأول، وليست الأفضل في كل حال.

٢ - تمييز المخالفين والتعامل معهم بحسب أحوالهم، فليس كل المخالفين أعداءً، وليس كل الأعداء سواءً، فالمُطعم بن عدي ليس كأبي جهل، وإن كانا مشرّكين جميعاً، والنصارى أقرب مودة للذين آمنوا من المشركين، وإن كانوا كلّهم غير مسلمين، ولذا كان من مشاهد الفترة المكيّة تحديد العداوات ثم ترتيب العداوات.

٣ - أنّ العاطفة الإنسانية والمروءة والفضل توجد في بعض المخالفين الذين لم يؤمنوا، ولكن كان فيهم نبل وإحسان، ويقدر فيهم ذلك ويُحسب لهم كما فعل المطعم بن عدي الذي أجاز النبي ﷺ عند دخوله مكة قادماً من الطائف.

٤ - جيل الشباب هو الأكثر قدرة على التغيير وتقبل الدعوة ولذا كان أكثر الصحابة في تلك الفترة شباباً.

٥ - وضوح الهدف وقيادته للأهداف الأخرى، وكان هدف النبي ﷺ واضحاً وهو هداية الناس واستنقاذهم، ولذا اختار دَفْع العقوبة عنهم بعد عودته من الطائف وقال: «بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»^(١).

٦ - مع أن النبي ﷺ موعود بالنصر والظهور إلا أنه لم يكن يعيش حالة انتظار، بل استمر في السعي والبحث عن التربة الخصبة للدعوة، ولذا سافر إلى الطائف واستمر في عرض نفسه على القبائل، حتى وجد الأنصار ووجدوه.

٧ - كما نلاحظ أن هذا النبي قد استهدف خلال هذه الفترة بأنواع الإيذاء، ووجهه بأشد أنواع المواجهة والتكذيب، فتحمل وصبر على الأذى الذي كان بعضه كافياً في زحزحة من لم تكن قناعته بدعوته يقينية، وتضحيته من أجلها كاملة.

ولو كان متقولاً لكان بعض ما يلقاه كافياً أن يدع دعواه ويستمتع ببقية حياته في هدوء ودعة.

كما عرضت عليه أنواع الإغراءات بما فيها الزعامة المطلقة على قومه مقابل أن يدع دعوته هذه فرفضها بإباء وكانت في نظره ونظر المؤمنين عَرَضاً تافهاً أمام مهمة عظيمة شريفة.

(١) «مسند أحمد» (٢٣٣٣)، و«صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

٨ - لا تنتشر الدعوة إلا بالاندماج والتعايش والخلطة مع الناس وحسن التعامل معهم، ولذا لم يعتزل النبي ﷺ قومه، ولم يرجع إلى غار حراء، ولم يقترح على أصحابه العزلة بل كان يأمر من يأتيه أن يلحق بقومه ويعيش بينهم ويدعوهم.

٩ - الفترة المكية لم تكن سنوات مهددة، فهي فترة مدّ الجذور وترسيخ الأصل، وتأسيس القاعدة، وتربية الأتباع وبلاغ الدين، ولذا فشا الإسلام في مكة وبلغ نواحي بعيدة، وأسلم نزاع من القبائل، ولما هاجر إلى المدينة كان حدثاً سمعت به العرب فلحق به في المدينة مَنْ كان آمن به.

١٠ - شرع النبي ﷺ لأُمَّته منذ بداية دعوته فقه الاستطاعة، وأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وعدم التعرض لما لا يطيق الإنسان من البلاء فقد أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا وَرَاءَكَ؟» قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تَرِكْتُ حَتَّى نَلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»^(١).

ودليل ذلك في القرآن: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْزَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

[النحل: ١٠٦].

١١ - كان أصحاب النبي ﷺ يتلقون منه الدين ويتعلمونه، ويتلقون المسؤولية عنه والدعوة إليه، ولذا نجد كثيرين أسلموا على يد أبي بكر وعلى يد أبي ذر وعلى يد الطفيل بن عمرو الدوسي مع أن هؤلاء أسلموا في أول بعثة النبي ﷺ، ولكن بمجرد أن أسلموا انطلقوا دعاءً لما آمنوا به، ودخل في الإسلام على أيديهم كثير من الناس غيرهم.

١٢ - صبر النبي هو صبر أولي العزم من الرسل وثباتهم وقوتهم وعدم الانكسار عند المصائب، ومن ذلك موقف النبي في حصار الشعب، وعند وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة، وعند رجوعه من الطائف.

١٣ - هجرة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من وطنهم وقرابتهم وأموالهم إلى بلد لا مال لهم فيه ولا قرابة، ولم يوعدوا بأي شيء من متاع الدنيا، وإنما كانوا مهاجرين في سبيل الله وقد وطّنوا أنفسهم على احتمال أصعب الاحتمالات وأشدّها، ولا يكون ذلك إلا من إيمان عميق وبقين صادق بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، كما وصفهم الله عز وجل بقوله:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

المرحلة المدنية



الرسول ﷺ والمدينة

كانت علاقة هذا النبي ﷺ بالمدينة تُنسَجُّ في عالم الغيب البعيد، فقد بشر الله به وبها في رسالات الأنبياء قبله، وجاء وصفها لدى الأمم السابقة، ولذا جاء اليهود من الشام إلى جزيرة العرب يتبعون وصفها أنها أَرْضُ ذَاتِ حِرَارٍ وَنَخْلٍ^(١). فنزلوا نواحي عدة ينطبق عليها الوصف، وكان منهم من نزل المدينة لما رأوا من صفتها المذكورة في كتبهم.

ثم هاجرت بعد ذلك قبيلة الأوس والخزرج من اليمن عند خراب سدِّ مأرب مع هجرة أهل مأرب وما حولها إلى أنحاء الجزيرة العربية، وتفرقهم فيها، فكان من خيرة الله لهم نزولهم في أرض المدينة التي كانت تسمى «يثرب»، ولعلمهم اختاروها لمشابقتها أرضاً ومناخاً لبلدhem مأرب، فهي أرضٌ واحاتٍ تجمع السهول والجبال، وأرض خصب وزراعة، وهكذا كانت بلادهم التي خرجوا منها، وكان اليهود قد سبقوهم في سكنها، ولكنهم كثروا اليهود فيها، حتى غلبوهم عليها، واضطر اليهود للتحالف معهم، وبهذه الكثرة في المدينة عَمَرَتِ أرضها،

(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٣٧). والجرار جمع حَرَّة، وهي أرض صخرية، سوداء الحجارة، تكثُر في المدينة وتحيط بها من أكثر جهاتها.

وكثر سكانها، وزادت خيراتها، فصارت بلداً عامراً يُقصد للميرة^(١)،
وتمر به القوافل للتزود منه^(٢).

وفشا علمُ اليهود بين الأوس والخزرج، واتبعوهم في بعض
عاداتهم من غير أن يتركوا دينهم الوثني، فكانت لهم أصنامهم
وعبادتهم الوثنية.

وأكثر اليهود من إسماعهم أن نبياً سيخرج، وأنهم سيتبعونه
ويقاتلونهم معه، وهي معلومة كان اليهود مصدرها والمفاخر بها، بل
المتوعد بقرب وقوعها، وكانوا يتوقعون أنه سيكون إسرائيلياً منهم.

ثم كان من صنع الله لنبيه أن يمر بالمدينة جدّه هاشم بن عبد مناف
في سفره إلى الشام، فيتزوج بها من سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية
الخزرجية، فولدت له ولداً أسمته شيبه، وبتناً أسمتها رقية، ثم خرج
هاشم إلى غزوة، فمات فيها شاباً^(٣).

فنشأ شيبه بن هاشم عند أخواله بالمدينة حتى قارب المراهقة،
فذهب إليه عمه المطلب وعاد به إلى مكة، فظن الناس حين رأوه معه
أنه عبد اشتراه، فسموه عبد المطلب، وصحبه هذا الاسم بقية عمره.

ثم وُلد لعبد المطلب بنوه في مكة، ومنهم الشقيقان: عبد الله وأبو
طالب، وتزوج عبد الله آمنة بنت وهب، ثم أرسله أبوه عبد المطلب إلى
المدينة، فمرض هناك، ثم توفي ودفن في المدينة.

(١) الميرة: الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٧٩).

(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١/ ٥٨٤)، و«البداية والنهاية» لابن كثير
(٢/ ١٦١).

(٣) ينظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٥٣).

وهنا ترى أنه في المدينة ولد جدُّ رسول الله ﷺ عبد المطلب، وفيها توفي أبوه عبد الله.

فلما بلغ النبي ﷺ ست سنين، ذهبت به أمه إلى المدينة لتزور قبر زوجها عبد الله، وكان ﷺ قد ميَّز وتفتح وعيه، ولذا حفظت ذاكرته ذكريات هذه الزيارة، فقال: «كُنْتُ أَلْعَبُ أُنَيْسَةَ جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى هَذَا الْأُطْمِ، وَكُنْتُ مَعَ غِلْمَانٍ مِنْ أَسْوَاطِ نَطِيرٍ طَائِرًا كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ». وَنَظَرَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي سَكَنَهَا فَقَالَ: «هَهُنَا نَزَلْتُ بِإِذْنِ أَبِي، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْرُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١).

وكانما هذه الزيارة المبكرة في الطفولة هي التهيئة للهجرة النبوية الكبرى في الكهولة.

ثم لما نزل عليه الوحي في غار حراء وذهب مع زوجته إلى ورقة بن نوفل، فأخبره النبي ﷺ بما رأى، فقال ورقة: يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟». قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي^(٢).

وما أعجب أن يرافق نزول الوحي خبر الهجرة، وأن تبدأ التهيئة النفسية لها مع طلائع الوحي الأول فيما أخبر به ورقة رسول الله ﷺ.

(١) ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/١١٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

ثم أوحى الله إليه أنه سيهاجر ويُنصر ويُظهر، فكان إذا هاجر إليه أحد في مكة أمره أن يرجع إلى قومه حتى يسمع أنه قد ظهر ثم يلحق به، كما صنع مع عمرو بن عبسة الأسلمي^(١)، وأبي ذر الغفاري^(٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم أراه الله دار هجرته وهو في مكة، فرأى أرضها ونخيلها ولم يعلم مكانها، فظنها اليمامة أو هَجَرَ^(٣)، لشهرتهما بالنخيل، فقال: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلَيْ إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرَ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ»^(٤).

ثم كان من صنع الله لرسوله ﷺ أن الأوس والخزرج كان بينهم خصومة وحروب تتابعت، فكان آخرها حرب يوم بُعاث^(٥) قبل الهجرة بخمس سنين، وكانت معركة عظيمة انتصر الخزرج في أولها، ثم كان النصر النهائي للأوس وهم الأقل عدداً، وقتل فيها سادة الأوس والخزرج وقادتهم، ومنهم رئيسا الخزرج والأوس، وعدد من أكابرهم ممن كان يظن أن سيتكبر ويأنف من الدخول في الإسلام، حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد بقي من كبارائهم عبد الله بن أبي ابن سلول.

(١) «صحيح مسلم» (٨٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٢٢).

(٣) اليمامة في وسط الجزيرة العربية، وهي مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وما حولها، وهَجَرَ هي واحات الأحساء، وهي الآن في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية.

(٤) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).

(٥) هو مكان في المدينة معروف، ويسمى الآن «المبعوث»، وفيه جرت هذه المعركة فسميت باسمه.

ثم كانوا بعد هذه المعركة متنافرين، فلا الأوس تُسلم الزعامة للخزرج، لأنهم قد انتصروا عليهم في هذه المعركة، ولا الخزرج تسلّمها للأوس، لأنهم أكثر منهم، فكان اجتماعهم على رجل من غيرهم مما يتقبله كلا الطرفين.

ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ افْتَرَقَ مَلَأُوهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ ^(١) وَجَرَّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ ^(٢).

فلما عرض النبي ﷺ دعوته على رجال من الأوس والخزرج في موسم الحج في مكة تقبلوها بقبول حسن، وعادوا إلى المدينة بإسلامهم ^(٣).

فأضاءت أنوار الرسالة في المدينة وفشا الإسلام فيها.

ثم تلقت المدينة رسول الله ﷺ مهاجراً إليها.

فانظر إلى لطف الله في تقديره وتديره، وما أجراه من تصريف الأحوال في الغيب السحيق، تهيئةً لرسوله ﷺ، ليتبوأ المدينة مهاجراً وسكناً، وثواءً ومثوى، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

(١) سَرَوَاتُهُمْ: أشرافهم. ينظر: «النهاية» (٣٦٣/٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٧٧٧).

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٥٦)، و«مستدرک الحاكم» (٤٢٥١).

وتختلف المدينة عن مكة في بيئتها الجغرافية والاجتماعية، فمكة شعاب ضيقة بين جبال عالية وعرة، وهي أرض شحيحة الماء والزرع، ولذا فإن مهنة أهلها التجارة، لأنها ليست أرض إنتاج زراعي.

أما المدينة فهي واحات واسعة، وجبالها متباعدة، وأرضها خصبة، وماؤها وفير، ولذا عمر أهلها أرضها بالزراعة، وصارت أرض إنتاج زراعي تصدر إنتاجها إلى ما حولها من البلاد.

وتختلف المدينة عن مكة من الناحية الاجتماعية، فمكة تسكنها قبيلة واحدة هي قريش بعشائرها وبيوتها، وتدين بديانة واحدة وهي الوثنية مع بقايا متوارثة من دين إبراهيم.

أما المدينة فهي أكثر تنوعاً في القبائل والأديان، ففيها القبيلتان العربيتان الأوس والخزرج، وفيها قبائل اليهود الإسرائيليين، وأشهرها ثلاث قبائل: بنو قنيقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وكل قبيلة من اليهود لها حلف مع قبيلة من العرب، فبنو قنيقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الأوس، وديانة العرب وثنية، وديانة الإسرائيليين اليهودية، ولذا فإن في المدينة تنوعاً قبلياً وديناً.

ولم تكن أحياء المدينة متصلة ببعضها كحال المدن، ولكنها أحياء عشائرية متفرقة، تسكن كل عشيرة في بقعة فيها مساكنها ومزارعها وهي أحياء متقاربة يجمعها اسم «يثرب»، والذي تحوّل إلى «المدينة».

الوصول إلى المدينة

بلغ الأنصار خبر خروج النبي ﷺ من مكة، فلما توقعوا وصوله صاروا يخرجون لاستقباله خارج قباء وهي ضاحية جنوب المدينة، هي أول ما يستقبل القادم من جهة مكة، وكانوا يخرجون من الصباح إلى أن يتعالى النهار، ويستند حرُّ الشمس، فيردُّهم الحر إلى بيوتهم، حيث كان من عادة المسافرين أن يدخلوا المدن صباحاً أو ضحى.

فكان الأنصار يخرجون بلهفٍ وشوقٍ، ويتظرون في حرارة الشمس على تلك الحرار الملتهبة قدوم رسول الله ﷺ.

وفي يوم الاثنين خرجوا كما كانوا يخرجون كلَّ يوم، فلمَّا تعالى النَّهار واستياسوا أن يصل رسول الله ﷺ هذا الوقت عادوا إلى بيوتهم، وإذا بالشُّخوص تظهر من جنوب المدينة، تلوح في العمق البعيد، يزول بهم السَّراب يُظهرهم ويُخفيهم، ولم يكن على الحرار أحدٌ ممن كان يتتظر، وإنما كان يهودي على حصنٍ من حصونهم لبعض شأنه، فنظر إليهم وكان قد عاش الحدث هذه الأيام مع الأنصار،

حيث يرى خُروجهم، وانتظارهم، وترقبهم، فلما رأى الشُّخص تلوح في السَّراب، صرخ من أعلى الحصن بأعلى صوته: يا مَعْشَرَ الْعَرَبِ! هذا جَدُّكُمْ الذي تنتظرون^(١)، ودَوَّى النداء من فوق الحصن في قباء، فسُمع مثل الرَّجَّة في البيوت.

ولك أن تتخيل القلوب المتلهَّفة، والنُّفوس المشوَّقة، وكلُّ واحدٍ يصرخ في بيته ويُنادي أهله: جاء رسول الله ﷺ أعطوني السلاح^(٢)، وخرجوا إلى رسول الله ﷺ، ودفعت البيوت مَنْ فيها، وسَّلت السَّكَّ بأهل الأحياء، حيث خَرَجوا إلى حَرَّة قباء، وجعلت الشُّخص تتصَّحَّ شيئاً فشيئاً.

وكأنك بالركب النبوي، وهو يتهادى من هذه الفِجاج، ومن بين هذه الثنايا مُصعداً إلى قباء، فانفسحت أمام ناظره المدينة بحرارها ونخيلها، فصافح بصره المدينة، تلك المدينة التي أريها ﷺ في منامه وهو في مكَّة، فرأى أرضها ونخيلها وحرارها، ولم يعلم مكانها، فما هو شعور النبي ﷺ وهو يرى بعينه الآن ما أريه في المنام في مكَّة؟!

أيُّ يقينٍ يتلقاه قلبُ النبي ﷺ بصدق موعود الله إذ وعده؟

ولأنَّ وُصوله ﷺ كان عند تعالي النهار وارتفاع الضُّحى، أي: ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة تقريباً - وهو وقت اشتداد الحر في المدينة - فإنه استظلَّ تحت ظلِّ نخلة عند بئرٍ يُقال لها: بئر عِدْق.

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦). وجَدَّكُمْ: أي حظَّكم ونصيبكم.

(٢) الاستقبال بالسَّلاح مَظْهَر من مَظَاهِر الحفاوة والحماية.

وجلس هو ووقف بجانبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب الناس ويذكرهم، وكان قد شاب شعر لحيته، أما النبي ﷺ، فهو أكبر من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنًا، إلا أنه كان على وجهه نضرة وبهاء، ولم يشب شيء من شعره، ويبدو أصغر من عمره.

ولذلك فإن الناس عندما أتوا الرؤية رسول الله ﷺ، ولم يكونوا رأوه من قبل، جعلوا يُسلمون على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحسبون أنه رسول الله، فلمَّا انحسر الظلُّ عن النبي ﷺ بادر الصديق يَبْسُط رِداءه يُظِلُّ به النبي ﷺ، فعرفه الناس.

وكان ذلك يوم الاثنين (١٢) من ربيع الأول في السنة الأولى للهجرة، الموافق (٢٤) أيلول/ سبتمبر، والعجيب أن النبي ﷺ وُلِدَ أيضاً في يوم الاثنين (١٢) من ربيع الأول، وكذلك تُوفي في يوم الاثنين (١٢) من ربيع الأول^(١).



(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ١٩١)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٤٩)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٩٥)، و«آثار المدينة» (١٦٦).

في قباء

نزل النبي ﷺ في قباء في ضيافة كلثوم بن الهدم وهو من رجالات قباء وساداتها، ولكنه كان يستقبل الناس في دار سعد بن خيثمة، لأنه كان شاباً عزباً، فبيته متاح لاستقبال الزوّار وكثرة الضيوف.

وكثر زوّاره في قباء من المؤمنين المشتاقين لرؤيته، ومن المترددين الذين يريدون التأكد من حاله ومعرفته، وكان ممن زاره الحبر اليهودي عبد الله بن سلام، وقد وصف المشهد فقال: أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه وقيل: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لَا نَظَرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبْنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١). وقد تحقق عبد الله بن سلام من صدق نبوة النبي ﷺ فأسلم وفاجأ اليهود إسلامه، وكانوا يعظمونه ويشنون عليه خيراً، فلما علموا بإسلامه انقلبوا عليه بسوء القول ووصفوه بشراً وصف.

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٢٥١)، و«سنن الترمذي» (٢٤٨٥).

وجاء في قباء حُيَي بن أخطب زعيم يهود بني النَّضِير هو وأخوه أبو ياسر ليتعرَّفا عليه ويتأكدا من نبوته، وقد أخبرت ابنة حُيَي السيدة صفية التي أسلمت بعد وتزوجت النبي ﷺ بخبر مجيء أبيها وعمِّها، فقالت: لما قدَّم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غداً عليه أبي حَيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغلسين^(١)، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كَالَيْن ساقطينِ يَمْشِيَانِ الْهُوِينَا^(٢)، فهششتُ إليهما كما كنتُ أَصْنَعُ، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم.

قالت صفية: وسمعت عمي وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال حَيي بن أخطب: نعم والله، قال أبو ياسر: أتعرفه وتُثبتُه؟ قال حَيي: نعم، قال أبو ياسر: فما في نفسك منه؟ قال حَيي: عداوته والله ما بقيت^(٣).

وممن جاءه في قباء سلمان الفارسي وكان فارسياً مجوسياً من أهل أصبهان، فلما تعرف على النصرانية تحول إليها وترك المجوسية وهاجر إلى الرهبان وتنقل بينهم، حتى قال له آخرهم: إنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينها نخل، وبه علامات لا تخفى:

(١) العَكْس: بقايا ظلمة الليل، أي: خرجا في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس وانتشار الضياء.

(٢) كَالَيْن: أي: متعبين. والهُوِينَا: تَصْغِيرُ الْهُوْنَى، وهي المشية الرفيقة الهادئة. يُنظر: «النهاية» (٥/ ٢٨٤).

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٣٣).

يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

فتنقل في البلاد حتى وصل المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها، فلما وصل النبي إلى قباء جاء ليتحقق من رؤيته وليختبر العلامات التي ذكرت له، فلما تحقق نبوته أسلم ولزم النبي ﷺ وعاش بعده حتى توفي عام ٣٦ هـ.

وتتكرر الملاحظات التي لاحظناها في مكة وهي تنوع أتباع النبي ﷺ في المدينة كما كانوا متنوعين في مكة، فها هم أتباع دينه في المدينة بين عربي وإسرائيلي وفارسي ورومي وحبشي وقبطي^(١)، ليؤكد ذلك عالمية الرسول والرسالة.



(١) للدكتور محمد أفندي أوغلو بحث عن الصحابة من غير العرب، فذكر أن منهم (٤٥) من الأحباش، و(١٧) من الفرس، و(٨) من القبط، و(٧) من الروم، و(٤٣) من الإسرائيليين.

مسجد قباء

كان أول شيء صنعهُ ﷺ في قباء أن بنى مسجد قباء، لأنَّ مهمَّة هذا النبي ورسالته هي صلة الخلق بالخالق، وتوجيه البشرية إلى بارئها، والوجود إلى مَنْ أوجده، وتعظيم الله عزَّ وجلَّ بالسجود له، فكان أول ما صنع أن بنى مسجداً يُسجدُ الله فيه.

إنه بناء فريق تشارك فيه المهاجرون والأنصار، والنبي ﷺ يُقدِّم القدوة، ولا يقول لهم: ابنوا! بل يحمل هو الحجر فيحملون، ويبني فيبنون.

فحمل النبي ﷺ الحجر الأول، ووضعه في قبلة المسجد، ثم قال لأبي بكر رضي الله عنه: ضَعْ حَجراً هنا، ثم قال لعمر رضي الله عنه: ضَعْ حَجراً هنا^(١)، ونلاحظ أنه ﷺ بدأ بالمهاجرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وذلك ليدخلهم في مشروع البناء، وليتحوَّل المهاجرون في المدينة إلى قوَّة فاعلة عاملة، وليسوا مُجرَّد ضيوف في ضيافة الأنصار، ولكن قوَّة بناء مُضافة إلى الأنصار.

(١) ينظر: «إتحاف الخيرة المهرة» (٢/ ١٠).

وجعل الناس يبنون حتى اكتمل بناء واجهة المسجد، ولم يكن بناء النبي ﷺ لمسجد قباء بناءً كاملاً، وإنما كان بناء تأسيس، ثم أتم بناءه بنو عمرو بن عوف بعد ذلك، لكنه نال شرف تأسيس النبي ﷺ له، وأنه أول مسجد صلى فيه النبي ﷺ بأصحابه جماعة علناً، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين.

وقضى النبي ﷺ في قباء أربعة عشر يوماً، ثم توجه إلى داخل المدينة وهو مركزها وتجمع عشائرها.

وبقيت ذكرى مسجد قباء وحبه عامرين في قلب النبي ﷺ، ولذلك لم ينقطع عنه بعد انتقاله إلى المدينة، فكان يأتي مسجد قباء راكباً وماشياً، ويزوره في كل أسبوع يوم السبت، والمسافة بين مسجده في المدينة ومسجد قباء (٥, ٣ كم)^(١)، فظل المسجد عامراً بصلاة النبي ﷺ فيه طوال حياته، وكأنما كان النبي ﷺ وهو يتعاهد مسجد قباء وأهل قباء بالزيارة يقدم لمسة وفاء لهذا المكان وأهله، ويذكر لهم سابقتهم وحسن استقبالهم، وإيواءهم لمن هاجر إليهم.

(١) «أماكن نبوية» للمؤلف (٥٠).

إلى المدينة

سار النبي ﷺ من قباء متوجهاً إلى المدينة، وخرجت عشائر الأنصار يتلقونه في الطريق، وتناشده كل عشيرة بالنزول عندهم، ويمسكون بخطام ناقته ويقولون: انزل عندنا يا رسول الله، فيقول لهم: «دَعُوها، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»^(١). فقد جاءه الوحي الإلهي أن ينزل حيث تبرك راحلته.

سارت الناقة بالنبي ﷺ حتى دخلت في عمق المدينة ثم اختارت مكاناً فَبَرَكَتْ فيه، وبقي رسول الله ﷺ وأبو بكر على ظهرها كأنما المشهد لم ينته بعد، وإذا بالناقة تتحرك وتثور قائمة، وتذهب وتدور، ثم تعود مرة أخرى إلى ذات المكان الذي كانت فيه كأنما تؤكد اختيار الله!

فلما بركت هذه المرة ألقت بصدرها وضربت برقبته على الأرض، وكأنها تشير إلى أن هذا هو مكانها النهائي، فعرف رسول الله ﷺ ومَن معه أن هذا المكان هو خيرة الله، وأنَّ الله سبحانه قد بوَّأه هذا المنزل، فقال ﷺ: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فنزل رسول الله ﷺ، ونزل أبو بكر وأطاف بهم بنو النجار وهم أهل المحلة التي نزل فيها.

(١) «سنن سعيد بن منصور» (٢٩٧٨).

وهنا ثار التنافس بينهم عند مَنْ ينزل رسول الله ﷺ؟! فكلُّ منهم يقول: يا رسول الله، انزل عندي يا رسول الله: بيتي قريبٌ هنا! فَقَالَ النبي ﷺ: «أَيُّ بُيُوتٍ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟» فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ واسمه خالد بن زيد، وكان شاباً في نحو الثلاثين من عمره: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ: «فَانْطَلِقْ فَهَيَّئْ لَنَا مَقِيلًا»^(١).

فانطلق أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَحُلُ رسول الله ﷺ بين يديه، وكأنَّ كنوز الدنيا قد حيزت إليه، فأبى فخرٍ أعظم من أنَّ رسول الله ﷺ سيسكن معه في داره؟! دخل أبو أيوب بيته وكأني به يُنادي زوجته: يا أُمَّ أيوب قرَّة عينٍ لَنَا، رسولُ الله ﷺ سينزل عندنا هيَّا هَيَّئِي له مَقِيلًا.

ما أَعَذَبَ الحُبَّ الذي يشعُّ من تلك العيون، ويملأ تلك القلوب، الحَيَّ كله في حالة احتفاءٍ وفرح^(٢).

يقول البراء بن عازب: ما رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ، فَرَحُّهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى رَأَيْتُ الْوَلَائِدَ وَالصَّبِيَّانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَاءَ^(٣).

وأشرقت المدينة بمقدم رسول الله ﷺ حتى كأنما غمرتْها الأنوار، قال أنس يصف هذا المشهد: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ

(١) «صحيح البخاري» (٣٩١١). والمَقِيل: الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم. ينظر: «النهاية» (١٣٣/٤).

(٢) «سنن سعيد بن منصور» (٢٩٧٨)، و«المعجم الأوسط» (٣٥٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٩٤١).

المدينة أضواء منها كل شيء، إنها أضواء الحب والإيمان رآها الأنصار بقلوبهم التي انتظرت به شوق، وتلقته بلهف، واحتفت به بابتهاج.

ها هو رسول الله ﷺ قد نزل بفناء دار أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانتشر الخبر، وإذا بنبّيات الأنصار اللاتي يَسْعَيْن في السّكك لرؤية رسول الله ﷺ يجتمعن إليه، وعَبَّرت البُنَيَات الصَّغِيرَات عن الفرحه بطريقتهنّ الخاصة، فجئن ومعهن الدُّفوف! في احتفالية ترحيبية برسول الله ﷺ، كأنما نرى ذلك المشهد العفوي، والدُّفوف تُقَرِّع وأصوات الطفولة تُنشد:

نحنُ جوارٍ من بني النّجارِ يا حَبذا مُحَمَّدٌ من جَارِ
وإذا بالنبيّ ﷺ يُقبل عليهنّ ويستمع لنشيدهن حتى إذا انقطع النشيد
أقبل النبيّ ﷺ عليهن، وقال لهنّ: «أُحْبِبْنِي؟!» فقلن: نعم يا رسول الله،
فقال ﷺ: «وأنا والله أُحِبُّنَّ، وأنا والله أُحِبُّنَّ، وأنا والله أُحِبُّنَّ»^(١).

ما أعظم هذا الحبّ عندما يكون أول شَعيرة عاطفية تُعلن في المدينة: «وأنا والله أُحِبُّنَّ»^(٢).

(١) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥٠٨/٢).

(٢) «أماكن نبوية» للمؤلف (٦٣).

صحيفة المدينة

عندما استقر الرسول ﷺ في المدينة والتي كانت تضم قبائل وأدياناً متنوعة، ففيها قبائل العرب وقبائل اليهود، وفيها المسلمون والمشركون واليهود، أراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة على تنوعهم فيكتب كتاباً بهذا الشأن، عُرف باسم «الصحيفة»، وأسماه الكتاب اليوم «الدستور» أو «الوثيقة».

تضمنت هذه الصحيفة بنوداً مهمة تحقق التعاون والنصرة والدفاع المشترك، ومن بنودها:

- ١ - المؤمنون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.
- ٢ - من تبع المؤمنين من يهود فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.
- ٣ - يتفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤ - على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح... والنصر للمظلوم.

٥ - ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ.

٦ - وإن بينهم - أهل الصحيفة - النصر على من دهم يثرب.

إن هذه الوثيقة تعد أقدم دستور مكتوب ينظم علاقة المواطنين بعضهم مع بعض، وعلاقتهم جميعاً مع الدولة.

والعلاقة مع اليهود - والتي تضمنتها الوثيقة - توافق حكم الآية المُحْكَمَة في القرآن: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقُسْرُوهُنَّ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومن خلال بنود هذه الصحيفة يتضح أن:

١ - تشكيل الأمة من حيث العقيدة والدين تشتمل على كل المسلمين حيثما كانوا.

٢ - وأن تشكيل الأمة من حيث المواطنة تشتمل على المسلمين وغيرهم في الدولة.

٣ - والمساواة في المعاملات العامة.

٤ - ومنع الظلم والعدوان في المال والعرض وغيرهما.

٥ - والإسهام في نفقة الدفاع عن الدولة والوطن.

٦- وأن مرجع حسم الخلاف حول بنود هذه الوثيقة إلى شرع الله، وإلى قيادة الدولة ممثلة في النبي محمد ﷺ.

وعلى الرغم من هذا الموقف المتسامح تجاه اليهود والمبادرة الحسنة معهم إلا أنهم لم يكونوا أوفياء في ما عاهدوا، ولا صادقين فيما وعدوا، وظلوا يتحينون الفرص المواتية لنقض هذا الاتفاق والغدر بهذا العهد^(١)، وكان موقفهم من رسالة محمد ﷺ كموقفهم من رسالة أخيه المسيح عليه السلام، فكذبوا محمداً كما كذبوا عيسى، وعادوا محمداً كما عادوا عيسى، وحاولوا قتل محمد كما حاولوا قتل عيسى، فأضلّ الله سعيهم، وأبطل كيدهم، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

(١) «السيرة النبوية» محمد مهدي رزق الله (٣١٧).

المسجد النبوي

لم يختار النبي ﷺ أين تبرك ناقته، وإنما كان ينتظر خيرة الله الذي سيؤثقه مكاناً يبنيه مسجداً، فكما بوأ الله لإبراهيم مكان البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، بوأ الله لنبيه ﷺ مكان مسجده، حيث بركت ناقته، فنزل ﷺ، وقال: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». وهذا المكان الذي اختاره الله ليكون مسجد نبيه تبيّن أنه واسطة المدينة ومركزها، وأحياء المدينة ودورها تحيط به من جميع الجهات، فكان من تقدير الله أن يكون مكان المسجد جامعاً لأحياء المدينة، وواسطة عقدها، ومركز نواحيها.

ثم قال النبي ﷺ لبني مالك بن النجار الذين يقع المكان في أملاكهم: «يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا». وكان هذا الحائط لغلامين يتيمين ورثاه، فقال أهلهم: يا رسول الله لا نبغي به ثمناً، هولك، ونحن نرضي اليتيمين، قال: «لَا، ثَامِنُونِي بِهِ». وأبى إلا أن يقدر ثمنه، ويعطى الأيتام حقهم^(١).

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

فكان بداية نزول النبي ﷺ إعلاناً بحفظ الحقوق، ورعاية حق الأيتام والضعفاء.

بناء المسجد:

ثم بدأ العمل لبناء المسجد، فاستنفر النبي ﷺ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أعظم استنفارٍ لهم أن يعمل معهم بنفسه ويشاركهم العمل، وألقى رداءه، ليأخذ هيئة العامل معهم، فألقوا أرديتهم وشدوا أزهرهم، وجدوا في العمل، وصار النبي ﷺ ينقل الحجارة معهم، فلما رآه أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحجر بين يديه، قال: يا رسول الله، دعني أحمله عنك، قال: «دَعُهُ وَخُذْ حَجَرًا غَيْرَهُ»^(١).

وكان هذا عملاً اشترك فيه المهاجرون والأنصار، وفي هذا إعادة دمج وتمازج بين مكونات المجتمع الجديد، وكان مشهد البناء مشهداً مبهجاً، كأنما هو مهرجان عمل جماعي.

ورأى الصحابة النبي ﷺ وقد علا التراب ثيابه وصدره، وهو يعمل معهم، فتضاعف حماسهم، وجعلوا يرتجزون:

لِئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مَنَا الْعَمَلُ الْمَضْلَلُ
وَتَمَّ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ الْمُتَوَاضِعِ فِي بِنَائِهِ، وَالْبَسِيطِ فِي شَكْلِهِ، فَكَانَ عَلَى
نَمَطِ أبنية المدينة، أساسه من الحجارة، وبنائوه من الطين، وأعمدته من
جذوع النخل، وسقفه من جريد النخل مغطاة بطبقة من الطين، وفرشه
من تراب الوادي وحصاه الصغار.

(١) ينظر: «وفاء الوفاء» (١/٢٥٦).

وكانت مساحته: خمسون متراً طولاً، وخمسون متراً عرضاً، وله ثلاثة أبواب مشرعة لا تغلق.

وفي هذا المسجد كان النبي يقيم الصلاة ويخطب الجمعة ويقرأ القرآن، ويعلم أصحابه ويربهم، ويجلس معهم فهو مكان العبادة، ومجلس العلم، وملقى المسلمين، واستقبال الوافدين، وسكن المغتربين.

ورسول الله ﷺ معهم فيه يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل.

لقد كان المسجد أول مشروع أقامه في المدينة، وأول بناء بناه قبل أن يبني بيته الذي سيسكنه، لأن المسجد هو رمز لما يؤكده الإسلام أعظم تأكيد وهو عبادة الله وحده والخضوع له والتوجه إليه.

وهو وصل للعباد مع ربهم وصلاً يتجدد مع الزمن، ويتكرر آناء الليل والنهار، ولا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد، وتجهل اليوم الآخر، وتخلط المعروف بالمنكر^(١).

المرأة في المسجد النبوي:

وفي هذا المسجد كانت المدرسة الأولى للمرأة، وذلك بحضور النساء المسجد وشهودهن الصلوات مع رسول الله ﷺ وسماعهن القرآن من تلاوته في الصلاة.

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (١٨٩).

فكانت النساء يحضرن الصلوات مع رسول الله ﷺ في المسجد كما أخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كُنَّ نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ مُتَلَفَّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، ثُمَّ يَنْقَلِبْنَ إِلَى بُيُوتِهِنَّ حِينَ يَقْضِينَ الصَّلَاةَ، لَا يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْغُلَسِ»^(١).

وكان رسول الله ﷺ يراعي حضورهن المسجد فربما قَصَّرَ الصَّلَاةَ لأن امرأة معها صبي يبكي ويقول: «إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَاسْمَعْ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَاتَجَوَّزْ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»^(٢). لقد كان يحب أن يطيل صلاته، لأنها أنسه وراحته ولكنه يضحي بغبطته الكبرى وحبوره الجياش، ويُنهي صلاته على عجل حتى لا يطول قلق الأم وبكاء الرضيع^(٣).

وفي حضور النساء الصلاة في المساجد دورة تدريبية في إقامة الشعائر وحفظ القرآن، والذي كان يتعاهد به الرجال والنساء جميعاً.

وكان لهن مع هذا الحضور مشاركة في السؤال والاستفصال والإجابة عن ما يسأله الرسول ﷺ.

وبهذا الحضور حفظت نساء المسلمات قرآناً وذكراً، وتلقين أدباً وعلماً، وكان في هذا تحفيز لهن في المشاركة في حمل هم الدين والعمل له، فكان خير عونٍ لرجالهن على الخير.

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٦٤٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٦٨).

(٣) «إنسانيات محمد» خالد محمد خالد.

مؤاخاة المهاجرين للأنصار

لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة لم يكن بأيدي معظمهم شيء، لأنهم تركوا أموالهم خلفهم، فتلقاهم الأنصار بالحفاوة والإيثار. وكان ذلك الفعل من الأنصار دليلاً على مدى حبهم وإيثارهم المهاجرين. وقد شهد الله تعالى لهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَفٍ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ووصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أراض ليست ملكاً لأحد.

وقالت الأنصار للرسول: اقسم بيننا وبينهم النخل. قال: «لا، يَكْفُونَكُمْ الْمَوْنَةُ وَتُقَاسِمُونَهُمُ الثَّمَرَةَ». قالوا: سمعنا وأطعنا^(١).

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٤٨٨).

فكان المهاجرون يشاركونهم العمل والقيام على المزارع، ويشاركونهم الثمرة، وعلى الرغم من هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم فكان أن شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة، فأخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، وصار لكل مهاجر أخ من الأنصار ينزل عنده ويعمل معه ويتشاركان في محصول الأرض.

ومما روي في أمر التطبيقات العملية لهذه المؤاخاة قصة عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين وسعد بن الربيع من الأنصار، حين أخى النبي ﷺ بينهما فقال سعدٌ لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق، فذله على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من طعام وسمن، ثم أخذ يتردد على السوق يبيع ويشترى حتى استغنى بماله عن مال أخيه سعد، وتزوج امرأة من الأنصار، فطلب منه الرسول ﷺ أن يقيم وليمة بهذه المناسبة، ليعلن الزواج وتعمّ الفرحة^(١).

وكما تعجب من كرم هذا الأنصاريّ ومروءته تعجب أيضاً بعقّة هذا المهاجريّ وجديّته وحسن تصرّفه.

لقد أخى الرسول بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض.

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٤٨).

أهل الصُّفَّة

الصُّفَّة هي عريش في مؤخر المسجد يأوي إليه المهاجرون الغرباء الذين أتوا النبي ﷺ بعدما هاجر، فإن النبي ﷺ بعد أن استقر بالمدينة كان من سمع بدعوته وآمن بها يهاجر إليه في المدينة ليأخذ منه الدين ويتعلم منه القرآن.

وأهل الصفة: هم هؤلاء التُّرَاع من القبائل الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعدما هاجر إلى المدينة هو وأصحابه المهاجرون الأول، فأتوا إلى المدينة وليس لهم فيها أهل ولا مال يأوون إليه، فأسكنهم النبي ﷺ في هذه الصفة التي هي في مؤخر المسجد، في جهته الشمالية، وكان يكفل طعامهم، فإن كان عنده طعام قسمه بينهم، وإن لم يكن عنده قسمهم بين أصحابه فيشاركونهم طعامهم، ومن ذلك ما حكاه عبد الرحمن بن أبي بكر أن النبي ﷺ قال مَرَّةً: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ» فَأَعْطَى أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثَةً، وَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشْرَةٍ^(١).

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧).

ونلاحظ أن أهل الصِّفَّة غرباء من قبائل شتى، فليس هناك نسب يجمعهم، ولا رابطة تؤلف بينهم، ولكن النبي ﷺ أوجد بينهم رابطة عظمى، ليست رابطة القبيلة ولا الوطن، وإنما رابطة الإيمان، والأخوة في الله، وقد اندمج هؤلاء على تنوعهم مع النبي ﷺ وأصحابه، وانصهرت علاقتهم بأقوى وأسمى رابطة، وهي الحب في الله والأخوة فيه.

أوى هؤلاء إلى هذه الصفة، وعاشوا فيها مع النبي ﷺ حياة فيها شظف العيش وقلة ذات اليد، فكان النبي ﷺ يقسم كل يوم مداً^(١) من التمر بين كل اثنين منهم، حتى أتوا إلى النبي ﷺ يوماً فقالوا: يا رسول الله، أحرق التمر بطوننا، فوقف النبي ﷺ يخطب فيهم، ويقول: «وَاللَّهِ لَوْ أَجِدُ حُبْرًا وَلَحْمًا لَأَطَعْتُكُمُوهُ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ»، ثم قال: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى وَسَتَرْتُمْ بَيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُّ الْكَعْبَةُ؟» فقالوا: يا رسول الله، ونحن على ديننا اليوم؟ قال: «وَأَنْتُمْ عَلَى دِينِكُمْ الْيَوْمَ» فقالوا: نحن يومئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة، ونكفَى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ: «لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»^(٢).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ،

(١) المد: هو بقدر ملء كَفِّي الرجل المتوسط الخلقة.

(٢) «سنن الترمذي» (٢٤٧٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٦٨٤)، و«المعجم الكبير»

للطبراني (٨١٦٠).

فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ، كَرَاهِيَةً أَنْ تَرَى عَوْرَتَهُ»^(١).

فاتحملوا رَحِمَ اللَّهِ عَنْهُمْ هذه الشدة والأواء إثارةً لصحبة النبي ﷺ، مع أنهم كانوا في قبائلهم وعند أهلهم يعيشون في كفاية وسعة، لكنهم تخلوا عن ذلك في سبيل الهجرة إلى رسول الله ﷺ، واحتملوا هذا الفقر وقلة الطعام والكساء.

أما حال النبي ﷺ معهم، فإنه قد أقام في هذه الصفة أول جمعية خيرية في التاريخ، تعتمد على إيواء الفقراء وتأهيلهم، فكان النبي ﷺ يجلس معهم في الصفة يُقرئهم القرآن، ويُعلمهم الإسلام، وكان يجوع كما يجوعون، فإذا كان عنده شيء واساهم به، فما كان يستأثر بشيء دونهم، ولذا لما قدم عليه برقيق، سألته ابنته فاطمة أن يَهَبَهَا واحداً منهم كفيها مشقة العمل في بيتها، فقال لها: «لَا أُعْطِيكَ خَادِماً، وَأَدْعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ، وَلَكِنْ أَبِيعُهُمْ وَأَشْتَرِي بِشَمَنِهِمْ طَعَاماً لِأَهْلِ الصُّفَّةِ»^(٢). فحتى حاجة بُنَيْتِهِ في بيتها لم تكن تسبق حاجة أهل الصفة إلى قُوَّتِهِمْ.

ورآه أبو طلحة يوماً جالساً مع أهل الصفة فقال لأنس: يا أنس، إني قد مررتُ برسول الله ﷺ وهو يُقرئ أهل الصفة سورة النساء، وقد سمعتُ صوته خفيضاً مجهوداً من الجوع، فانظر أملك هل عندها شيء لرسول الله ﷺ؟^(٣)

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢).

(٢) «مسند الحميدي» (٤٤)، و«مسند أحمد» (٥٩٦)، و«شعب الإيمان» (٣٢٠٥).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٧٥).

يا الله! النبي ﷺ مع أنه مجهود من الجوع يجلس لهم يعلمهم.

وكان الله ﷺ يعلمهم ويحفزهم للتعلُّم، يقول أحدهم: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في الصفَّة، فقال لنا: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى وادي بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى وادي الْعَقِيقِ، فَأَتَانِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»^(١).

وهذا نوع من المواساة والتحفيز، لتتحول الصُّفَّة من مجرد مأوى وسكن، إلى حلقة علم، ومدرسة تعليم.

بقي أن تعرف أن هؤلاء الذين كانوا في الصفَّة يواسيهم النبي ﷺ ويعلمهم قد أغمض الدهر عنهم عينيه، ثم نظر فإذا كل منهم أمير في مصر، أو إمام في بلد، أو داعية في قبيلة، أو عالم في أمة، وأصبح الغرباء الفقراء أمراء وأئمة ودعاة! إنهم نتاج التربية النبوية التي تجاوزت بهم الإغاثة والإيواء، إلى التربية والتنمية، وبذلك أهلت القدرات وفعلت الطاقات.

وكان تعامل النبي ﷺ مع أهل الصفَّة نموذجاً لتعامله مع الفقراء والغرباء^(٢).

(١) «صحيح مسلم» (٨٠٣).

(٢) «الحياة النبوية» للمؤلف (١/ ١٨١).

السوق

وكما بنى النبي ﷺ المسجد في المدينة لدين المسلمين وعبادتهم، فإنه خصص سوقاً لتجارهم واقتصادهم، فأقام دينهم ودنياهم، فقد اختار أرضاً واسعة غرب المسجد لتكون سوقاً حرة لأهل المدينة ومن حولها، وقد اختطها النبي ﷺ بنفسه، وضرب فيها برجله، وقال: «هَذَا سُوقُكُمْ لَا يُضَيِّقُ وَلَا يُفْرُسُ عَلَيْهِ خَرَجٌ»^(١).

وعندما ننظر إلى هذا السوق نعجب من أن النبي ﷺ جعله مساحةً رحبةً واسعةً تصل إلى (١١٠٠ متر)، وهي مسافة واسعة جداً على المدينة، وهي البلدة الصغيرة في ذلك الوقت.

إن هذه المساحة الواسعة التي فرضها النبي ﷺ، تبين لنا أنه كان يُعيد تأهيل المدينة، لتصبح مكان جذب اقتصادي، وانتزع بهذا احتكار السيطرة الاقتصادية من قبضة اليهود، وأشرك فيها أهل المدينة أنصارهم ومهاجريهم.

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٢٣٣)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٥٨٦).

كما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عندما خطَّ هذا السوق، حَوَّلَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى طَاقَةِ فَاعِلَةٍ فِي الْمَدِينَةِ، فَهَمَّ أَهْلُ التِّجَارَةِ وَالضَّرْبِ فِي الْأَسْوَاقِ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَا نَلَاظُ فِي رِعَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَمْرِ السُّوقِ بَعْدَ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: تَعْزِيزُ الْقِيَمِ الدِّينِيَةِ وَالْأَخْلَاقِيَةِ فِي التَّعَامُلِ التِّجَارِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ:

١- قَدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ، فَدَخَلَ السُّوقَ وَالنَّاسَ عَلَى جَانِبِيهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسْلَكَ - وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ مَعِيًّا بِصَغَرِ أَذْنِيهِ وَانْكَمَاشِهِمَا - فَتَنَّاوَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ رَفَعَهُ لِلنَّاسِ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمٌ؟».

وَكَانَ عَجِيبًا أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ شِرَاءَ تِيسٍ مِيتٍ مَشْوَةٍ الْخَلْقَةِ، قَدْ فَتَقَ قِيَمَتَهُ التِّجَارِيَّةَ، وَهَانَ عَلَى أَهْلِهِ، حَتَّى أَلْقَوْهُ فِي السُّوقِ، فَلَمْ يَعْأَ بِهِ أَحَدٌ، فَاسْتَلَفَتْ هَذَا السُّؤَالُ انْتِبَاهَهُمْ، وَأَجَابُوا قَائِلِينَ: مَا نَحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟!

فَأَعَادَ عَلَيْهِمُ السُّؤَالَ قَائِلًا: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟»، قَالُوا: لَا، فَأَعَادَ عَلَيْهِمُ السُّؤَالَ ثَالِثَةً: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟»، فَازْدَادَ عَجِبُهُمْ لِتَكَرُّرِ هَذَا السُّؤَالِ، وَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عِيبًا فِيهِ أَنَّهُ أَسْلَكَ، فَكَيْفَ وَهُوَ مِيتٌ؟!

حِينَهَا قَابَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ النُّفُوسَ الْمُتَلَهِّفَةَ لِمَعْرِفَةِ مَا بَعْدَ هَذَا السُّؤَالِ الْمُتَبَاعِ، فَأَلْقَى إِلَيْهِمْ بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي يَقْرَرُهَا، لِتَسْتَقِرَّ فِي أَعْمَاقِ وَجْدَانِهِمْ، قَائِلًا: «فَوَاللَّهِ، لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ!»^(١).

إن اختيار النبي ﷺ هذه القضية، وهي هوان الدنيا على الله، لتكون موعظة في السوق، وبهذا الأسلوب الرائع، له مغزاه الدقيق، فإن السوق مظنة الانغماس في الدنيا، والذي قد يُنسي النظر إلى الآخرة، فربما تجرّ الإنسان، وهو في هذه الحالة على أنواع من التعاملات المحرّمة، كالغش، والكذب، والأيمان المنفّقة للسلع، واللغو والخصومة، ونحو ذلك، وأعظم ما يعصم من ذلك ترائي الآخرة نصب العين، ووضع الدنيا في حجمها الحقيقي، وموازنة زائل الدنيا بالباقي الخالد عند الله، وتذكّر المُنقلب إليه، والوقوف بين يديه، وهوان الدنيا عليه، وهو ما لفت النبي ﷺ إليه في موعظته تلك، وبذلك تكون التجارة منضبطة بالقيّم الفاضلة، وتقوى الله في التعامل مع عباده، وتكون التعاملات التجارية قائمة على البرّ والصدق.

٢- وعن رفاة الزرقى أنه خرج مع النبي ﷺ إلى البقيع، والناس يتبايعون، فنادى: «يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ»، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، وَرَفَعُوا إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ، فَقَالَ: «إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا إِلَّا مَنْ اتَّقَى، وَبَرَّ، وَصَدَّقَ»^(١).

٣- وقال ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^(٢).

(١) «جامع الترمذي» (١٢١٠)، و«صحيح ابن حبان» (٤٩١٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٢١١٠)، و«صحيح مسلم» (١٥٣٢).

ثانياً: كما كان يتعاهد السوق بالتربية والوعظ فقد كان يتعاهده بالرقابة، فقد دخل السوق ومَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ^(١) مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَدًا، فَقَالَ: «يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا؟»، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟»، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٢).

وفي هذا السوق ظهرت براعة الصحابة وبخاصة المهاجرين منهم، وظهر اقتدارهم التجاري، فحوَّلوا المدينة إلى مكان تفاعل اقتصادي، وفيه تحوَّل المهاجرون من مهاجرين فقراء إلى أصحاب أموال، فنمت ثروات عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وغيرهم من أثرياء المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والذين صاروا ذوي أموالٍ واسعة، ونفقات عريضة، وكان غناهم غنى للمسلمين معهم، وأموالهم مبدولة في حاجات إخوانهم ونوائبهم.

بقي أن نعلم أن هذا النبي الذي أطلق المواهب التجارية لأصحابه، وافتتح السوق الكبير لبيعهم وشرائهم لم يُحَفَظْ أَنَّهُ بَاعَ شَيْئًا خَاصًّا بِهِ فِي السُّوقِ، وَلَمْ يَخْرُجْ شَيْءٌ مِمَّا يَمْلِكُهُ مِنْ مَلِكِهِ بِالْبَيْعِ، وَإِنَّمَا كَانَ يُخْرِجُ بِالْهَبَةِ وَالْهَدِيَةِ وَالصَّدَقَةِ.

(١) الصُّبْرَةُ: الطَّعَامُ الْمُجْتَمِعُ كَالْكُومَةِ. ينظر: «النهاية» (٩/٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٢)، و«جامع الترمذي» (١٣١٥).

ولا يوجد في حياة النبي ﷺ في المدينة خبر أن أحداً قال اشتريت من رسول الله ﷺ، ولكنك تجد: «أعطني رسول الله»، «أهداني رسول الله ﷺ»، ولم يسأله أحد شيئاً يملكه إلا أعطاه إياه، فكان أجود الناس وأكرم الناس وأسخاهم بما يملك^(١).

(١) «أماكن نبوية» للمؤلف (١٢١).

بيت الرسول ﷺ

بقي النبي ﷺ في ضيافة أبي أيوب الأنصاري قرابة سبعة أشهر حتى بنى المسجد ثم بنى بيته الذي عاش فيه ومات فيه وهو بيت زوجته عائشة.

ولو اقتربنا إلى بيت النبي ﷺ وجدناه ملتصقاً بالمسجد من الجهة الجنوبية الشرقية، ينفذ بابه إلى المسجد من حائط المسجد الشرقي، فهو أقرب إلى زاوية المسجد الشرقية الجنوبية، وعلى هذا الباب سترٌ هو كساء غليظ من صوف، يستر هذه الحجرة والبيت عن المسجد النبوي، فإذا أراد النبي ﷺ أن يخرج كشف هذا الستر، فأشرق محياه على المسجد الشريف.

فإذا رفعنا الستر ودخلنا، وجدنا دار عائشة مكوَّنة من وحدتين متلاصقتين:

الحجرة، وهي الفناء المكشوف^(١).

(١) ينظر: تحقيق ذلك في كتاب أستاذنا د. محمد بن فارس الجميل حفظه الله: «بيوت النبي ﷺ وحجراتها».

والبيت، وهو الغرفة المسقوفة.

أما الحجرة فإننا ندخل إليها من المسجد، أي: بمجرد كشف الستر ونقل القدم من عتبة الباب، نكون في هذه الحجرة، وهي عند العرب: الفناء المحتَجَر غير المسقوف.

أما مساحة هذه الحجرة المكشوفة فهي ستة أذرع في سبعة أذرع^(١)، ما يقارب (٣ متراً × ٣،٥ متراً)، ويبلغ مجموع مساحتها (١٠،٥ متراً).

فهذا الفناء المكشوف هو المكان الذي تقع فيه الشمس، وهو فناء البيت الذي يجلسون في دفء شمسهِ شتاءً، وفي برد ظله صيفاً، في هذا الفناء يُطبخ الطعام، لأن النار لا توقد داخل البيت، وإنما توقد في الفناء، وفيه أيضاً القربة المعلقة التي يُبرّد فيها الماء.

والذي يجلس في هذه الحجرة لا يكون بينه وبين المسجد إلا هذا الستر الذي على الباب، ولذلك يسمع من كان في المسجد قريباً من الحجرة ما يكون فيها، يقول ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ حُجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» الْهُوِيِّ^(٢)، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» الْهُوِيِّ^(٣).

أما غرفة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فهو البناء المسقوف، وله باب يغلق.

(١) ينظر: «الأدب المفرد» (٤٥١).

(٢) الهوي: طَائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (١١٩/٤).

(٣) «مسند أحمد» (١٦٥٧٤)، و«جامع الترمذي» (٣٤١٦)، و«سنن ابن ماجه»

(٣٨٧٩)، و«سنن النسائي» (١٦١٨).

فإن سألت عن بنائه فهو على ذات الطراز الذي بني عليه المسجد، فأساسه من الحجارة، لأنهم يضعون الحجارة في أساس البناء، وهو جزء الجدار الأسفل مما يلي الأرض، إذ لو كان الأساس لبناً من الطين لأذابه جريان السيل فانهار، فيجعلون الأساس حجارة، ثم يبنى عليها بلبن الطين.

أما مساحة هذه الغرفة فهي عشرة أذرع في سبعة أذرع (٥ متر × ٣،٥ متراً) تقريباً، أي أن مساحته أقل من عشرين متراً^(١)، وأما ارتفاعه فهو كارتفاع المسجد خمسة أذرع، يقول الحسن البصري: دخلت حجرات أمهات المؤمنين، فإذا رفعت يدي أصبت سقفها^(٢).

وأما سقفه فشقائق جذوع النخل، وعليها الجريد والإذخر، وفوقه طبقة غليظة من الطين، وعليه حائط قصير جداً، وفي السطح ميزاب من الخشب لنزول ماء المطر منه.

وللبيت بابان: باب يفتح إلى جهة الغرب في زاويته الغربية الشمالية، يخرج هذا الباب إلى الحجرة، وهو مصراع^(٣) واحد من خشب العرعر المصنوفة إلى بعضها.

(١) وقدرها أستاذنا د/ محمد بن فارس الجميل في كتابه «بيوتات النبي وحجراتها» (ص: ٤١) ب(١٧،٥٠م)، سبعة عشر متراً مربعاً ونصف متر تقريباً.

(٢) «السيرة النبوية» لابن كثير (٣١٣/٢)، و«الطبقات» لابن سعد (٣٨٨/١)، و«الأدب المفرد» (٤٥٠)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٧).

(٣) المصراع: أحد البابين اللذين ينضمآن جميعاً إذا كان المدخل واسعاً، وتسمى الدرفة، فإن كان ضيقاً كفاه مصراع واحد. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٩٩).

وباب آخر يفتح شمالاً في نهاية الجدار الشمالي عند الزاوية الشمالية الشرقية، وهو باب صغير يمكن تسميته باب خدمات، يُخرج منه إلى الأرض الفضاء شرقي المدينة.

فإن سألت عن المتاع في هذا البيت، فإنك إذا دخلت من الباب رأيت على اليمين سرير النبي ﷺ في الزاوية الجنوبية الغربية.

ولم يكن من عادة أهل المدينة اتخاذ الأسرة وإنما كانت هذه عادة قريش، ولذلك لما جاء النبي ﷺ المدينة بحثوا له عن سرير، فوجدوه عند أسعد بن زرارة، فوضع له ﷺ^(١)، وعلى هذا السرير فراش من جلد حشوه ليف، وعليه وسادة واحدة من جلد حشوها ليف، فإذا جاء ضيف إلى النبي ﷺ رُمي له هذه الوسادة ليجلس عليها، كما في خبر عدي بن حاتم في قدومه على النبي ﷺ قال: ثُمَّ مَضَى بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وَسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوَّةً لَيْفًا، فَقَذَفَهَا إِلَيَّ فَقَالَ: «اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ». قَالَ: قُلْتُ: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «بَلْ أَنْتَ». فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَرْضِ قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِأَمْرٍ مَلِكٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ وَقَعَتْ عَلَيَّ غَضَابَةٌ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُ عَلُوًّا فِي الدُّنْيَا وَلَا فَسَادًا^(٢).

وليس في البيت فراش آخر للجلوس، ولذلك فإن النبي ﷺ إذا قام يصلي من الليل فإنه يصلي على فراشه الذي ينام عليه مع زوجته،

(١) «تركة النبي» (ص ١٠٤-١٠٥)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٥٢٥).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٤٣).

فيصلي وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معترضة أمامه، فإذا أراد أن يسجد غمزها فتكف رجلها، وإذا قام مدت رجلها^(١)، وقد يظن من يقرأ هذا الخبر أن ذلك لضيق المكان، وليس كذلك، ولكن لضيق الفراش.

وهناك أثاث قليل من ضرورات الحياة في ذلك الوقت، ومنه حصير صغير من السعف.

وفي البيت رفٌّ، وهو خزانة من خشب، يوضع فيها التمر أو الشعير، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ دُوْكَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي^(٢).

وفي البيت: الصَّحفة^(٣)، والبُرمة^(٤)، والشَّنْ^(٥)، والقَدَح^(٦)، ونحوها من متاع الناس حينها.

ولم يكن في هذا البيت سراج للإضاءة، لأن وقود السراج الزيت، وهو قليل جداً في المدينة، فإذا وجد فهم أحوج إليه إداماً للأكل، قالت عائشة: بَعَثَ إِلَيْنَا أَلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةٍ شَاةٍ لَيْلًا، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فَقَالَ الَّذِي تُحَدِّثُهُ: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٢، ٥١٣، ١٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

(٣) الصحفة: صحن خشبي يشبع الخمسة ونحوهم. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٨٧).

(٤) البرمة: القدر المتخذة من الحجر. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٣).

(٥) الشَّنْ: القربة القديمة من الجلد تستعمل لحفظ الماء وتبريده. ينظر: «لسان العرب»

(١٣/ ٢٤١).

(٦) آنيةٌ للشُّرب. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ٣٩).

فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَا تُتَدَمَّنَا بِرَيْتِهِ - أَيِ جَعَلْنَاهُ إِدَامًا لَطَعَامِنَا - إِنْ كَانَ لِيَأْتِيَنِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِرُونَ خُبْرًا، وَلَا يَطْبُخُونَ قَدْرًا^(١).

وقد بنى هذا البيت أول قدومه المدينة، وكان على حالٍ من القلة، فكان بناءً متواضعاً متقارب الجدر قليل المتاع، صغير المساحة، ثم فتح الله عليه، واتسعت دولته، وكثرت الخيرات بين يديه، فلم يتغير بيته، فلم يزد في مساحته، ولم يرتفع في بنائه، وكان يقسم المال على أصحابه حثوًّا في الثياب، ثم يعود إلى بيته فيعيش فيه كما كان يعيش، ثم مات على السرير الذي اتخذه أول ما قدم المدينة، ودُفن في بيته في مكان سريره، وما كان أحد يدري حين بنى بيته أنه كان يبنى بيت حياته وقبر مماته، وأنه سيكون مأواه حيًّا ومثواه ميتاً^(٢).



(١) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

(٢) «القبر المقدس» للمؤلف (٤٤).

الرسول ﷺ وزوجا

كان البيت النبوي هو وعاء الحياة الزوجية وساحتها، وهي حياة واسعة، والحديث عنها حديث عذب مأنوس، وعندما نأخذ نظرة عامة لحال النبي ﷺ مع زوجاته، سيلفت نظرنا معالم منها:

أولاً: أنه تزوّج في شبابه من سيدة فاضلة عاش معها خمساً وعشرين سنة هي فترة قوّته وشبابه، ولم يتزوّج عليها، فلما توفيت عاشت ذكراها معه، فلم ينسها، وبقي وفيّاً لعشرتها وكريم ذكراها، وكلّ زوجاته تزوّجهن في السنوات العشر الأخيرة من حياته.

ثانياً: أن زوجات النبي ﷺ في غاية التنوع، فهن متنوعات في قبائلهن، وهذا التنوع في القبائل يتبعه تنوع آخر في الأعمار، فنجد منهن المرأة الكبيرة الناضجة مثل خديجة، وسودة، ومنهن الجارية حديثة السن كعائشة وجويرية وصفية، وهناك تنوع في طبائعهن ومزاجهن، فمنهن الحادة في طبعها مثل زينب بنت جحش، ومنهن المرححة المضحكة مثل سودة بنت زمعة، ومنهن الجارية حديثة السن تحب اللهو كعائشة،

وهناك تنوع في آباءهم فمنهم مَنْ أبأؤهن أقرب أصحاب النبي ﷺ إليه، كعائشة وحفصة أبأؤهن أبو بكر وعمر، ومنهم من أبأؤهن أشد الأعداء عداوة للنبي ﷺ مثل أم حبيبة كان أبوها أبو سفيان من أعداء النبي ﷺ قبل أن يسلم، وصفية بنت حيي، كان أبوها حيي بن أخطب أشد الناس عداوة للنبي ﷺ من اليهود.

ولكن الشيء العجيب أن كل هذا التنوع احتواه النبي ﷺ، فحفظ لكل واحدة كيانها الشخصي بتمييزها وطباعها ونسبها، لكنهن كلهن اتلفن في بيوتات النبي ﷺ واجتمعن على حب النبي والتعلق به والارتباط بالحياة معه ﷺ.

ثالثاً: أنهم كن يعيشن مع النبي ﷺ، حياة زوجية مثالية متألقة، وهي في الوقت ذاته حياة واقعية طبيعية، قد تطرأ فيها المشكلات العابرة، التي تعطي للحياة حيوية وتجديداً، فالحياة المثالية الطبيعية هي التي توجد فيها خلافات ومشكلات عابرة تجدد للحياة حيويتها دون أن توقع الحياة الزوجية في أزمة، وهذه طبيعة حياة زوجات النبي ﷺ تعبر فيها مشكلات فتحدث إثارة وثناءً، ولكنها لا تحدث أزمة وانغلاقاً، فتحدث فيها الإشارات المتوقعة من الغيرة بينهم، وربما هجرت إحداهن الرسول ﷺ يومها، وربما غضب من إحداهن فهجرها، أو غضب منهم جميعاً فهجرهم، ولكن هذه مشكلات تمر ولا تستقر، لتتجدد الحياة بعدها فتعود أكثر توهجاً وتألقاً.

إن النبي ﷺ قد أفسح لزوجاته في حياتهن معه فسحة واسعة في الحياة والتعامل بحيث يُعبرن عن مشاعرهن وانفعالاتهن،

ولو كانت هذه المشاعر مغاضبة للنبي ﷺ، ولو كانت هذه الانفعالات هجر النبي ﷺ.

رابعاً: كما نلاحظ أن النبي ﷺ كان يعيش معهن كزوج أولاً، لم يكن يعيش مع زوجاته كزعيم أو قائد، ولذلك عندما سُئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف كان حال النبي في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر، يكون في مهنة أهله^(١). أي أنه يساعد زوجته في أمور البيت، وما كان في بيوتات النبي أعمال شاقة حتى تستعين الزوجات بالنبي ﷺ فيعينهن، لكن كان يعينهن في أمورهن البيتية لإشعارهن بالاندماج في الحياة الزوجية، كأنما يقول: هذا بيتنا جميعاً كما هذه حياتنا جميعاً.

خامساً: الحياة الزوجية في بيت النبوة مشبعة بالحب، يتعاطى فيها الحب مع أنفاس الحياة، والحب فيها شعيرة معلنة لا تحجب ولا تُخفى، فعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»^(٢). هكذا جاء الجواب سريعاً صريحاً، فالحب النقي كمال يُشهر وليس عيباً يُستر.

ويتحدث ﷺ عن زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيقول: «إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وَإِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حَبَّهَا»^(٣).

فانظر إلى هذا التعبير البليغ، حيث اعتبر حَبَّهَا رزقاً رزقه الله إياه، ونعمة أنعم بها عليه!

(١) «مسند أحمد» (٢٦١٩٤)، و«صحيح البخاري» (٥٣٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

وكما كان النبي ﷺ يعلن هذا الحب ويُشهره، فقد كان يتفنن في تعاطيه مع أزواجه بفنون راقية من التعبير عن الحب والتلذذ بتصويره.

فعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يناولني القدر فأشرب منه، ثم يأخذه مني فيديره في يده، ثم يضع فمه حيث وضعتُ فمي فيشرب، وكنت أتغرق العرق^(١) فيأخذه مني، فيضع فمه حيث وضعتُ فمي^(٢).

فأي رسائل من الحب يحملها هذا التصرف الجميل، حين تشعر المرأة بلذة تعاطي الحب بهذه اللفتات المعبرة؟!

وعندما بين ﷺ الصدقات، ذكر منها: «وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللَّقْمَةُ الَّتِي تَرَفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِكَ»^(٣).

لقد كان يكفي أن يقول: نفقتك على أهلِكَ صدقة، لكنه قسم الطعام لقمة لقمة، ثم جعل طريقة التعاطي له جزءاً من الشعيرة والصدقة، بأن يرفع الزوج لقمة من الطعام فيقدمها بيده إلى فم امرأته، وكأنما كان يقدم بهذا المشهد درساً في الذوق وتعاطي الحب.

سادساً: حديثه مع أهله، إن حديث الرجل مع زوجته مما يعمق العلاقة ويعمر الحياة بالود، ويجعل لكلٍّ من الزوجين حضوراً قوياً في حياة الآخر، وهذا ما نراه ماثلاً في حياة النبي ﷺ، في لفتات جميلة من حديثه مع أهله.

(١) هو العَظْمُ إِذَا أُخِذَ عَنْهُ مُعْظَمُ اللَّحْمِ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٢٠).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).

فهذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يصف الليلة التي بات فيها مع النبي ﷺ عند زوجته ميمونة -وهي خالة ابن عباس- يقول: نام النبي ﷺ مع أهله في طول الوسادة، ونمتُ في عرضها، قال ابن عباس: فتحدث النبي ﷺ مع أهله ساعة، ثم نام...^(١).

لاحظ أنه ﷺ يُجري قبل النوم حديث التواد والمؤانسة مع زوجته، ولا يأوي إلى البيت وهو يحمل معه همومه وأتعبه، وإنما يحمل إلى البيت بهجته ومؤانسة أهله، وآخر ما تذكره منه زوجته قبل أن تنام، هو حديث المؤادة قبل النوم!

وشيء أعجب من ذلك! تقول عائشة: كان النبي ﷺ إذا أذن الفجر قام فصلّى ركعتين خفيفتين، فإن كنتُ مستيقظة تحدث معي، وإن كنت نائمة اضطجع حتى يأتي بلال فيؤذنه للصلاة^(٢).

إن معنى ذلك: أن عائشة تستفتح يومها قبل صلاة الفجر بالحديث مع النبي ﷺ، وأنه كان يراعي حالها، فإن كانت مستيقظة تحدث معها، وإن كانت نائمة لم يوقظها، لأنها إلى النوم أحوج.

فانظر إلى المرأة في حياة النبي ﷺ، تنام مع حديث النبي ﷺ، وتستيقظ مع حديثه!

وكان النبي ﷺ إذا تحدث مع زوجاته يختار الشيء الذي يهتمهن ويعينهن، والذي تتفاعل معه مشاعرهن، ولذلك نرى النبي ﷺ

(١) «صحيح البخاري» (٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٤٣).

بعد أن رجع من سفره، ودخل في بيت عائشة بعد غيابه قرابة شهر، وكانت عائشة قد وضعت لُعْبَهَا في فُرْجَةٍ في الجدار، ووضعت عليها سترًا، وهيأتها لتكون بيتًا لِلْعِبْهَا، فلما دخل النبي ﷺ وفتح الباب، فدخل معه تيار الهواء فحرك الستر، فانكشفت اللعب، فجعل النبي ﷺ ينظر إلى اللعب ويقول: «عَائِشُ مَا هَذِهِ؟!».

إنه يعرف أنها لعبها، لكنه تسأول لإجراء الحديث معها، وإظهار الاهتمام بما يهتمها، قالت: هذه بناتي، يا رسول الله. قال: «مَا هَذَا الَّذِي بَيْنَهُنَّ؟». - وكانت قد جعلت بينهن فرسًا له أجنحة من جلد - قالت: يا رسول الله هذا فرس! فجاء السؤال الثالث من أجل تحريك الحديث، قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فَرَسٌ لَهُ أَجْنَحَةٌ؟!». فقالت: يا رسول الله، أما علمت أن نبي الله سليمان له فرس لها أجنحة^(١)!

وهنا نتعجب، فإن عائشة ما عرفت سليمان إلا من محمد ﷺ، لكنها تجرأت في الحديث، حتى كأنها هي التي تعلمه، لأن النبي ﷺ جذب اهتمامها إليه، وتحدث معها في ما يهتمها، فانطلقت في الحديث معه بجرأة وتفاعل.

إن الحديث النبوي مع الزوجات هو الحديث الذي يثمر الود، ويعمق العلاقة، ويجعل للحياة بهجة ومذاقًا، كما أن من أشد ما يطفئ وهج العلاقة الزوجية خفوت التفاعل، وطول الصمت، وكثرة الوجوم.

(١) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢).

لقد كانت بيوت زوجات النبي ﷺ صغيرة المساحة، قليلة المتاع والأثاث، ولكنها كانت مُترعةً بالسعادة والبهجة والأنس، ومشبعةً بالحب وحُسن التعامل، ولقد سُئلت عائشة زوجة النبي ﷺ عن حال النبي في بيته وتعامله مع أهله فتلقت السؤال بحفاوة وترحاب، وأجابت بجواب رائع يصف تلك الحياة النبوية البهيجة، فقالت: كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته أَلَيْنَ الناس وأكرمَ الناس، كان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بَسَاماً، كان يخدم نفسه، ويخدم أهله، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، فإذا حَضَرَت الصلاة خرج إلى الصلاة، وما رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادماً^(١).

وكما كان النبي ﷺ يعيش هذه الحياة الزوجية الهانئة، كان يأمر الناس بذلك ويحثهم على إسعاد زوجاتهم وأهليهم ويقول: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٢).

وأخيراً: فزوجات النبي ﷺ عشن معه وهو الزعيم على الجزيرة العربية كلها حياة البساطة وكفاف العيش وعندما طالبه أن يؤثرهن بسعة النفقة ورفاهية العيش هجرهن شهراً ثم خيرهن: «إِنْ كُنْتِ تُرِيدَنِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَتَعَالَيْتِ أُمْتِعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ وَإِنْ كُنْتِ تُرِيدَنِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا» [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]. فاخترن كلهن الله ورسوله والدار الآخرة،

(١) «مسند إسحاق بن راهويه» (١٧٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٥٣٤١)، و«صحیح

البخاري» (٦٧٦، ٥٣٦٣)، و«جامع الترمذي» (٢٤٨٩)، وغيرها.

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧)، و«سنن الترمذي» (٣٨٩٥).

ثم كان عاقبة ذلك أن قصر الله نبيه عليهن فقال له: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْبَنَاتُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢]. فهن زوجاته في الدنيا وهن زوجاته في الآخرة، وهن أمهاتنا أمهات المؤمنين^(١).

(١) «الحياة النبوية» للمؤلف (١/ ٦٥).

الرسول ﷺ والمرأة

للمرأة حضورها القوي والمؤثر في الحياة النبوية، زوجةً، وبتناً، وصحابية متلقية للرسالة وعاملة بها، وحاملة لها، وقد كان التعامل النبوي مع المرأة نُقْلةً كبيرة في التعامل المجتمعي مع المرأة، فقد كان الوحي المنزل، والهدي النبوي في التعامل، يستن طريقاً آخر يجعل للمرأة مكانتها، ويفعل دورها، ويحفظ حقوقها، ويرفع منزلتها، فإذا القرآن يتنزل بمساواة المرأة بالرجل في العمل والجزاء: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُتَّىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ويأتي الهدي النبوي مؤكداً هذا المعنى: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»^(١).

(١) «سنن أبي داود» (٢٣٦).

وقد كان النبي ﷺ في هديه وتعامله مع النساء يفعل هذا الدور، ويؤكد هذه المكانة، ويحرر المرأة من كثير من عوائق الإرث المجتمعي الجاهلي، فقد كانت قريش بخاصة والعرب بعامة لا يرون للمرأة رأياً ولا مشورة، وإنما هي تابعة للرجل فيما يرى، وكانوا يزدرون دورها ومكانتها، فجاء التعامل النبوي الكريم على غير هذا العرف المجتمعي، ليرفع مكانتها، وليجعل لها رأياً، ويعتبر مشورتها. وهذا من دلائل نبوته ﷺ فإنه لم يسر على النظام الاجتماعي لقومه، لأنه يستمد هديه من الوحي الإلهي، وليس من الإرث الاجتماعي، ولذا خالفهم في طريقة التعامل مع المرأة، فعاملها بما يليق بفطرتها وإنسانيتها.

ومن ذلك تجاوزه طريقة قومه المتوارثة حيث لم يكونوا يعتبرون للمرأة رأياً، فلا يستشيرونها، ولا يقبلون رأياً إن عرضته، أما النبي ﷺ فقد كان يعتبر رأياً ويقبل مشورتها، ومن ذلك: قبوله ﷺ رأي خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول نزول الوحي عليه في غار حراء، حيث اقترحت عليه أن تذهب به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فقبل ذلك وسار معها.

وكذلك قبوله مشورة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يوم الحديبية، حين اتفق مع قريش على الرجوع عن العمرة فقال لأصحابه: «قُومُوا، فَأَنْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا». أي: تَحَلَّلُوا مِنْ عُمَرَتِكُمْ. فَمَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وذلك انتظاراً منهم لعله يرجع عن رأيه، فَيُتِمُّوا عُمَرَتَهُم التي اشتاقوا لها.

فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتَحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرُ بُدْنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ، عَلِمُوا أَنَّ الْإِتِّفَاقَ قَدْ لَزِمَ وَأَنَّ الْأَمْرَ قَدْ حُسِمَ، فَقَامُوا وَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا عَمَّا^(١)، لِتَأْخِرَهُمْ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَمَرَهُمْ.

وهنا نلاحظ أنه ﷺ عرض على أم سلمة حاله مع الناس، وبثها معاناته، شكاية واستشارة، ولذا بادرت أم سلمة بإبداء رأيها، ثم نرى حسن تلقي النبي ﷺ لهذه المشورة وعمله بها، وبالغ أثرها على الناس. كما كان يؤكد على إشعار المرأة بمسؤوليتها، ومشاركتها في العمل لدينها، ويبين هذا الدور للمرأة أن أول من أسلم وصدَّق الرسول ﷺ من خلق الله كلهم، إنسهم وجنهم، رجالهم ونسائهم: هي زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي أول من تلقى الرسالة من رسول الله ﷺ، وأول من احتفى باستقبالها وآمن بها، وناصر الرسول والرسالة، وكذا كان السابقات من المؤمنات، آمَنَ بالدين عن قناعة راسخة، وليس استتباعاً أو تقليداً، ولذا تحملن المسؤولية، وتصدَّين للبذل والتضحية، فكنَّ المهاجرات المجاهدات الصابرات المحتسبات، ومما يوضح ذلك:

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

- خبر أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وَكَانَتْ هَاجِرَتْ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَأَقَامَتْ هُنَاكَ قَرَابَةَ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا، ثُمَّ عَادَتْ، فَجَاءَتْ تَزُورُ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ زَوْجَةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ؟ - أَيْ: الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الْحَبَشَةِ - قَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ، قَالَ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهَجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ، فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعْطِي جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا، حَتَّى أَذْكَرَ مَا قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَسْأَلُهُ، وَاللَّهُ لَا أَكْذِبُ وَلَا أَزِيغُ، وَلَا أَزِيدُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ عُمَرَ قَالَ: كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: «فَمَا قُلْتِ لَهُ؟». قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ هِجْرَتَانِ»^(١).

يُبْهَرِكُ مَوْقِفَ أَسْمَاءَ هَذَا، فَهُوَ دَالٌ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تُوَدِّي دَوْرَهَا بُوْعِي كَامِلًا لِمَسْئُولِيَّتِهَا، لَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تُجِيبَ عُمَرَ قَائِلَةً: لَقَدْ ذَهَبْتُ مَعَ زَوْجِي يَوْمَ ذَهَبَ، وَعَدْتُ مَعَهُ يَوْمَ عَادَ. وَحَسْبُهَا ذَلِكَ لَوْ كَانَتْ تُوَدِّي دَوْرَهَا مَجْرَدَ تَابِعَةٍ، وَلَكِنَهَا وَاجَهَتْ عُمَرَ مُوَاجَهَةَ الْوَاقِعَةِ الْمُتَشَبِّعَةِ بِمَا عَمِلَتْ، وَلَشِدَّةِ يَقِينِهَا أَقْسَمَتْ أَنْ تَرْفَعَ مَا جَرَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ فَعَلَتْ.. وَكُلُّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى غَايَةِ الْوَثُوقِ بِأَهْمِيَةِ الدَّورِ الَّتِي قَامَتْ بِهِ مَعَ زَوْجِهَا جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٣٠).

إن هذا يكشف أن المرأة كانت شريكاً حقيقياً فاعلاً في مشروع الدعوة النبوية، مُتَسَبِّعَةً بقناعتها، واعية بدورها، ولذا كان عطاؤها عطاء كثيراً طيباً مباركاً فيه، وما كان ذلك لِيَتِمَّ لو كانت تعيش بعض حالات التهميش والإقصاء والاستتباع.

- كما أنه ﷺ فتح المجال للتعبير عن آرائهن وفتح آفاق الحوار لهن، وإبداء الرأي فيما يليق به إلهن، وكان يتصدى للجواب عن أسئلتهن وآرائهن أمام الملاء بحفاوة وترحاب، بحيث جرأت النساء والفتيات أن يقفن أمامه، ويسألنهن، ويبين آراءهن بنصاعة ووضوح فيما يقوله لهن، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَجَالِسُكُمْ، مَجَالِسُكُمْ هَاهُنَا». ثُمَّ حَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرِّجَالِ فَقَالَ: «هَلْ مِنْكُمْ الرَّجُلُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ فَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وَالْقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَاسْتَرَّ بِسِتْرِ اللَّهِ؟». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا، فَعَلْتُ كَذَا؟». فَسَكَتُوا، فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «هَلْ مِنْكُمْ مَنْ تُحَدِّثُ؟». فَسَكَتْنَ، فَجَثَتْ فَتَاةٌ كَعَابٌ^(١) عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا، وَنَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلَامَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُنَّ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا مِثْلُ ذَلِكَ؟، إِنَّمَا مِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ شَيْطَانَةٍ لَقِيَتْ شَيْطَانًا فِي السَّكَّةِ، فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»^(٢).

(١) الكعاب بالفتح: المرأة حين يبدو ثديها للنهود، وهي الكاعب أيضاً، وجمعها:

كواعب. ينظر: «النهاية» (١٧٩/٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٢١٧٤).

لقد جرأت هذه الفتاة على ما لم يجرؤ عليه الرجال ولا النساء، وقد استقبل النبي ﷺ مشاركتها، وأسس عليها بقية حديثه، ولم تكن تخشى أن تتعرض لتعنيف أو توبيخ، ولم تتجرأ الفتاة هذه الجرأة أمام رسول الله ﷺ وجمع المسلمين، إلا أنها رأت سوابق وواقعات حصل فيها نحو ذلك من مخاطبة النساء للنبي ﷺ، ورأت حُسن تلقيه ذلك منهن، ولذا تجرأت وهي الفتاة صغيرة السن، لتقول ما لم يجرؤ الرجال والنساء على قوله.

- وقد يحتاج إلى تخصيص مجالس له مع النساء فعن أبي سعيد الخدري قال: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبْنَا عَلَيْكَ الرَّجَالَ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِي مَا قَالَ لَهُنَّ: «مَا مِنْكُمْ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةَ مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: أَوْ اثْنَيْنِ؟ فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ: «وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ»^(١).

إن هذه المرأة عندما قالت: غلبنا عليك الرجال، لم تكن تعني استئثار الرجال به عليهن، فقد كان النساء يحضرن في المسجد فيصلين معه ويسمعن خطبه ومواظمه ﷺ، ولكن وجود الرجال يعوقهن أن يسألن عما يعنينهن، وأن يراجعنه في ما يُردن، ولذا طلبن مجلساً خاصاً بهن.

ثم إنه ﷺ عندما حضر تحدث معهن في ما يباشر حاجاتهن، وذلك بحديثه عن ثواب الأم تفقد أبنائها، فقد كان الأمهات يُفجعن بأبنائهن في المدينة لكثرة الأوبئة فيها، فكان في حديثه ذلك سلوى وتعزية لهن.

(١) «صحيح البخاري» (٧٣١٠)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).

وكان يهتم بقضاء حاجاتهم والسعي في أمورهم.

- ومن ذلك لما جاء عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ فأنطلق به إلى بيته، قال عدي: فوالله إنَّه لَعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ، إِذْ لَقِيْتُهُ امْرَأَةً ضَعِيفَةً كَبِيرَةً، فَاسْتَوْقَفْتُهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلًا تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، حَتَّى رَحِمْتَهُ مِنْ طَوْلِ الْقِيَامِ^(١)، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِمَلِكٍ، وَوَقَعَ حَبِّهِ فِي قَلْبِي^(٢).

- ومن ذلك: رعايته المسكينات منهن، وعيادتهن والسؤال عنهن، والصلاة عليهن، فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يعودُ مَرْضَى مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفَائِهِمْ، وَيَتَبَّعُ جَنَائِزَهُمْ، وَلَا يُصَلِّي عَلَيْهِمْ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ امْرَأَةً مَسْكِينَةً مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي طَالَ سَقْمُهَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ عَنْهَا مَنْ حَضَرَهَا مِنْ جِيرَانِهَا، وَأَمْرُهُمْ أَلَّا يَدْفِنُوهَا إِنْ حَدَثَ بِهَا حَدَثٌ، فَيُصَلِّي عَلَيْهَا، فَتُوفِّيَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ لَيْلًا، فَاحْتَمَلُوهَا فَأَتَوْا بِهَا مَوْضِعَ الْجَنَائِزِ، عِنْدَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَمَرُهُمْ، فَوَجَدُوهُ قَدْ نَامَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، فَكَرِهُوا أَنْ يَهْجَدُوا^(٣) رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ، فَصَلُّوا عَلَيْهَا، ثُمَّ انْطَلَقُوا بِهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ عَنْهَا مَنْ حَضَرَهُ مِنْ جِيرَانِهَا، فَأَخْبَرُوهُ خَبَرَهَا، وَأَنَّهُمْ كَرِهُوا أَنْ يَهْجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلَمْ تَفْعَلْتُمْ؟! انْطَلِقُوا». فَاذْطَلَقُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامُوا عَلَى قَبْرِهَا، فَصَفُّوا وَرَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا يُصَفُّ لِلصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَائِزِ، فَصَلَّى عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٤).

(١) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠).

(٣) يهجدوه أي: يوقظوه.

(٤) «السنن الكبرى» للبيهقي (٧١٠٠).

ومثل ذلك: صلاته على الأمة السوداء التي كانت تَقُمُ^(١) المسجد لما ماتت ودفنت من غير أن يعلم بها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُ الْمَسْجِدَ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَتْ، قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَتُمُونِي!». فَكَانَتْهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»^(٢).

فانظر بالغ اهتمامه بهاته النسوة الضعيفات وسؤاله عنهن وتفقدهن، ثم عتابه لأصحابه إذ لم يخبروه بموتهن، ثم ذهابه إلى قبورهن وصلاته عليهن، وعندما صَغَرُوا أمر الأمة السوداء لم يكن صغيراً عنده ﷺ، فهي أمة غريبة في المدينة لا قرابة لها ولا عشيرة، ولكنه ﷺ هو مأوى الغرباء، وأبو الضعفاء، لا يستصغر أحداً، فالكل أُمَّتُهُ ورعيته، وأتباعه المؤمنون به^(٣).

(١) أَي تَجْمَعُ الْقِمَامَةَ وَهِيَ الْكُنَاسَةُ. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٥٦).

(٣) «الحياة النبوية» للمؤلف (١/ ١٣٠).

الخلق العظيم

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ يَغْشَانَا وَيَخَالِطُنَا، وَكَانَ لِي أَخٌ صَغِيرٌ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عَمْرِهِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عُمَيْرٍ، وَكَانَ إِذَا زَارَنَا يَمَازَحُهُ وَيَضَاحِكُهُ، فَزَارَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فَوَجَدَهُ حَزِينًا، فَقَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا لِي أَرَى ابْنَكَ أَبَا عُمَيْرٍ حَزِينًا خَاثِرَ النَّفْسِ^(١)؟». قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاتَ نُغَيْرُهُ^(٢) الَّذِي كَانَ يَلْعَبُ بِهِ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَمْسُحُ رَأْسَهُ، وَيَقُولُ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»^(٣).

هكذا جعل أنس عنوان تعامل النبي ﷺ حسن الخلق الذي فاق به الناس كلَّهم فقال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا» ثم ذكر صوراً من حسن الخلق، وهو مخالطة أصحابه وزيارتهم، وكان إذا زارهم ييسط حسن خلقه عليهم جميعاً، حتى الطفل الصغير له نصيبه من الممازحة والملاعبة،

(١) أي: ثَقِيلَ النَّفْسِ، غَيْرَ طَيِّبٍ وَلَا نَشِيطٍ. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).

(٢) النُّغَيْرُ: طَائِرٌ صَغِيرٌ يَشْبَهُ الْعَصْفُورَ. ينظر: «النهاية» (٥/ ٨٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠)، وغيرها.

ثم انظر إلى دقة ملاحظة النبي ﷺ لمشاعر الطفل الصغير حيث لاحظ حزنه، فسأل عن سبب ذلك، فلمّا أخبروه أن طائره الذي كان يلعب به قد مات، جاء إلى الطفل مواسياً ومسلّياً يسأله: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟».

وهذا الخلق الحسن ليس مجاملة في زيارة عابرة، ولكنّه انضباط سلوكي دائم، ولياقة نفسية مستمرة، وقد وصف أنس ذلك فقال: حَدَّثْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: أُوْ، قَطُّ، وَمَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتُهُ؟ وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتُهُ؟. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسِسْتُ خَزًّا وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا شَمِمْتُ مِسْكَاً قَطُّ وَلَا عِطْراً كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١). وَكَانَ حُسْنَ الْخُلُقِ يَسْعُ كُلَّ أَحَدٍ، وَأَوَّلَ طَلَائِعِهِ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ وَإِشْرَاقُ الْإِبْتِسَامَةِ لِكُلِّ مَنْ يَلْقَاهُ.

قال جرير البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ^(٢). إنها الابتسامة المُشِعَّة المرحبة التي تشعر بالمودّة والاختصاص، حتى ظن جرير أن هذه الابتسامة مدّخرة له ومخصوصة به، فوقع من نفسه هذا الموقع، مع أنه ﷺ يفعل ذلك مع كل من لقيه من الناس كما قال أحد أصحابه: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٣).

(١) «سنن الترمذي» (٢٠١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).

(٣) «مسند أحمد» (١٧٧٠٤، ١٧٧١٣)، و«جامع الترمذي» (٣٦٤١).

- وكان ﷺ إذا لقي أحداً فصافحه لم يدع يده حتى يكون من يلقاه هو الذي يدع بيده، وكان إذا جلس بين أصحابه قسم بشره وإقباله عليهم حتى يتفرقوا عنه وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حظوة عنده، حتى سأله عمرو بن العاص بثقة: مَنْ أحب الناس إليك؟ وهو يظن أنه سيقول: أنت، مع أن عمرًا إنما أسلم بعد عشرين سنة من بعثة النبي ﷺ، ولكن النبي الصادق الأمين أجاب بالحق والصدق فقال: «عائشة»، قال: فمن الرجال؟ قال ﷺ: «أبوها» قال ثم من؟ قال ﷺ: «عمر»^(١). فسكت عمرو فلم يقل: «ثم من؟» حتى لا يكون قبله غيره، فما الذي جرَّاً عمرًا أن يسأل هذا السؤال ويطمع هذا الطمع في المكانة في نفس النبي ﷺ؟ إنه تعامل النبي ﷺ الذي أشعره بأهميته ومكانته حتى ظن أنه أحب الناس إلى النبي ﷺ.

- وكان له ﷺ حفاوة خاصة بالضعفاء والفقراء، ولم يكن الضعيف والفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس رسول الله ﷺ، وكان يقول: «ابْغُونِي ضَعْفَاءَكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزُقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضَعْفَائِكُمْ»^(٢). ولذا يجروا عليه الضعفاء والمساكين.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَتِ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ^(٣).

(١) «سنن الترمذي» (٣٨٩٠).

(٢) «سنن الترمذي» (١٧٠٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٧٢).

وفي هذا التعبير مبالغة في التواضع فقد ذكر المرأة وليس الرجل، والأمة وليس الحرّة، وقال حيث شاءت أي: من الأمكنة ولو كانت حاجتها خارج المدينة.

- وهذه السماحة واليسر وحسن الخلق مع الناس تصاحبه حتى مع ذوي الطباع الصعبة والتصرفات المثيرة، فيحتويها بحلمه وكرمه، ومن ذلك ما رواه مرافقه وخادمه أنس قال: كان ﷺ يسير وقد ارتدى برداء نجراني غليظ الحاشية، أداره على عنقه، وألقى فضله على منكبيه، حتى إذا وصل إلى حجرته، وكاد أن يدخلها، إذا أعرابي من أهل البادية يسارع إليه، حتى إذا أدركه جذب طرف ردائه من خلفه جذبة شديدة، فاجأت النبي ﷺ، وكان من أثر هذه الجذبة الشديدة المفاجئة أن اختلّ توازن النبي ﷺ، فتقهقر إلى الخلف، وكاد أن يسقط على الأرض، حتى رجع في نحر الأعرابي، وانشق الرداء من أثر شدة الجذبة الشديدة، وأثرت حاشية الرداء في عنق النبي ﷺ، فجعل أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينظر إلى عُنُق النبي ﷺ فإذا حاشية الرداء قد أثرت في صفحة عنقه ﷺ من شدة جذبة الأعرابي.

لقد كان المتوقع حينئذ أن يفزع هذا الأعرابي لما جرى، وأن يعتذر عما حدث، وأن يتلطّف للنبي ﷺ طالباً عفوه، ولكن ليس هذا الذي جرى، ولكنه نادى النبي ﷺ قائلاً: يا محمد.

إنه نداء بجفاء، فقد ناداه باسمه ولم يقل: يا رسول الله، ثم طلب فقال: أعطني من مال الله الذي عندك. إنه الجفاء في المسألة أيضاً.

وبعد، فأتمنى منك أن تتوقف لحظة، وتفكر في الانفعال الذي يمكن أن تُثيره متوالية المثيرات المستفزة هذه؟

كثّف هذه الصورة في ذهنك، وتخيل أي حريق من الغضب تكفي واحد منها لإشعاله في القلب، فكيف بها مجتمعة! فُكّر في ردة الفعل المتوقعة لهذه المثيرات المتتابة.

أما نبيك ﷺ فقد كانت ردة فعله عجباً عجباً، سَمَت فوق ضوابط الانضباط، ومثّل المثالية، إلى أفق أعلى، إنه أفق العظمة الأخلاقية المحمدية.

لقد التفت فلم يُعرض، وضحك ولم يتجهم، وأحسن ولم يعاقب، يقول أنس: فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعتاء^(١).

نتهي من رواية هذه القصة، ونعيدها، ونكرر إعادتها لنرى فيها مشهد الوصف الإلهي للخلق النبوي حيث قال الله عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومن عظمة خُلُقِهِ ﷺ مراعاة مشاعر الناس، وإشعار كل أحد بقيمته وأهميته، ومن ذلك:

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٢٠٩٠)، و«صحيح البخاري» (٣١٤٩، ٥٨٠٩، ٦٠٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (١٤٦/٧-١٤٧)، و«فتح الباري» (٥٠٦/١٠).

- عندما خرج النبي ﷺ من مكة عام عمرة القضاء تبعته ابنة عمه حمزة وكانت جارية تسعى وتنادي: يَا عَمَّ يَا عَمَّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونِكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، أَحْمِلِيهَا. فَأَخْصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ جَعْفَرُ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي. وَقَالَ زَيْدُ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ». وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ». وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي». وَقَالَ لِرَزِيدٍ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»^(١).

فانظر هذه البراعة في رعاية المشاعر عند معالجة الموقف حيث قضى بها لخالتها ولم يقل لجعفر حتى يُظهر أن المراعاة لطرف خارجي غير الثلاثة المتنازعين، وهي خالتها أسماء زوجة جعفر، وقال: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ».

ثم وَزَع عليهم هذه الأوسمة الرفيعة التي تشعر كلا منهم أن له حَظُّوْتهُ وقدره، فلا يشعر أحد منهم أنه أدنى منزلة أو أقل قدراً، وهي براعة أخرى في رعاية المشاعر النفسية.

- وكان لشدة رعايته مشاعر من حوله إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟!، ولكن يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذًّا وَكَذًّا»^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٠١).

- ولم يكن يواجه أحداً بما يكره، وكان إذا كره شيئاً عرفه أصحابه في وجهه.

وكما كان له ﷺ براعته في رعاية المشاعر فقد كان ينهى عن جرح المشاعر وإيلامها، ومن ذلك نهيه عن تناجي اثنين دون الثالث، لأن ذلك يؤذي مشاعره، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى ائْتَانِ دُونَ الْآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»^(١).

- ومن ذلك نهيه عن احتقار أحدٍ أو ازدرائه قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرِضُهُ»^(٢)، والاحتقار إيذاء للمشاعر وانتقاص للشخصية.

- ونهى عن التفاخر المشعر بالتعالي على الآخرين فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٣).

وكل ذلك مما يحفظ المشاعر الاجتماعية أن تُخدش والقلوب أن تُوحش، ويحفظ وئام المجتمع ووداده وسلامه.

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

- وكما كان ﷺ يقدم القدوة والمثل الأعلى في حسن الخلق، فقد كان يربي أمته عليه، ويأمرهم به، ويعمقه في نفوسهم، فيقول: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ»^(١). «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»^(٢). «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»^(٣). «أَعَدَّ اللَّهُ بَيْنَنَا فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ»^(٤).

فكيف ستكون أخلاق أصحابه وهم يرون كمال خلقه ويسمعون أمره بحسن الخلق وتعظيمه لمنزلته؟.

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٥٣).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٧٣٢).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٧٩٩)، و«سنن الترمذي» (٢٠٠٢).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٨٠٠).

الرسول ﷺ والخاطئون

كان أحد الصحابة واسمه عبد الله يحب رسول الله ﷺ كأشد ما يكون الحب، وكان لحبه لرسول الله ﷺ يتشهى له كل طرفة طعام يراها تدخل المدينة، فربما جاء الأعرابي بعكة^(١) السمن أو العسل، فيأخذها منه، ويهديها للنبي ﷺ، فإذا جاءه صاحبها يتقاضاه الثمن جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: أعط هذا الثمن. فيقول رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تُهْدِهِ إِلَيَّ؟». فيقول: بلى، يا رسول الله، ولكن ليس عندي ثمنه^(٢). فما يزيد رسول الله ﷺ أن يضاحكه، ويأمر لصاحبه بالثمن.

إن هذه الممازحة اللطيفة تعكس الإلف النفسي والعشرة الجميلة بينه وبين رسول الله ﷺ.

وكان عبد الله هذا مُبتلى بشرب الخمر، مُكثراً منها، وكثيراً ما أتى به إلى النبي ﷺ ثَمَلاً من السكر، فجاء به يوماً كذلك، فأقيمت عليه

(١) العُكَّة: وعاء من جلد. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٢) «مسند أبي يعلى» (١٢٧).

عقوبة السُّكر ثم انصرف، فقال أحد الصحابة: اللهم العنه، ما أكثر ما يُؤتى به. فإذا النبي ﷺ يرد هذه المقولة ويقول: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ لَيَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(١).
 إن هذا الموقف النبوي يقدم لنا بصائر نبوية في التعامل مع الخطأ والخاطئين، منها:

أولاً: يشدُّك هذا التآلف، بين هذا الصحابي على ما وقع فيه من خطأ مع رسول الله ﷺ، إنه إلف وحب، وممازحة ومودة، مما يكشف لنا أنه لم يكن ثمة تشطير في مجتمع النبوة، أو عزل لفئة منه لمعرة خطأ كان منها، وإنما الاندماج والتمازج بينهم على تفاوت مقاماتهم في الخير، فمنهم السابق، ومنهم المقتصد، ومنهم من ظلم نفسه، ولكن لم يكن أحد يعيش النَّبَذَ أو النَّبْزَ^(٢) أو الإقصاء، وإنما كان التآلف والاحتواء، وبذلك تظلُّ الأخطاء التي يقع فيها بعضهم محدودة الأثر والتداعيات، لأنها محاصرة بهذا الجو التآلفي الكريم، الذي لا يُتيح لها التطور ولا التكاثر، وكلما عثر أحد بخطيئته آنس أيدي إخوانه تمسك به أن يهوي من هذه العثرة، أو ينقطع عنهم بسبب هذه الزلة.

ثانياً: النظر إلى المساحة الإيجابية في نفس عبد الله، وهو حبه الله ورسوله، وليست هذه منقبة خاصة بعبد الله، ولكنها الخصلة التي يشاركه فيها كل مؤمن، فلا يصحُّ إيمانٌ إلا بحبِّ الله ورسوله،

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).

(٢) النبذ: الإقصاء، والنبز: التعيير والازدراء.

ولكن النبي ﷺ أبرز هذه الخصلة، وامتدح الرجل بها، وهو أسلوب تربوي فريد، يترتب عليه توسيع مساحة الخير في النفوس، وتأكيد انتسابها إليه، وارتفاعها به، وإن حصلت منها الهفوات فلا تكبّلها، ولا تجترّها للقاء، ولك أن تتصور نفس عبد الله هذا، وقد بلغته مقولة النبي ﷺ عنه، فأَيُّ نشوة ورفعة تستثيرها فيه تلك المقولة، حتى لكأنما يُعرج بنفسه إلى أفق أعلى يسمو به فوق هذه الخطايا والهتات؟!

إن هذا لمن أقوى الأسباب للتخلص من هذه الخطايا، والتأكيد لنفسه أن هذه هفوات عارضة، وليست الأصل في حاله، ولا الحاكم لنا عليه، فالأصل فيه حب الله ورسوله، وكما قال ﷺ عن حاطب بن أبي بلتعة عندما حاول إفشاء السر العسكري لأهل مكة قبل الفتح، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١). فذكر سابقته وجهاده، ومساحة الخير الواسعة في نفسه، والتي لا يحجبها هذا الموقف ولا يلغيها.

ثالثاً: ربما احتاج ﷺ في علاج بعض الأخطاء إلى قدرٍ من الشدة وإظهار التأثير الذي يبين مقدار الخطأ، وليس ذلك مع كل خطأ ولا مع كل خاطئ، وإنما يكون ذلك مع الخطأ الكبير، ومع من يفيد ذلك ويؤثر فيه ولا يُنْفَرُه، ومن ذلك:

موقفه ﷺ مع أبي ذر حينما عيّر رجلاً من الخدم بلون بشرة أمه السوداء فقال له: يا ابن السوداء. فدعاه ﷺ وقال له: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». أي فيك خصلة سيئة من خصال الجاهلية، وهي حال العرب قبل الإسلام، وهذا عتابٌ نبويٌّ شديد فإنَّ أبا ذرٍّ كان من أوائل المسلمين ومن السابقين إلى الإسلام، فكيف سيكون شعوره إذا قيل له إنك لا تزال فيك بقية من أخلاق الجاهلية؟، ولذلك فرع أبو ذر من ذلك، وَقَالَ: عَلَى سَاعَتِي هَذِهِ مِنَ الْكِبَرِ؟ أي: هل بعد هذا العمر في الإسلام بقي لدي شيء من أخلاق الجاهلية؟!، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ^(١) جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيَلْبَسْهُ مِنْ ثِيَابِهِ»^(٢).

وبذا أكّد النبي ﷺ له عدم التعالي على الخدم أو إساءة معاملتهم، أو انتقاص أحد بجنسه أو لونه، وأكّد على أخوة الخدم وإحسان معاملتهم واستشعار حقوقهم.

ولذا أثر ذلك في نفس أبي ذر والتزمه بقية عمره، فكان إذا لبس ثوباً يكسو خادمه مثله، ولا يفضل نفسه عليه في لباس أو طعام.

رابعاً: عندما يكون سبب الخطأ الجهل فإنه ﷺ يصحح الخطأ بالتعليم الرفيق من غير تعنيف، كما في حديث معاوية بن الحكم الذي صلى مع النبي ﷺ ولم يكن يعلم بمنع الكلام أثناء الصلاة قال: بَيْنَا أَنَا أَصْلِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلَأُ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟

(١) الخَوْل: هم خَدَم الرجل وأتباعه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٦٦١).

فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَازِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(١).

وكما في حديث الأعرابي الذي بَالَ في المَسْجِدِ، فَتَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقْعُوا بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُسِيرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(٢).

ويلاحظ في هذه الأخطاء أنها بسبب الجهل وليس دافعها شهوة كشهوة الانتقام أو الغضب أو الطمع ونحوه، ولذا فإن النبي ﷺ يرفع الجهل بالتعليم الرفيق فأثر ذلك في معاوية بن الحكم فقال: فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني.

وأثر في الأعرابي فقال بعد ما فَقَّه: فَقَامَ إِلَيَّ بِأَبِي وَأُمِّي، فَلَمْ يُؤْنَبْ، وَلَمْ يَسَبَّ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ لَا يُبَالُ فِيهِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلِلصَّلَاةِ»^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٢٠).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٥٢٩). وينظر: «الحياة النبوية» للمؤلف (١/٢٢٤).

الرسول ﷺ والمخالفون

أرسل الله الرسل بشراً من البشر، شأنهم الخلطة بالناس والتعايش معهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكان في بيوت بعض أنبياء الله المخالف لهم في دينهم، ففي بيت نوح زوجته وابنه، وفي بيت إبراهيم أبوه، وفي بيت لوط زوجته، وفي أسرة نبينا ﷺ عمه أبو طالب، وعمه أبو لهب.

والتعايش الإنساني فطرة بشرية، ولذا عاش الناس منذ الأزل في تجمعات بشرية، لأن في كلٍّ منهم ما يجذبه إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. فالأصل في التجمعات البشرية هو التعارف والتعاون، وليس التخالف والاحتراب.

ولذا فإن طريقة النبي ﷺ في ذلك تُمثل الاستواء الفطري، والكمال الإنساني.

وقد وصف الله خلق نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وهذا وصف لعظمة خلق النبي ﷺ مع كل من يتعامل معهم من المتبعين والمخالفين، وأمر الله بالقول الحسن لكل الناس فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. ولفظ الناس عام يشمل المسلم والكافر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فالجدال والحوار مع أهل الكتاب إنما هو بالأحسن من القول. ولذا كان للتعامل النبوي مع المخالفين سماته ومعالمه ومنها:

أولاً: التعايش الاجتماعي، ومن مظاهر ذلك:

- المخالطة العامة، وهي سمة المجتمع النبوي، والتي أكدها النبي ﷺ في صحيفة المدينة والتي فيها تنظيم العلاقة بين مواطني دولة المدينة من المسلمين وغيرهم.

وفي التمازج الاجتماعي والخلطة بين المسلمين وغيرهم، فقد مرَّ النبي ﷺ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود فنزل إليهم وتحدث معهم^(١)، ولم ينكر على المسلمين جلوسهم في هذا المجلس المختلط وإنما شاركهم المجلس.

- وكذلك التزاور معهم، فكان اليهود يدخلون بيت النبي ﷺ فيستضيفهم، ويجلس معهم.

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٥٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٨).

والبيت هو مأوى الإنسان، وفيه خصوصيته، وتكرمه وضيافته، وإدخال أحد إلى البيت إكرام وتقريب، ومن ذلك:

خبر الغلام اليهودي الذي كان في بيته ﷺ، فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ^(١)، وكان هذا الغلام يدخل بيته ويلى خاصة شأنه، مع أن أصحابه كانوا يتمنون خدمته هم وأبناؤهم، ولكنه يختار شاباً من اليهود للعمل معه تأكيداً للتعايش والتمازج المجتمعي.

وعن عائشة قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ^(٢) عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهَّمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»^(٣).

إن هؤلاء اليهود برغم وقاحتهم ودفين حقدهم، إلا أن بيوت النبي ﷺ تفتح لهم، وخلقهم الكريم يستوعبهم، فيعاملهم بالرفق ويأمر به في معاملتهم.

وكما استقبلهم في بيته فقد زارهم في بيوتهم، فعن أنس أن يهودياً دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة، فأجابه^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٢) السام: هو الموتُ العاجِلُ. ينظر: «فتح الباري» (١١ / ٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥).

(٤) «مسند أحمد» (١٣٢٠١). وإهالة سنخة: هي شحم مذاب قد تغيرت رائحته. ينظر:

«فتح الباري» (١ / ٨٢).

وبذلك بقيت العلاقات الإنسانية كالصدقة والقربة والزمالة في عمل أو مهنة، والشراكة في تجارة ونحو ذلك من تعاملات الحياة، ولم يكن الصحابة يسألون النبي ﷺ عن كثير من تفاصيل التعامل مع غير المسلمين، وإنما كانوا يعتبرونها شأنًا حياتيًا عامًا تحتويه مساحة الإباحة الواسعة ومن ذلك:

قصة سعد بن معاذ وكان صديقاً لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَكَانَ أُمَيَّةٌ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِراً، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ وَهُوَ مِنْ زَعَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ...^(١). ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يحذره عندما ذهب، ولم يسأله حين رجع.

وقصة أبي ذر لما قدم مكة في أول البعثة فلقى النبي ﷺ وسمع منه فأسلم، فأمره ﷺ أن يلحق بقومه المشركين، ولم يأمره بمعاملة خاصة لهم وإنما سيعود وسيعيش بينهم كما كان يعايشهم من قبل^(٢).

وكذلك السابقون إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار الذين بقي أبائهم وأقاربهم على الشرك، واستمر تعاملهم معهم تعاملًا إنسانيًا طبيعيًا كما كان.

- من مظاهر ذلك تبادل الهدايا معهم، فإنَّ تبادل الهدايا من مظاهر الإكرام، ومن أسباب التآلف، ومما يحيي المودَّات في القلوب،

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٦١).

ولذا يقال: تهادوا تحابوا. وقد كان النبي ﷺ يهدي الهدايا، ويقبل الهدايا ويهدي ما يقابلها، ومنها هدايا المخالفين، ومن ذلك:

هدية أكيدر دومة إلى النبي ﷺ: فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَكِيدَرَ دُومَةَ واسمه يوحنا أَهْدَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُبَّةً سُنْدُسٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُحَرَّمَ الْحَرِيرُ، فَلَبَسَهَا النَّبِيُّ ﷺ وخطب بها، وكأنَّ ذلك ليراها من أحضرها فيخبر مهديها الذي أرسلها بذلك وهذا من حسن استقبال الهدية^(١).

وقبل هدية المقوقس: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوَّقِسِ والي الإسكندرية بكتابه إليه، فَأَكْرَمَ حَاطِبًا وَأَحْسَنَ نَزْلُهُ، ثُمَّ سَرَّحَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَهْدَى لَهُ مَعَ حَاطِبٍ كِسْوَةً وَبَغْلَةً بِسَرَجِهَا وَجَارِيَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا مَارِيَةُ أُمُّ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ^(٢).

وقد كان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، فالشأن أنه قد أثابهم عليها، أو أنه ابتدأهم بها، وهكذا فعل أصحابه اقتداءً به.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حُلَّةٌ، فَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ مِنْهَا حُلَةً، فَكَسَاهَا عُمَرُ أَخَاهُ لَهُ بِمَكَّةَ مُشْرِكًا^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ لِغَلَامِهِ: أَهْدَيْتَ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ أَهْدَيْتَ لِحَارِنَا الْيَهُودِيَّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(٤).

(١) «سنن الترمذي» (١٧٢٣).

(٢) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٠١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٦٢٥).

- ومن ذلك الإحسان إليهم والبر بهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّوهُمْ وَقَدْ قُتِلُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. والأسير مخالف معاد، جاء مقاتلا ثم أسر، فلما أسر صار محلاً للإحسان، ولذلك قال النبي ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا»^(١).

وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم، أخو مضعب بن عمير لأبيه وأمه في أسارى بدر. قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر، وكان الخبز قليلاً، فكانوا يوثروننا بالخبز على قلته، وذلك لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما نفع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفعني بها. قال: فاستحيي فأرّدها على أحدهم، فبرّدها عليّ ما يمسخها^(٢).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشرّكة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قد قدمت علي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(٣).

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٩٧٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/٦٤٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٠٣).

- ومن مظاهر التعايش معهم عيادة مرضاهم، والقيام لجنازتهم:

فكان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: «أَسْلِمَ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ. فَأَسْلَمَ^(١).

وَكَانَ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَيْ سُكَّانِ الْبَلَدِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ لَهَا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟!»^(٢).

- ومن ذلك المحبة الفطرية لغير المسلمين، وهي الاستجابة المشاعرية الفطرية لدواعي الحب من قرابة أو صداقة أو إحسان.

كحب الإنسان لوالديه، وحب الرجل لزوجته، وحب الصديق لصديقه، وحب المرء لمن أحسن إليه، وهذا شعور فطري دل على وجوده بين المسلمين والمسالمين من الكفار قوله تعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن المحبة الفطرية ما دل عليه قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. فأحلَّ الله نكاح نساء أهل الكتاب، ومعلوم أن الزواج لابد أن يكون فيه بين الزوجين السكنُ والمودةُ والرحمةُ التي جعلها الله بين الأزواج كما قال تعالى:

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٦١).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وكذلك من كان أبواه كافرين فإن عدم إسلامهما لا يزيل فطرة المحبة لهما، ولذا قال تعالى مؤكداً حقهما حتى وإن أمرا بالشرك: ﴿وَأِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

ثانياً: حفظ حقوقهم:

فقد كان المخالفون لرسول الله ﷺ من اليهود والمشركون مصابي الحقوق يتمتعون بالحماية الكاملة لدمائهم وأموالهم وحقوقهم، ومن ذلك: أنه توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير فما وجد ما يفتكها به حتى توفي^(١)، وإنك لتعجب أن يقتض النبي من هذا اليهودي وهو في عز دولته، وقد فتح مكة ودانت له الجزيرة العربية كلها، ومع ذلك لا يقرضه هذا اليهودي حتى يأخذ رهناً، ومات النبي ﷺ قبل أن يتمكن من إيفاء القرض وافتكاك الرهن، فأداه علي بن أبي طالب بعد وفاته واسترد الدرع.

- وعندما هاجر ﷺ من مكة خلف عليا بعده حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته^(٢)، وأصحاب الودائع هؤلاء هم المشركون في مكة.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٠٣).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٩٩/٢).

- ومن حفظ حقوقهم حرمة دمائهم وصيانتها والوعيد الشديد على التعدي عليهم فقال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تُوْجِدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١). والمعاهد هو من دخل بلاد المسلمين بعهد وأمان أو كان من أهل الذمة.

ومع كل هذا التعايش وحسن التعامل فإن هناك الحرص على بيان الحق لهم ودلائلهم عليه:

وعندما ننظر إلى حرص النبي ﷺ على هداية المخالفين نجده يتوقد بعاطفة مشبوبة هي كحرص الوالد على ولده أو أشد، حتى كادت نفسه أن تذهب حشرات عليهم، فعاتبه ربه الذي أرسله فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ تَفْسُكَ عَلَىٰ عَائِزِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. باخع نفسك أي مهلكها، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

ولما زار النبي ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه وهو مريض مدنف فدعاه إلى الإسلام فأسلم ثم مات، ففرح ﷺ بإسلامه وقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ»^(٢).

وهذا الفرح بإسلام فتى أسلم ثم مات فلن يكون منجزاً لعمل، ولا متبرعاً بمال، ولا مقاتلاً في معركة، ولكنه فرح بالهداية التي كان نبينا ﷺ يذيب مهبته في بلاغها.

(١) «صحيح البخاري» (٣١٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

إن التعايش والسلم هو مناخ عرض الدين والتعريف به والدعوة إليه، ولذا كان السلم بعد صلح الحديبية سبباً في انتشار الإسلام في بقية قبائل العرب، وخروجه خارج الجزيرة العربية. وكان تعامل المسلمين الفاتحين مع أهل الأديان سبباً في إسلامهم، وتمسكهم بالدولة الإسلامية.

فهذا هدي النبي ﷺ وهداه، وهذه عظمته الأخلاقية في تعامله مع من يخالفون دينه، ويتأبون عن اتباعه، فكيف سيكون تعامله وحسن خلقه مع المؤمنين به، المحبين له، المعظمين لدينه وأمره^(١).

(١) «الحياة النبوية» للمؤلف (١/٢٣٣).

الرسول ﷺ والأعداء

لا يمكن لصاحب رسالة أو دعوة أن يقوم بواجبه ودعوته دون أن تواجهه خصومات وعداوات، يمكن التقليل منها ومداراتها، ولا يمكن تجاوزها وإلغاؤها بالكلية، كما قال جل وعز: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. ولذلك واجه النبي ﷺ في رسالته ودعوته عداوات كثيرة متنوعة، وحينما نقف مع حال النبي ﷺ مع أعدائه والعداوات حوله نلاحظ:

أولاً: أن النبي ﷺ واجه منذ بداية دعوته عداوات أعداء عظام في مواهبهم وقدراتهم وأقدارهم، لكنهم كانوا مع الباطل ضد الحق، والله غالب على أمره، ولذلك انتهى كيدهم، وفشلت عداوتهم، وكان عاقبة أمرهم خسرًا.

ثانياً: واجه النبي ﷺ أشد العداوات، وأمرها، وأمضها، وهي عداوة ذوي القربى.

فكان أعداؤه في مكة، هم عشيرته، وذوو قريباه، وهذه أشد العداوات مرارة وألماً.

ثالثاً: برغم تلك العداوة وشدة الأذى إلا أن حرص النبي ﷺ كان على هدايتهم، وليس على الانتقام منهم.

فعندما ذهب الطفيل بن عمرو الدوسي إلى قبيلته دوس يدعوهم فعصوه، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فرفع النبي ﷺ يديه فَقِيلَ: هَلَكْتُ دَوْسٌ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»^(١). فدعا لهم ولم يدع عليهم.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^(٢).

وفرح بإسلام مَنْ أسلم منهم.

وكان يجتهد أن يستل العداوة والبغضاء من قلوب أعدائه، فيعطيههم ويكرمهم حتى ينقلب السخط رضا، والعداوة محبة وقرباً.

فقد أعطى أبا سفيان مئة من الإبل، وأعطى ابنه يزيد ومعاوية مئة مئة.

وأبو سفيان هو الذي قاد الجيوش لحربه في أحد، والخندق، ولكن كانت إرادة الهداية في قلبه ﷺ أعظم من شهوة الانتقام.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).

وكذا فعل مع آخرين من أعدائه حتى قال صفوان بن أمية وكان من أشد أعدائه عداوة: لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي^(١).

رابعاً: نلاحظ نجاح النبي ﷺ الفائق في تحويل عداوات شديدة إلى محبة شديدة، ولذلك يمر عليك في سير بعض الصحابة قولهم للنبي ﷺ: ما كان وجه أبغض إلي من وجهك، وإن وجهك اليوم لأحب الوجوه إلي، وما كان دين أبغض إلي من دينك، وإن دينك لأحب الدين إلي. هذه يقولها ثمامة بن أثال الذي جاء من نجد^(٢)، ويقول مثلها عمرو بن العاص الذي جاء من مكة^(٣)، ويقولها صفوان بن أمية بن خلف، وتقولها هند بنت عتبة بن ربيعة^(٤)، إنها براعة النبي ﷺ في احتواء العداوات وتحويلها إلى مودات.

خامساً: نلاحظ أن العداوات حول النبي ﷺ كانت تضيق ولا تتسع، وتنكمش ولا تتمدد، فلم يكن النبي ﷺ يجعل العداوات تتداعى وتنتشر، ولكن يضيقها في أضيق نطاق، ولم يكن النبي ﷺ يجعل العداوات تسري من الآباء إلى الأبناء، بل لم يكن ﷺ يذكر للأبناء عداوات آبائهم مهما بلغت شدة وكيداً، ولما فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل إلى البحر وكان أبوه أشد أعداء النبي ﷺ عداوة،

(١) «سنن الترمذي» (٦٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

(٣) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٧١٤).

فورث عن أبيه هذه العداوة، فأرسل النبي ﷺ إليه بالأمان، فلما عاد جعل ﷺ ينقي الأجواء لاستقباله فقال لأصحابه: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ - يَعْنِي أَبَاهُ أَبَا جَهْلٍ - فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤْذِي الْحَيَّ وَلَا يَضُرُّ الْمَيِّتَ»^(١). فلما أقبل عكرمة قام النبي ﷺ يتلقاه ويقول له: «مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ»^(٢). ولم يُذَكِّرْ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَهُ بَعْدَاوَةَ أَبِيهِ أَوْ ذَكَرَهَا لَهُ، وَلِذَا أَسْلَمَ وَصَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ كَانَ آبَاؤُهُمْ أَشَدَّ أَعْدَاءَهُ، وَوَجَدُوا فِي كَنَفِهِ الرِّعَايَةَ وَالْحُبَّ وَالِاحْتِوَاءَ، مِثْلَ أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولٍ، وَعَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَالْوَلِيدُ وَخَالِدُ ابْنِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، وَأَبُو حَذِيفَةَ بْنُ عَتَبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَدُرَّةُ بِنْتُ أَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرُهُمْ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ كَانَ آبَاؤُهُمْ أَشَدَّ الْأَعْدَاءِ عِدَاوَةً، وَمَاتُوا وَهُمْ يَعَادُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَقَاتِلُونَهُ، وَبَعْضُهُمْ قُتِلَ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَهُ، ثُمَّ صَارَ أَبْنَاؤُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالْمُحِبِّينَ لَهُ، وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ دِينِهِ.

سادساً: مع كثرة العداوات وشِدَّتِهَا إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَتَطَامَنَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْأَعْدَاءِ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ الْكَرِيمِ، فَلَمْ تُؤْثِرْ عَنْهُ كَلِمَةٌ فَاحِشَةٌ، وَلَا تَصْرَفُ قَبِيحٌ، بَحِثْ تَرَوِي لَنَا الْيَوْمَ سِيرَتَهُ، فَلَا نَجِدُ فِيهَا مَا يَخْدُشُ الْحَيَاءَ، أَوْ يَزِرِي بِالْمَرْوَةِ، بَرِغْمَ مَا لَاقَى مِنْ أَنْوَاعِ الْعِدَاوَاتِ وَالِاسْتَفْزَازَاتِ^(٣).

(١) «جامع الترمذي» (١٩٨٢).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).

(٣) «الحياة النبوية» للمؤلف (٢٥٧/١).

الرسول ﷺ والحرب

لم يعبر النبي ﷺ بدعوته إلا بعد أن سلك بها طريقاً شائكاً تعترضه العداوات والمكائد، ولا يمكن لصاحب دعوة مهما كان مسالماً أن يبقى سالماً من عداوة من يخالفون دعوته، وليس أرفق وأوفق في الدعوة من أنبياء الله ورسله، ومع ذلك اعترضهم الأعداء بالمكائد وواجهوهم بالعدوان قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

ولذا فإن المواجهة مع العداوات الظالمة الباغية متكررة في أغلب الدعوات، وبخاصة عندما تبادئ من يخالفونها في الدعوة، كما واجه نبي الله موسى عداوة فرعون، وواجه نبي الله عيسى عداوة اليهود والرومان، ولمواجهة هذه العداوات طرق ووسائل تتنوع بحسب حال الداعي ومن يعاديه، ومن ذلك ما يُلجئ إلى مواجهة قتالية تزهق فيها النفوس وتسفك الدماء حينما يكون هذا هو الحل الأمثل لمواجهة العدوان أو دفعه.

وكانت أول مواجهة قتالية للنبي مع جيش الأعداء في معركة بدر، وكان سببها أن المسلمين خرجوا يعترضون قافلة تجارية لقريش ليُصادروا أموالها، وكانت بدر ممراً للقوافل التجارية المتجهة إلى الشام، ولم يتعرض المسلمون لأيٍّ من قوافل القبائل العابرة، وإنما قصدوا قافلة قريش، جزاءً لمصادرة قريش أموال المسلمين المهاجرين في مكة، ولا استمرارها في عداوتها وعدوانها على المسلمين.

وكان عدد المسلمين قرابة (٣٠٠) وعدد المشركين (٩٠٠)، ومع ذلك انتصر المسلمون وقُتل (٧٠) من كبار زعماء المشركين، وأُسر (٧٠)، وسُميت هذه المعركة يوم الفرقان، وتغيرت نظرة القبائل لدولة المدينة وصار لها هيبتها واحترامها بين القبائل، وانكسر طغيان قريش وتحطم غرورها.

ثم بعد سنة جاءت قريش بجيش عظيم إلى المدينة تريد الثأر لما أصابها في بدر ودارت المعركة قرب المدينة عند جبل أحد، وكان عددُ المشركين ثلاثة آلاف، وعددُ المسلمين سبعمئة، وانتصر المسلمون في الجولة الأولى وانهزم المشركون بعد أن قُتل منهم أكثر من عشرين مقاتلاً، ثم التف فرسان المشركين من وراء الجبل وجأوا المسلمين من خلفهم، وتغير سير المعركة واستشهد من المسلمين سبعون شهيداً منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وشوّه المشركون جثث شهداء المسلمين إمعاناً في التشقي والانتقام، وانسحب النبي ومن معه إلى عمق الجبل ليحموا ظهورهم، أما المشركون فعندما شعروا أنهم حققوا انتصارهم انسحبوا سريعاً ليحافظوا على هذا الانتصار خوفاً أن تتغير موازين المعركة.

وعاد المسلمون إلى قتلهم فواروهم في قبورهم، وتحملوا هذه المصيبة بصبر وإيمان وثبات، واستأنفوا حياتهم بعزيمة وقوة.

وبرغم فجيعة المسلمين بمن قُتل منهم وشدة حنقهم على المشركين لتشويهم جثث القتلى فقد نزل القرآن يخاطب النبي ﷺ والمؤمنين معه فيقول لهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ [آل عمران: ١٢٨، ١٢٩]. إن هذه الآيات تخاطب المسلمين وهم في ذروة فجيعتهم وحنقهم لتقول لهم: إن مصائر هؤلاء المعتدين إلى الله، وليست إليكم، وإنه إن شاء تاب عليهم وغفر لهم والله غفور رحيم فهل يستطيع مصابٌ حائِقٌ أن يقول هذا الكلام، وهل تطيق النفس البشرية السيطرة على مشاعرها وهي في ذروة الانفعال، وهذا من دلائل النبوة، وأن هذا النبي ﷺ لا يختار ما ينزل عليه من القرآن، وإنما يبلغه كما بلغه، ثم تحقق ما بشرت به الآيات وهو توبة الله على أكثر هؤلاء المشركين، فأسلموا، وعلى رأسهم قادتهم الثلاثة أبو سفيان وعكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد، وصاروا بعد من المجاهدين في سبيل الله.

ثم جاءت قريش في السنة الخامسة من الهجرة ومعها حلفاؤها من قبائل المشركين بجيش جرّار، وكان الذي سعى في تكوين هذا التحالف وجمع القبائل حُيَي بن أخطب زعيم يهود بني النضير ثم يهود خيبر، وكان هدف الجيش هذه المرة استئصال النبي ﷺ والمسلمين واجتياح المدينة والقضاء عليهم، وقد استشار النبي الصحابة في طريقة المواجهة

فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق في شمال المدينة، لأنها المنطقة المفتوحة التي يمكن أن يدخل منها الأعداء، وطولها قرابة (٢ كم)، أما بقية جهات المدينة فهي محصنة بمرتفعات صخرية وعرة لا يمكن النفوذ منها، تُحيط بالمدينة كحذوة الحصان، وقد استحسّن النبي ﷺ الفكرة واجتهد هو وأصحابه في حفر الخندق قبل وصول الجيوش، فلما وصلت الجيوش وجدوا أمامهم خندقاً عميقاً، ووجدوا وراءه حاجزاً ترابياً مرتفعاً هو ما أخرج من تراب الخندق عند حفره.

وكان قائد هذا التحالف كله هو أبو سفيان، فلما وقف عاجزاً أمام الخندق قال بمرارة: هذه حيلة ما كيدت بمثلها العرب، وقد عسكرت هذه الجيوش وحاصرت المدينة قرابة الشهر وحاولت النفوذ من أطراف الخندق فصدها المقاتلون المسلمون، واستمر الحصار قرابة شهر، وعانى المسلمون خلاله أشد الشدة، وزاد من معاناتهم غدر يهود بني قُرَيْظَةَ جنوب المدينة والذين بدلاً من أن ينصروا النبي ﷺ والمسلمين ويشاركوا معهم في الدفاع عن المدينة حسب الاتفاقية التي كتبها النبي ﷺ معهم إذا بهم ينقضون هذه الاتفاقية ويتحالفون مع الجيش المهاجم، ويشاركون العدو في العدوان بدل أن يشاركوا المسلمين في الدفاع، حينها بلغت المعاناة ذروتها حتى كأنها من شدائد يوم القيامة وقد وصفها الله فقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. وصار الخطر يحيط بالمسلمين فأمامهم المشركون، وخلفهم اليهود الغادرون.

وكان الوقت شتاءً، والبردُ شديداً، والريح عاصفة اقتلعت خيام الجيش وأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، فأجهد الجيش المحاصِرُ أكثرَ من المسلمين المحاصَرين، وقد طال عليهم زمن الحصار ونفدت أطعمتهم، ولذا أعلن قائد الجيوش المتحالفة أبو سفيان انسحابه من الميدان، ورأى أنه لا جدوى من استمرار الحصار بسبب صمود المسلمين في المدينة وقوة تحصينهم وإجهد الجيش الذي جاء معه.

وأصبح المسلمون فإذا الميدان قد صار فضاءً، والجيوش قد تفرقت وانتهت بذلك أشد شدةٍ وأعظم معاناة مر بها المسلمون، ووصف الله ذلك في القرآن: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وتحطمت كل آمال قريش في تجديد المواجهة فهي لن تستطيع أن تجمع مثل هذا الجمع الهائل مرة أخرى.

وبعد هذه المواجهة بسنة جرى صلح الحديبية وإعلان الهدنة مع قريش، ثم نقضت قريشُ اتفاقية الهدنة هذه فتوجه النبي ﷺ بجيشٍ كثيف قوامه عشرة آلاف بعدد جيش الأحزاب فدخل مكة فاتحاً ليتحقق وعد الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢].

أما قبائل اليهود في المدينة فمع أن النبي ﷺ عند قدومه المدينة قد كتب بينهم وثيقة هي أشبه باتفاقية المواطنة الكاملة والدفاع المشترك، إلا أنهم لم يلتزموا بها وبقوا ينتظرون الفرصة المواتية لنقض العهد

وإعلان المواجهة، فأما يهود بنو قنيقاع فإنهم اغتazonوا من انتصار النبي ﷺ في معركة بدر، ورأوا أن هذه بداية قوة نامية، فأعلنوا المواجهة وقالوا للنبي ﷺ: لا يغرنك أنك قتلت قوماً من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا^(١). وكان ذلك منهم إعلان الحرب والمواجهة، ولذا سارع النبي ﷺ إلى مواجهتهم وحاصرهم حتى استسلموا على أن يرحلوا من المدينة، إذ لم يكن من الأمان للمدينة أن يكون بجوارها هذا التجمع الكائد المعادي الذي أظهر العداوة والمواجهة، وكانوا أقرب اليهود لأحياء المدينة.

وأما يهود بني النضير وبني قريظة فإنهم لم يتعجلوا المواجهة وإنما انتظروا الفرصة المناسبة في تقديرهم، حتى إذا رأوا مصيبة المسلمين في أحد وكثرة من قتل منهم رأوا أن هذه هي الفرصة المواتية لنقض العهد، فاتفقوا جميعاً على الغدر ونقض العهد وإعلان المواجهة، فتحرك النبي ﷺ بجيشه سريعاً إلى الطرف الأضعف وهم بنو قريظة، فلما رأوا قوة النبي ﷺ وسرعة تحرك جيشه تراجعوا وطلبوا العفو من النبي ﷺ فعفا عنهم.

ثم توجه إلى بني النضير فحاصرهم، وكانوا أكثر عدداً وأشد تحصيناً، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، وغرهم بعض من لم يصدق إيمانهم من حلفائهم في المدينة، فقد طلبوا منهم الثبات والصمود،

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٢).

ووعدهم بالنصر، فاستمروا في المواجهة، ثم انهارت معنوياتهم، ووقع الرعب في قلوبهم، فاستسلموا على أن يرحلوا من المدينة، ويحملوا معهم أمتعتهم وأموالهم، فرحلوا إلى خير^(١).

أما بنو قريظة فقد بقوا بعد عفو النبي ﷺ عن غدرتهم تلك على أمانهم في مساكنهم ومزارعهم، فلما كانت غزوة الأحزاب ورأوا كثرة من جاء لحرب الرسول ظنوا أن هذه فرصتهم المواتية، فأعلنوا نقض العهد والغدر بالنبي ﷺ، وانضموا إلى جيش الأحزاب من المشركين ضد المسلمين، فكان ذلك من أسباب اشتداد الكرب على المؤمنين، لأن بني قريظة كانوا في أعلى المدينة جنوباً، وجيش الأعداء من الأحزاب في أسفل المدينة شمالاً، ولكن النبي والمؤمنين معه صبروا وثبتوا، فلما انسحبت جيوش الأحزاب سار النبي ﷺ والمؤمنون إلى بني قريظة وحاصروهم، حتى استسلموا، فقتل قاداتهم والمقاتلون منهم، وما كانوا جديرين بتكرار العفو وقد كرّروا الغدر، وقد استنفدوا رصيدهم من عفو النبي ﷺ وإحسانه، وصاروا مستحقين لما نالهم من عقوبة جزاء ما صدر منهم من إجرام، وهذه عاقبة من ألف الغدر وكرّر الخيانة^(٢).

وبقي في المدينة من اليهود الأفراد المسالمون والذين بقوا على حلفهم مع قبائل الأنصار آمنين، مندمجين في المجتمع المدني، ومشاركين فيه.

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٤٠ - ٢٤١).

أخلاق النبي ﷺ في الحروب

وعندما ننظر إلى مراحل الجهاد وأحوال القتال نجد أن النبي ﷺ كان يراعي أخلاقاً وقيماً في حربه كما كان يراعيها في حال الأمن والسلام. وقد كان للنبي ﷺ في مواجهاته القتالية هديه وهداه، ومن ذلك:

أولاً: أن القتال ليس مشروعاً مفتوحاً، ولا مطلباً مرغوباً لذاته، ولكنه وسيلة لغاية، تسلك عند الاضطرار إليها، وتتقى عند العافية منها، ولذا قال ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»^(١).

وعند النظر في أسباب القتال في حياة النبي ﷺ نجدها محصورة في أمرين:

١- دفع العدوان الواقع أو المتوقع، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٦٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).

وهذه آية محكمة حصرت القتال بالذين يُقاتِلون، وجعلت ما سواه عدواناً، فقاتل النبي ﷺ مَنْ قاتلوه، أو هددوه بقتال واستعدوا له.

٢- قتال كل من يحول بين الناس واتباع الدين الحق الذي يعتقدونه، ويحول بين الناس وحرية اختيارهم الديني. ويعرضهم للفتنة إن اتبعوا الحق، وهو بهذا معتدٍ يكف عدوانه ولو بالقتال، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وأما من كف فلم يعتد ولم يفتن مؤمناً في دينه ولم يحل بين أحد والحق الذي يختاره فليس محلاً للقتال، والتعدي عليه عدوان وتجاوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وبذلك وحد النبي ﷺ هدف القتال وأعلى غايته، فليس القتال للمطامع والغنائم، ولا للاستعلاء في الأرض، ولكن له هدف سام وغاية شريفة، وهي كف العدوان، ونصرة المظلومين المستضعفين.

فكل قتال من أجل المغانم أو شهوة التسلط أو الاستيلاء على حقوق الآخرين فهو عدوان في سبيل الطمع والتسلط.

ويا لله كم من الحروب والمعارك أزهقت فيها ملايين الأرواح ودمرت بلاد وهدمت مدن لشهوات عدوانية لفرد متجبر، فكم أزهقت من الأرواح في حروب الإسكندر المقدوني! وما غايتها؟ وفي حروب جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك! وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية! وما غاياتها؟ وما فعله الغزاة المحتلون من إبادات جماعية في إفريقيا والأمريكتين وأستراليا حين اكتشفها، وكل ذلك لنهب الثروات واحتلال البلاد، واستعباد البشر واستغلالهم.

ثانياً: كانت الحروب تقوم على التشفي والانتقام والإبادة، وقتل من يمكن قتله، والتوحش في القتل، والتمثيل بالقتلى، والتنكيل بالأسرى، ولم يكن ثم ضوابط للاقتتال، ولا أخلاق للحروب.

فلما جاء النبي الكريم جعل لحروبه قيماً وضوابط وأخلاقاً التزمها وألزم المسلمين بها ومن ذلك:

- نهيه عن قتل النساء والصبيان والمدنيين والرهبان ورجال الدين في كنائسهم وصوامعهم ومن ليس من المقاتلين.

ومن ذلك: أن النبي ﷺ رأى وهو متوجه لفتح مكة امرأة مقتولة فأذكر ذلك وقال: «مَا كَأَنْتَ هَذِهِ لِتُقَاتِلُ». ثم أرسل إلى مقدمة الجيش فنهى عن قتل النساء والصبيان وقال: «لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا»^(١). أي أجيراً، وهو المدني المستخدم، وبهذا وضع قاعدة في الحروب ألا يقتل إلا المقاتل.

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٨٤٢).

وكان إذا أَمَرَ رجلاً على جيش أوصاه فقال: «اغزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُثْمَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً»^(١)، وجمعها أبو بكر فيما روي عنه: لَا تَقْتُلُوا صَبِيّاً وَلَا امْرَأَةً وَلَا شَيْخاً كَبِيراً، وَلَا مَرِيضاً، وَلَا رَاهِباً، وَلَا تَقْطَعُوا ثَمَرًا، وَلَا تُخْرِبُوا عَامِراً، وَلَا تَذْبَحُوا بَعِيراً وَلَا بَقَرَةً إِلَّا لِمَأْكَلٍ، وَلَا تُغْرِقُوا نَحْلاً وَلَا تُحْرِقُوهُ»^(٢).

وروي عنه ﷺ من حديث أنس أنه قال: «انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخاً قَانِيّاً، وَلَا طِفْلاً وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»^(٣). وعمل المسلمين في فتوحاتهم جار على ذلك.

لقد أتى النبي ﷺ بهذه التعاليم والعالم كله لا يعترف بها ولا يطبقها، ومع ذلك ألزم النبي ﷺ المسلمين بها وإن تنكر العالم كله لها.

- والتزم ﷺ الوفاء بالعهود مع أعدائه وحث على الوفاء بها، ومن ذلك خبر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فقد قال: ما منعني أن أشهدا بدرًا إلا أنني خرجت مع أبي، فَأَخَذْتَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ إِنَّمَا نُرِيدُ الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا عَلَيْنَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ، لَتَصِيرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَّا جَاوَزْنَاهُمْ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَّرْنَا لَهُ مَا قَالُوا وَمَا قُلْنَا لَهُمْ، وَقُلْنَا فَمَا تَرَى؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «نَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَنَفِي بَعْدَهُمْ»^(٤).

(١) «مسند أحمد» (١٨٠٩٧).

(٢) «الموطأ» (٩١٨).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٦١٤).

(٤) «المستدرک» (٤٩٠٨).

فأمر حذيفة وأباه بالوفاء للمشركين بما عاهدوهم عليه، مع قلة المسلمين في بدر وحاجتهم لكل إمداد، ولكن كان تأكيد الوفاء بالعهد وتحريم الغدر أولويةً يلتزم بها النبي ﷺ ولا يتجاوزها ولا يُعرف بنقضها.

وعن أبي رافع قال: بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَا أَحِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحِيسُ الْبُرْدَ»^(١)، وَلَكِنْ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ فَارْجِعْ»^(٢).

وعندما شرع النبي ﷺ هذه الشرائع في القتال لم يكن يراعي رأياً عاماً عالمياً، أو هيئات أممية، أو موثيق دولية، ولكنه كان يعلن ويطبق شرعاً إلهياً هادياً يعيد البشرية إلى رشدتها.

ثالثاً: كان في قيادته العسكرية جامعاً لصفات القائد وأخلاقه ومواهبه، فكانت علاقة الجيش به هي المحبة الصادقة، والإيمان الموقن، وكان يشرك الجيش في قراراته ويأخذ الشورى من أهلها، ثم يتبعها بالعزيمة في القرار المحكم، مع أخذ الحيطة والحذر، وبث العيون واستباق خطة العدو، ومفاجأته بما لم يستعد له، وغير ذلك من مهارات الرسول القائد ﷺ.

(١) البرد: جمع بريد وهو الرسول. ينظر: «النهاية» (١/ ١١٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٧٥٨).

رابعاً: وكان ﷺ في معاركه مثال الشجاعة والثبات ورباطة الجأش وذلك حين تحتدم المعركة ويشتد القتال.

وفي معركة حنين لما انهزم أصحابه حوله اقتحم على بغلته وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ». حتى تراجع أصحابه إليه^(١).

ولذا لما قيل للبراء: أَكُنْتُمْ فَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَفِرَّ^(٢).

وكان أشجع الصحابة في القتال هو الذي يكون قريباً من النبي ﷺ^(٣).
خامساً: ومع شدة العداوات وكثرة الغزوات فإن النبي ﷺ لم يدخل في معركة قتالية من معاركه إلا في ثمان معارك.
وعدد القتلى في كل معاركه من المسلمين وأعدائهم لم يتجاوز (١٠٠٠) قتيل تقريباً.

وهذا يبين لنا أن النبي ﷺ لم يكن بالمتعطش للدماء ولا المتلذذ بالقتل، ولكن يقاتل وكأنه يعالج بمبضع جراح، فلا يتوجه إلى قتال إلا حيث يكون هو الخيار الوحيد، ولا يقتل إلا حيث يُستحقُّ القتل وتسد طرق الإصلاح.

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٣) ينظر: فصل «الرسول ﷺ والشجاعة» من كتاب «الحياة النبوية» للمؤلف.

ولذا فإن أكثر الذين انتصر عليهم عفا عنهم، وأكثر الذين قاتلوه قاتلوا بعد ذلك معه وعنه.

سادساً: ليس في شيء من معاركه أو حروبه إكراه أحد على الدخول في الإسلام، بل إن الإسلام دين لا يصح ولا يقبل بالإكراه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ سَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. فلا يصح الإسلام بالإكراه، ولا يقع الكفر بالإكراه.

بل إن النبي ﷺ لما علم أن قبيلة غطفان تستعد للهجوم على المدينة سار إليهم مُسرعا بجيشه، فلما فاجأهم وصول جيش النبي ﷺ تراجعوا وتواجه الجيشان، ولم يقع قتال، وانسحب النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن تحقق غرضه بإرهابهم وإظهار الاستعداد لهم، ولكن أحد رجالهم الشجعان الفاتكين واسمه عَوْرَثُ بن الحارث لم يقتنع بذلك، وعزم على اتباع جيش المسلمين حتى يجد فرصة يغتال فيها النبي ﷺ، فجعل يتبع الجيش فوجد أن الفرصة حين يشتد الحر، فينزل الجيش، ويتفرقون تحت الشجر، حينها سيجد النبي ﷺ وحده، وهكذا كان، فقد انتظر حتى نزل الجيش في الظهيرة، وتفرقوا تحت الشجر، واستظل رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة، وعلق سيفه عليها، فتسلل إليه عَوْرَثُ بن الحارث واختلط السيف على النبي ﷺ مهدداً يقول له: مَنْ يمنعك مني يا محمد؟ فنظر إليه النبي ﷺ بوثوق وقال بصرامة: «الله».

فكانت نظرات النبي ﷺ الواثقة كافية في خوفه وارتجاف يده حتى سقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال له: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟». فلم يجد ما يحتمي به إلا مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقال: يا محمد، كن خير آخذ. فقال له النبي ﷺ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟». فقال: لا، ولكنني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فقبل النبي ﷺ منه ذلك، وخلّى سبيله، فرجع إلى قومه، وقال لهم: جئكم من عند خير الناس^(١).

وهكذا كان الدخول في الإسلام خيار الناس الذي يختارونه، وقرارهم الذي يقررونه، من غير إرهاب ولا إكراه^(٢).

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٧٥).

(٢) «الحياة النبوية» للمؤلف (٢/ ١١٢).

صلح الحديبية

في السنة السادسة خرج الرسول ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، إلى مكة لزيارة الكعبة ولأداء العمرة، فقد أراه الله في منامه أنه وأصحابه يدخلون المسجد الحرام ويَتَمَوَّنَ عمرتهم، فساروا مع النبي ﷺ بغاية الشوق لرؤية مكة وأداء العمرة، وكانوا (١٤٠٠)، ومعهم عتادهم وسلاحهم خوفاً من عدوان قريش عليهم.

وعندما علمت قريش بمسيرهم، خرجوا خارج مكة وعسكروا في طريقهم في مكان يسمى بلدح ليمنعوهم من دخول مكة، فلما وصل النبي ﷺ قريباً منهم نزل مقابلهم في مكان يسمى الحديبية.

وبذل الرسول ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو حق للمسلمين كما هو حق لغيرهم، وحرص على الصلح معهم وتجنب القتال، وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا»^(١).

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعاً في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية.

ثم جاء سهيل بن عمرو رسولاً من قبل قريش، فقال النبي متفائلاً: «لَقَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»^(١). وقال: «قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصُّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ»^(٢). وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا نتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة^(٣) أبداً. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على علي بن أبي طالب كاتب الصحيفة، وعندما قال ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به؛ اعترض قائلاً: لا نتحدث العرب أنا أخذنا قهراً، ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك فتقيم فيها ثلاثاً، فوافق الرسول ﷺ على هذا الشرط. ثم قال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو وكان شاباً مسلماً قد حبسه أبوه في مكة، فجاءهم يرسف في قيوده، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين،

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٢) «مسند أحمد» (١٨٩١٠).

(٣) عنوة أي: بالقوة والإكراه.

فقام إليه أبوه وقال: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». فقال سهيل: والله إذا لا أصالحك على شيء أبداً.

وألح الرسول ﷺ على سهيل أن يستثني ابنه أبا جندل، فرفض، ولم يجد الرسول ﷺ بُدّاً من إمضاء ذلك لسهيل^(١)، ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط وهي:

وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، فيكونوا حلفاء له، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه فيكونوا حلفاء لهم.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

وقد تبرم كثير من الصحابة من معظم هذه الشروط، وبخاصة رجوعهم عن مكة وقد وقفوا على مشارفها، وعدم إتمامهم عمرتهم التي استعدّوا لها، وتشوقوا إليها، وكذلك شرط رد المسلمين الفارين من قريش إلى المشركين فقالوا: يا رسول الله، نكتب هذا؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فَرْجاً وَمَخْرَجاً»^(٢).

(١) «مسند أحمد» (١٨٩١٠)، و«صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٨٢٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٤).

وعندما تمّ الصلح وتوجه المسلمون إلى المدينة كانوا في غاية الحسرة والألم، وشدة الحنق على قريش لصدها إياهم عن البيت.

ومن عجب أن ينزل الله بعد ذلك قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ [المتحنة: ٧]. فهل يمكن لإنسان حانق يواجهه عدوه بالصد والمكابرة أن يبشر بقرب المودة؟، إن المشاعر النفسية لا يمكن أن تستجيب لذلك لولا أنه وحي الله وعلمه المحيط، والذي كشف للنبي ﷺ ستور الغيب، فأخبره بأنّما يستبعد وقوعه سيقع، وما أسرع ما تحقق ذلك، فقد أسلم أهل مكة بعد ذلك كلهم، وصارت المودة بينهم وبين المسلمين وثيقة ليتحقق وعد الله كما وعد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

وبهذا الصلح حل السلام بدل الحرب، والأمن بدل الخوف، وصار المسلمون والمشركون يلتقون ويتحدثون، وتعرّف بعضهم على بعض، وعرف كثير من المشركين عن النبي ﷺ وعن الإسلام ما لم يكونوا يعرفونه، فتغيرت قناعاتهم ودخلوا في الإسلام طوعاً واختياراً، حتى دخل في هذه المدة عدد من رجالات مكة الإسلام، وهاجروا إلى رسول الله ﷺ، منهم قائد قريش العسكري خالد بن الوليد، وقائدهم السياسي عمرو بن العاص، وعرفت قريش الإسلام على حقيقته، وليس على الصورة المشوّهة التي رسمها كبرائهم، ولذا قال عمرو بن العاص لما سُئِلَ: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟ قال:

إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي ﷺ فإذا الأمر بين، فوقع في قلبي الإسلام^(١).

وأُتِيح للمسلمين مضاعفة جهودهم لنشر الإسلام وفي ذلك قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، فلما كانت الهدنة وَوَضَعَتِ الحرب، أَمِنَ الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يُكَلِّمْ أَحَدٌ بالإسلام يَعْقِلُ إِلَّا دخل فيه، ولقد دخل في دينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر^(٢).

(١) «نسب قريش» لمصعب الزبيري (٤١٠)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٢٨ / ٤٦).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٣٢٢ / ٢).

مراسلة الملوك

أتاحت الفرصة للرسول ﷺ بعد صلح الحديبية لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، لأن الإسلام رسالة عالمية غير محدودة المكان، كما جاء التصريح بذلك في الآيات القرآنية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فلما رجع الرسول ﷺ من الحديبية أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم رسائل يُبين لهم فيها دعوته ورسالته، فخرج ستة نفر في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وممن راسلهم النبي كسرى عظيم الفرس، والمقوقس عظيم القبط في مصر، وهرقل قيصر الروم، ومن أشهر هذه الرسائل رسالته إلى هرقل قيصر الروم.

وعندما وصلت رسالة النبي ﷺ إلى قيصر أرسل يبحث عمن لهم معرفة بالنبي ﷺ، وفُضِّل أن يكونوا من قومه وعشيرته،

فعلم بوجود جماعة منهم تجاراً قدموا من مكة فيهم أبو سفيان، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان، وقد قصَّ أبو سفيان خبر هذا اللقاء وكان حينها مشركاً عدواً للنبي ﷺ، فقال: إن هرقل سألهم فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟، فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً.

فَقَالَ قَيْصَرٌ: مَا قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ ابْنُ عَمِّي فَقَالَ قَيْصَرٌ: أَذْنُوهُ وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجَعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا الرَّجُلَ عَنِ الَّذِي يُزْعَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنْ كَذَبَ فَكَذَّبُوهُ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَاللَّهِ لَوْ لَا الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ لَكَذَّبْتُهُ حِينَ سَأَلْتَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَّقْتُهُ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فَيَكُمُ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، فَقَالَ: كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: فَيَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟ قُلْتُ: كَانَتْ دُولًا وَسَجَالًا، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةُ وَتُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ

حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ، قُلْ لَهُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيمُكُم، فَرَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ يَأْتُمُّ بِقَوْلٍ قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشَرَفُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ ضَعَفَاءَهُمْ أَتَّبِعُونَهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ فَرَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا يَغْدِرُونَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ؟ فَرَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبُهُ تَكُونُ دَوْلًا وَيُدَالُ عَلَيْكُمْ الْمَرَّةَ وَتَدَالُونَ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَرَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبَيْنَاهُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتُ حَقًّا فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَقُرِئَ فَإِذَا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرْقَلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْتَ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمْتَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ وَ: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»^(١).

تؤكد هذه الرسائل على أن الإسلام دين عالمي لذا كان واجب الرسول ﷺ إبلاغ الدعوة إلى كل من يعرف من الناس وبكل الوسائل المتاحة في ذلك الزمان.

وأن رفض بعض الحكام لدعوة الإسلام نابع من حُبهم لسلطتهم وتكبرهم وتجبرهم وليس لعدم قناعتهم بالإسلام^(٢).

أما الذين استجابوا لدعوته من زعماء القبائل وملوك الدول فقد أبقاهم على زعامتهم وملكهم وكل ما في أيديهم، فلم يكن يهدف إلى سلطة أو تملك، وإنما كان رسول هداية للحق واستنقاذ البشرية من الضلال والجهل، وتعبيد الناس لربهم وحده وتخليصهم من عبودية الأوثان وضلال الجاهلية.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٠).

(٢) «السيرة النبوية» محمد مهدي رزق الله (٥٢٤).

إن هذا الرسول الذي يكتب لملوك الأرض بوثوق ووضوح طالباً منهم أن يعبدوا الله وحده، وأن لا يستعبدوا الناس أو يضلّوهم، وأن ينبذوا غرورهم الباطل هو الذي يُصغي بحفاوة ورضاً لأعرابي رثّ الهيئة أشعث الشعر يقول له: يا محمد، إني سائلك فمشددّ عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك، فيقول له بكل ترحاب: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ»^(١).

(١) «إنسانيات محمد» خالد محمد خالد.

فتح مكة

كان من ضمن شروط صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيكون حليفاً له، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيكون حليفاً لهم، فدخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، وكان بين القبيلتين عداوات سابقة، فمكثوا في تلك الهدنة نحو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر اعتدوا على قبيلة خزاعة حلفاء النبي ليلاً بمكان قريب من مكة، وقالت قريش ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوهم على خزاعة بالخيال والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم واحد منهم وهو عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة يستنصر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ»^(١).

وكان الذين أعانوا بني بكر على خزاعة من أشراف قريش: صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو، وكان هذا التصرف من قريش نقضاً للمعاهدة السابقة، وإبطالاً لها.

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٨٥٩).

ولذا أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالاستعداد والجهاز، ولم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار والقبائل المحيطة بالمدينة حتى بلغ جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل.

وسارت جيوش المسلمين إلى مكة وفي الطريق التقى بهم العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة فسار معهم إلى مكة، ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشاً بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمراً حين أعانوا بني بكر على خزاعة، فأرسلوا أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليتحسسوا الأخبار عن الرسول ﷺ، فالتقى بهم العباس راكباً بغلة الرسول ﷺ وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم أن يخرجوا لمصالحة الرسول ﷺ، قبل أن يصل إليهم، فأخذ العباس أبا سفيان وأدخله على الرسول ﷺ، فأخذ يدعوهم إلى الإسلام شطراً كبيراً من تلك الليلة، فتردد ولم يقبل، فطلب الرسول ﷺ من العباس أن يأخذه معه إلى خيمته، ويأتي به في صباح اليوم التالي.

وفي الصباح قبل أبو سفيان الإسلام بعد تردد، وطلب العباس من الرسول ﷺ أن يجعل لأبي سفيان شيئاً يفتخر به ومزية يُظهر بها مكانته، لأنه يحب الفخر، فجعل له ذلك، وقال في إعلانه لأهل مكة: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهذه ميزة لم يشاركه فيها أحد غيره، تظهر شرفه واختصاصه، ولعل العجب يأخذك وأنت ترى أن هذا الذي يرفق به النبي ﷺ هذا الرفق ويتألفه هذا التألف هو الذي قاد جيوش المشركين لحرب النبي ﷺ في معركة أحد ومعركة الأحزاب، ولكن النبي الكريم جعل همه الهداية وليس الانتقام، والعفو وليس التشفي.

وعندما رأى أبو سفيان كثرة جيش المسلمين وقوة استعدادهم أسرع إلى قومه وصرخ فيهم محذراً لهم بأن لا قبل لهم بجيش محمد، وقال لهم ما قاله الرسول ﷺ: مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ.

ودخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً خاشعاً شاكراً متواضعاً لله يقرأ سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

ثم دخل ﷺ المسجد الحرام وطاف بالكعبة وألقى ما حولها من الأصنام وهو يقرأ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. و﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. وكان عددها ستين وثلاثمئة صنم.

وعندما طهرت الكعبة من الأصنام والصور دخلها ﷺ وصلى بها ركعتين.

ثم وقف النبي ﷺ على باب الكعبة وقد اجتمع حوله أهل مكة الذين دخلوا الحرم، فقال لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟». فقالوا: خَيْرًا أَخُ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. فقال: «لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ»^(١). وبذلك أعلن العفو العام عن أهل مكة جميعاً، وطويت عداوة استمرت عشرين سنة، وزالت عن عيون أهل مكة غشاوة الضلال، فقد رأوا الأصنام التي كانوا يعبدونها ويقاثلون عنها

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٢٧٥ - ١٨٢٧٦).

وهي محطمة حول الكعبة لم تدفع عن نفسها ولم تدفع عنهم، ورأوا أنهم رغم مقاومتهم للنبي ﷺ ودينه فإن دينه يزداد انتشاراً وظهوراً، فاتّضح لهم الحق وظهر، وبطل الباطل وزهق، فتدافعوا إلى رسول الله يعلنون إيمانهم به واتباعهم لدينه، وبسط يده لهم ومدّوا أيديهم إليه يبايعونه على الإسلام.

ورأى الأنصار إقبال أهل مكة على النبي ﷺ ورأوا حفاوته وترحيبه بهم فقال بعضهم لبعض: لعله أدركته رافة بعشيرته وحب لبلدته، وربما بقي عندهم ولم يرجع معنا، وأشفقوا أن يكون هذا موعد الفراق لرسول الله ﷺ، فقد هاجر عن مكة حين كان أهلها كفاراً، وأما اليوم فقد أسلموا جميعاً، وربما استمالوا النبي ﷺ لبقى عندهم، وأشفق الأنصار من ذلك وأحسوا لوعة الفقد.

ونزل الوحي على النبي ﷺ يخبره بما يقولونه وما يخشونه، فدعاهم إليه وسألهم عما قالوه فأخبروه الصدق والحقيقة فقال لهم: «كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ». فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلناه إلا حرصاً ومحبة لله ورسوله، فقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانَكُمْ، وَيَعْدِرَانَكُمْ»^(١). فرجعوا بغاية السرور والطمأنينة والفرح بنعمة الله عليهم، ووفاء رسوله لهم.

(١) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).

وكان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم، لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين النبي وقومه قريش. كما قال عمرو بن سلمة الجرمي: كانت العرب تَلَوُّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وَقَوْمُهُ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم^(١). وكانت هذه النظرة لقريش لأنها كانت زعيمة العرب وحامية البيت وناصبة الحرب لرسول ﷺ، فلما افتتحت مكة ودانت قريش لرسول الله ﷺ، عرفت العرب أنه لا حاجة لهم بحرب رسول الله وعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجاً، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

ومع أن أكثر أهل مكة كان لهم سابق عداوة للنبي ﷺ ولأبائهم، وجرت منهم حروب للنبي ﷺ وإيذاء له ولكنه بمجرد العفو عنهم تجاوز النبي ﷺ ذلك كله، ولم يذكر لأحد منهم شيئاً مما سبق، ولم يذكره به، بل اجتهد في استلال ما في قلوبهم من العداوة والبغضاء، وذلك بإكرامهم وإعطائهم، فأعطى زعمائهم المئات من الإبل يتألفهم ويستطيب قلوبهم، فازدادوا إيماناً به وحباً له.

وتعمق الإيمان في قلوبهم فإذا هم جنود لهذا الدين ودعاة له، يجاهدون في سبيله ويستشهدون دفاعاً عنه^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٠٢).

(٢) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٩)، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي (٥٤٥٠)،

و«السيرة الحلبية» لابن برهان الدين الحلبي (٣/ ١٠٢، ١٥١)، و«السيرة النبوية في

ضوء المصادر الأصلية» لمحمد مهدي رزق الله (٥٣٧).

عام الوفود

عندما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وأمنت قريش كلها واتبعت دينه، قدمت إليه وفود العرب من كل وجه تبايعه على الإسلام وفداً إثر وفد، حتى إن سنة تسمى سنة الوفود، وكان لكل وفد قصته، ولكل منهم نصيبه من حفاوة النبي ﷺ وإكرامه.

ومن قصص الوفود وفد بني سعد بن بكر والذين أرسلوا رجلاً من عقلائهم اسمه ضمام بن ثعلبة إلى رسول الله ﷺ، فلما وصل المدينة النبوية، أناخ بعيره على باب المسجد، ثم دخل، فأقبل حتى وقف على الصحابة وهم جلوس، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، فلم يعرفه من بينهم، فلما دنا إليهم سأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ وكان رسول الله ﷺ بينهم كأحدهم، ليس له شارة تميّزه، ولا حال تُشهره، فلم يجدوا ما يدلونه به على رسول الله ﷺ إلا وضاءته وبهائه، فقالوا: هو ذاك الأبيض المتكئ. فتوجه إليه، وناداه كما ينادي غيره: يا ابن عبد المطلب. فقال ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ». قال: محمد؟ قال: «نَعَمْ». ومع ما في هذا النداء من جفاء، إلّا أنه أتبعه بنداء أشد منه

قائلاً: «إني سائلك، فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فأجابه خير معلّم للناس الخير قائلاً: «لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي، سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ». فلم يكن في دينه ولا تعليمه مناطق محظورة، ولا زوايا معتمة، ولكنه الوضوح والنصاعة.

فسأل وكانت أسئلة تدل على صفاء العقل ومنهجية التفكير، فكان أول ما سأل أن قال: مَنْ خلق السماء؟ فأجابه رسول الله ﷺ: «الله». قال: فمَنْ خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمَنْ نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فإني أسألك بالذي خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل، إلهك وإله مَنْ كان قبلك، وإله مَنْ هو كائن بعدك: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: الله أمرك أن نعبد وحده، وأن نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس في يومنا وليلتنا؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ»، قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: الله أمرك أن نصوم شهر رمضان في سبتنا؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قال: فإني أسألك بالذي أرسلك: الله أمرك أن نحج البيت مَنْ استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، وأما هذه الفواحش

فو الله إن كنا لتنتزّه عنها في الجاهلية -أي أننا كنا نتجنب كثيراً من الفواحش في الجاهلية- فنحن في الإسلام أكثر تنزّهاً عنها.

ثم انصرف إلى بعيده، فحلّ عقاله، وركبه راجعاً إلى قومه، فلم يكن له في المدينة حاجة بعد ذلك.

فلما ولي قال النبي ﷺ: «فَقَّهَ الرَّجُلُ، لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»^(١).

وعجب فقهاء الصحابة من فقه هذا الأعرابي، حتى قال عمر: ما رأيت أحداً أحسن مسألة، ولا أوجز من ضمام^(٢).

أما هو فلما وصل إلى قومه اجتمعوا إليه، فكان أول ما صنع أن حطّم عظمة أوثانهم الموهومة، فنادى قائلاً: بُسَّتِ اللات والعزى. فعجب قومه من هذه الجرأة على أوثانهم التي كانوا يعبدون!! فخوفوه ما كانوا يخافونه من ضرر الآلهة وغضبها، وقالوا: مه يا ضمام، اتق البرص، اتق الجذام.

ولكن ضماماً كان قد تجاوز هذه العقيدة، وصحح تصوره واعتقاده، فقال لهم: ويلكم، إنهما والله ما تضران وما تنفعان، وإن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكُم به مما كنتم فيه، وإنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وأنهاكم عنه.

(١) «مسند أحمد» (٢٣٨٠)، و«صحيح البخاري» (٦٣)، و«سنن أبي داود» (٤٨٦)،

وغيرها.

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٣٢١).

ولم يزل يحاورهم ويقنعهم، حتى ما أمسى من ذلك اليوم في حضرته من رجل أو امرأة إلا مسلماً، وسمع الصحابة بصنيعة ذلك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما سمعنا من وافد قط كان أفضل من ضمام بن ثعلبة^(١).

وتدل قصة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربية حتى جاء ضمام لا ليسأل عنها ولكن جاء ليستوثق منها، معدداً لها الواحدة تلو الأخرى، مما يدل على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرسول ﷺ.

ومن خبر تلك الوفود خبر مالك بن الحويرث قال: أتينا إلى النبي ﷺ ونحن شبيبة متقاربون، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَجِيماً رَفِيقاً، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اسْتَقْنَأْنَا إِلَى أَهْلِنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي»^(٢).

وهنا تلاحظ شعورهم برحمة النبي ﷺ لهم ورفقه بهم، وإحساسه برغائبهم، فهم شباب مشتاقون لزوجاتهم، فراعى ذلك كله، وسألهم عن أهلهم ومن تركوا من قومهم، وفي ذلك مزيد انبساط إليهم واهتمام بهم، ثم أمرهم بالرجوع إلى أهلهم، وحملهم مسؤولية تعليم ما تعلموه منه، وأكد على أهم ذلك وهو الصلاة.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٢)، و«فتح الباري» (٣٢٤/١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

وكان من عادة النبي ﷺ مع هذه الوفود أن يجيزهم بعتية يرجعون بها وهي مبلغ مالي يعوضهم ما خسروه في رحلتهم، ويكون تحفة يرجعون بها إلى أهلهم.

ولذا أوصى عند موته باستمرار هذا العطاء لكل وافد، فقال قبل وفاته ﷺ: «أَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أَجِيزُهُمْ»^(١).

وكانت هذه القبائل ترد عليه من نواحي شتى من بلاد العرب، ففيهم القريب والبعيد، والحضر والبادية، ومن شمال المدينة وجنوبها وشرقها وغربها، ولكل من هذه القبائل طبيعتها وخصوصيتها، ولكنه كان يستوعبهم جميعاً، ويسعهم بكرمه وحسن خلقه، ويكون هذا اللقاء ذكرى خالدة في نفوسهم، كما بقي بكل زخمه المشاعري في نفس مالك بن الحويرث والشباب الذين كانوا معه.

إن من حسن السياسة وأدب الإسلام وأخلاقه احترام ممثلي الشعوب أو القبائل وإكرامهم، ومن ذلك ما كان يفعله الرسول ﷺ مع الوفود من الضيافة وحسن الاستقبال وإجزال العطاء.

إن في أخبار وفود هذه القبائل على الرسول ﷺ لدليلاً واضحاً على مدى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ، وعلى توحد الجزيرة العربية تحت راية واحدة هي راية الإسلام وقيادة الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة. يا لله! ما أقصر عشر سنين من عمر الزمن،

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٣٧).

فقبل عشر سنين كان هذا النبي يتتبع القبائل في مواسم اجتماعها يعرض عليها رسالة الله ويدعوها إلى دينه، فيقابل بالإعراض والإنكار، واليوم تغد إليه القبائل وتقصده في مدينته لتعلن إيمانها واتباع رسالة الله التي بلغها.

وإن في تدفق هذه الوفود على المدينة لتحقيقاً لوعده الله له، فإن الله أنزل في القرآن سورة تخبر بما وقع قبل أن يقع، وتصف هذا المشهد قبل أن يتحقق، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۖ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]. فكان فتح مكة تحقيقاً لوعده تعالى في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وكان عام الوفود تحقيقاً لوعده الله في قوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، فقد جاؤوا إلى النبي ﷺ في المدينة، ودخلوا في دينه أفواجاً أفواجاً كما وعد الله وأخبر.

وتأمل قول الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فالنصر نصر الله والفتح فتحه، فهو الذي نصر رسوله وفتح له، وأقبل بقلوب الناس فصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلونه أفراداً، وصاروا يفتدون إليه بعد أن كان هو يطلبهم ويتتبعهم.

إذن فقد أدى محمد ﷺ المهمة وبلغ الرسالة وتحقق البلاغ للدين ووصلت الرسالة للبشرية، فما الذي على محمد أن يفعله بعد ذلك، بعد أن انتصر هذا الانتصار ونجح هذا النجاح وحقق هذا الإنجاز؟،

فهل يقيم لذلك احتفالاً صახباً، هل يقيم استعراضاً عسكرياً، هل يحتفل بانتصاره كما يحتفل القادة بانتصاراتهم؟ كلا، ليس شيء من ذلك، لقد جاء التوجيه الإلهي في هذه السورة بأن يُكثر من تسبيح الله وتعظيمه واستغفاره، فهو الذي شرفه وأعانه، وحقق له كل ما تحقق، هو الذي نصره فانتصر، وأقبل بقلوب الناس فرآهم يدخلون في دين الله أفواجا، وبذلك تحققت مهمته، وعليه الاستعداد للقاء ربه بكثرة التسبيح والاستغفار.

لم يعيش محمد بعد النصر ليتمتع بالنصر، ولا ليتكبر من الدنيا، ولا ليطلب علواً في الأرض، وإنما عاش بعد الفتح كما عاش قبله، حتى إنه في أواخر عمره طلب طعاماً لبيته من تاجر يهودي، فأبى اليهودي أن يعطيه إلا أن يرهن عنده قيمة الطعام، وكان النبي ﷺ في قمة السلطة وذروة الانتصار، قد انقادت له الجزيرة العربية كلها، ومع ذلك لم يستعمل سلطته في معاملته الخاصة، وإنما دفع درعه لليهودي ليكون رهنًا بقيمة الطعام، ومات والدرع مرهونة عند اليهودي، فماذا نال محمد من دنيا الناس هذه؟

لقد علم النبي ﷺ من هذه السورة وتحقق وعدها أن مهمته على الأرض قد انتهت، وأن عليه أن يتهيأ للقاء الله عز وجل، وأن الرحيل عن هذه الدنيا قد قُرب، وعليه أن يستعد لذلك بكثرة التسبيح والتعظيم لله والخضوع لربه واستغفاره،

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، فقلتُ: يا رسول الله، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمِّي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا» ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ^(١).

لقد أدى محمد ﷺ مهمته وبلغ رسالته، وبقي أن يعود إلى ربه ليجزيه خيراً على جهاده الطويل، والذي تعب فيه كما لم يتعب أحد، فجزاؤه الكريم هناك عند الله، وما عند الله خير وأبقى.

(١) «مسند أحمد» (٢٤٠٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

حَجة الوداع^(١)

الحج إلى بيت الله الحرام في مكة هو الركن الخامس من أركان الإسلام، ويجب في العمر مرة على من استطاع الذهاب إلى الحج، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولم يحج النبي بعد الهجرة إلا حجة واحدة هي حجة الوداع، فلما كانت سنة عشر أعلم الناس أنه سيحج سنته تلك، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يريد أن يحج مع رسول الله ﷺ، ولحقه أناس في الطريق، ووافته وفود في مكة فاجتمع إليه جموع لم تجتمع من قبل، حتى تجاوز عددهم مئة ألف.

وقد حفظ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للأمة تفاصيل أحواله في حجته واستقصوها ورووها، حتى إن من يجمع رواياتهم يتضح له المشهد كاملاً كأنه حج معه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) باختصار من كتاب: «صفة حجة النبي ﷺ»، كأنك معه» للمؤلف.

ولن نقتص في هذا الفصل سياق حجته مفصلة، ولكننا سنقف مع النبي ﷺ في مشاهد من حجته نتروى من معانيها ودلالاتها وعظمة مشاهدتها، فمن ذلك:

أولاً: عظمة عبوديته لله، وتعظيمه له، وتذله بين يديه، فهو أعلم الخلق بالله وأعظمهم له خشية، فقد أحرم وركب راحلته على رحل رث وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وهو يقول: «لَبَّيْكَ حَجَّةً لَا رِبَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً»^(١).

وكان يُلِظُّ بالتلبية ويأمر أصحابه برفع أصواتهم بها: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»^(٢).

وفي عرفة وقف على راحلته في حال من الضراعة والمسكنة لله، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، باسطاً كفيه كاستطعام المسكين، منكسراً لربه عز وجل، خاضعاً خاشعاً متذللاً له، مستغرقاً في مناجاته، كأنما يسارع لحظات هذا اليوم أن تفلت لحظة لا يُلْهَجُ فيها بذكر أو يُلِظُّ فيها بدعاء، حتى إنه عندما اضطربت به راحلته، فسقط خطامها تناوله بيد، وأبقى يده الأخرى مبسوطة يدعو بها.

وكان ﷺ لهجاً بالثناء على الله تهليلاً وتحميداً وتلبية: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥٤٩)، و«صحيح مسلم» (١١٨٤).

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ لَبَّيْكَ»^(١). وكأنا جاشت أشواق الرسول ﷺ، واستشرف قرب الأجل، فسمع عشية ذلك اليوم وهو يزيد في تليته: «لَبَّيْكَ، لَا عَيْشُ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(٢).

وهكذا إذا تأملت مشاهد حجه فإذا هي مشاهد عبودية لله وخضوع له، وضراعة إليه يؤديها ﷺ وهو أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، بغاية الاستغراق في العبودية لله وتعظيمه وحسن مسألته.

ثانياً: سار ﷺ في طريقه معلماً وهادياً، يُعَلِّمُ النَّاسَ مَنَاسِكَهُمْ، وَيَبْصِّرُهُمْ بِأُمُورِ حُجَّتِهِمْ، وَيَجِيبُهُمْ عَلَى أَسْئَلَتِهِمْ.

وكان قريباً من الناس، يصل إليه كلُّ أحد، ويسأله كلُّ أحد، وهو مُقْبِلٌ عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَهُ، كَأَنَّهُ قَدْ تَفَرَّغَ لَهُ، فَقَدْ اعْتَرَضَهُ فِي الطَّرِيقِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَبْعِدْ عَنِ الطَّرِيقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ فَإِنَّ لَهُ حَاجَةً». فدنا الأعرابي منه حتَّى اختلفت أعناق راحلتيهما، ثم أخذ بخطام ناقة النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذُلِّلِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُخْرِجُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «أَهْذِهِ حَاجَتُكَ الَّتِي دَفَعْتُكَ وَأَتَعَبْتُكَ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «لَئِنْ كُنْتُ قَصَّصْتُ فِي الْحُطْبَةِ لَقَدْ أَبْلَغْتَ فِي الْمَسْأَلَةِ، أَفَقَهُ إِذَا: تَعَبُدُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ،

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٢٠).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٢٥٨).

وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ، وَتَكْرَهُ لِلنَّاسِ مَا تَكْرَهُ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ»^(١).

وخطب الناس في اليوم التاسع والعاشر والحادي عشر، وكرر في خطبته تلك تعظيم الدماء والأموال والأعراض، واستشهد الناس على بلاغ الرسالة، فعن أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ فَقَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبْلَغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»^(٢).

وأكد المساواة بين الناس، وحذر من كل أنواع التمييز العنصري فقال في خطبته: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ، وَآدَمٌ مِنْ تُرَابٍ، لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لَأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ، وَلَا لَأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وودَّع الناس وأشعرهم بقرب رحيله عنهم، وحملهم مسؤولية بلاغ دينه والدعوة إليه، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ فَوَعَاَهَا وَبَلَّغَهَا، أَيُّهَا النَّاسُ،

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٥٨٨٣، ٢٣١٦٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبْلَغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ»^(١).

وفي خطبته تلك تحس في وداعه لوعةً، وفي بلاغه حرقَةً، حتى كأنما يُذيب نفسه في هتافه الذي يهتف به.

ثالثاً: تواضعه ﷺ، فقد سار بين الناس تحيط به القلوب، وترمقه المُقْلُ، وتُقدِّيه المُهَجُّ، فهو معهم كواحد منهم، لم توطأ له المراكب، ولم تتقدَّمه المواكب، ولم تُشق له الطُّرقات، ولم تُنصب له السُّرادقات، وإنما سار بين الناس، ليس له شارة تميّزه عنهم، إلا بهاء النبوة وجلال الرسالة، يسير معهم وفي غمارهم، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي طَلْحَةَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَإِنْ رَكْبَتَهُ لَتَكَادَ تَمَسُّ رَكْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وكان الناس حوله، يحيطون به كما تحيط الهالة بالقمر، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَظَرْتُ مَدَّ بَصْرِي بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ^(٢).

وكان ﷺ قريباً من الناس، والناس قريبون منه، ويدنو منه كلُّ أحد، ويسعهم بالخلق العظيم الذي جبله عليه ربه، فحدّث أبو جُحَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَيَّامِهِ تِلْكَ، حِينَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَازِلاً بِالْأَبْطَحِ بِمَكَّةَ، وَكَانَ أَبُو جُحَيْفَةَ يَوْمَهَا غَلاماً فِي نَحْوِ

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٣٥٠، ٢٣٤٨٩)، و«صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«مسند الدارمي» (٢٣٣)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

العاشرة من عمره، فقال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة، وعليه حلة حمراء مُشَمَّرًا، كأني أنظر إلى بريق ساقيه، فصلَّى بالناس ركعتين، فلما قضى صلاته قام الناس إليه، فجعلوا يأخذون بيديه فيمسحون بها وجوههم، فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحةً من المسك^(١).

يا الله لهذه النفس الرضيّة يصل إليه كل الناس حتى يصل إليه فتى في العاشرة فيأخذ بيده ويضعها على وجهه فيحس بردها ويستنشق عطرها. وكان ﷺ يسير في زحام الناس، ليس له طريق خاص، ولا موكب خاص، وإنما هو ﷺ مع الناس، وهو إمام الناس، لا يدفع أحدٌ أمامه، ولا يُصدُّ أحدٌ من ورائه، وقد رفع يمينه المباركة، باسطاً بطن كفه إلى السماء، يشير إليهم قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِإِيْجَافٍ^(٢) الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ»^(٣). وإذا سمع حَطْمَةَ الناس خلفه وتدافعهم وضربهم الإبل يميناً وشمالاً التفت إليهم، وأشار بسوطه قائلاً: «رُويْدًا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِيْضَاعِ»^(٤). أي: الإسراع.

وقال رافع بن عمرو المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أقبلت مع أبي وأنا غلام في حجة الوداع، فإذا رسول الله ﷺ يخطب الناس على بغلة شهباء،

(١) «مسند أحمد» (١٨٧٦٧).

(٢) الإيجاف: الإسراع.

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٢٠).

(٤) «صحيح البخاري» (١٦٧١).

وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعبر عنه، والناس بين جالس وقائم، فجلس أبي وتخللت الركاب، حتى أتيت البغلة، فأخذت بركابه، ووضعت يدي على ركبته، فمسحت الساق حتى بلغت بها القدم، ثم أدخلت كفي بين النعل والقدم، فيخيل إلي الساعة أني أجد برد قدمه على كفي^(١).

ولكن عجب رافع بن عمرو من برد قدم النبي ﷺ، فإننا نعجب من برد خلقه، وطيب نفسه، إنها النفس الرضية والخلق العظيم، أن يمضي ﷺ في خطبته، ويدع الغلام يمسح قدمه، ويدخل يده تحت نعله، وهو ماضٍ في شأنه، معلّم بحاله ومقاله.

رابعاً: وداعه للناس، فقد كان يتهيأ للحاق بالرفيق الأعلى وجاءته دلائل قرب أجله حين تنزلت عليه سورة النصر، ولذا كان خطابه للناس خطاب مُودّع فعندما خطب الناس قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا»^(٢).

وعن جبير بن مطعم قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي فَقَالَ: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَغَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ غَيْرِ فِقْهِهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»^(٣).

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٠٦٢).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟». قالوا: نعم بلغ رسول الله. فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١).

وجعل يتناول لِيُسْمَعَ النَّاسَ، ويقول: «أَلَا تَسْمَعُونَ». يُطَوِّلُ فِي صَوْتِهِ. وَيُنَادِي: «يَا أُمَّتَاهُ! هَلْ بَلَغْتُكُمْ؟». حَتَّى قَالَ صَبِيًّا فِي الْمَوْقِفِ لَأُمِّهِ: يَا أُمَّةُ، مَا لَهُ يَدْعُو أُمَّهُ؟ فَقَالَتْ لَهُ: يَا بَنِي، إِنَّهُ لَا يَدْعُو أُمَّهُ، إِنَّمَا يَعْنِي أُمَّتَهُ^(٢). وَوَدَّعَ ﷺ النَّاسَ، فَسُمِّيَتْ: حُجَّةُ الْوَدَاعِ.

وَاسْتَشْعَرَ النَّاسَ أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ مَوْدَعٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ طَوَائِفِ النَّاسِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا إِذَا أَمَرَكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»^(٣).

وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ تَهْيِئَةِ النَّاسِ وَإِعْدَادِهِمْ لَخَبَرِ وَفَاتِهِ وَالَّذِي وَقَعَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، لَتُسْتَعَدَّ الْأُمَّةُ لِتَلْقَى الْحَدَثَ، وَتَتَحَمَّلَ الْمَسْئُولِيَّةَ مِمَّنْ أَدَاها، وَالرَّسَالَةَ مِمَّنْ بَلَغها^(٤).

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٣٨).

(٣) «جامع الترمذي» (٦١٦).

(٤) «صفة حجة النبي ﷺ كأنك معه» للمؤلف (٦٠).

إلى الرفيق الأعلى

سبق لقاء النبي ﷺ بالموت التهيئة من ربه لذلك، فتنزلت آيات القرآن تهيئ الأمة لهذا الحدث الضخم والمصاب العظيم، وتهيئ النبي ﷺ لهذا الترقّي إلى الرفيق الأعلى، فأنزل الله بعد معركة أحد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وذلك ليكون موته مما يُنتظر في حياة أصحابه.

ثم أنزل الله على رسوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣]. قال ابن عباس: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فَتُحْ مَكَّةَ فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجْلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] ^(١).

فلما حجّ حجة الوداع ودّع الناس وقال: «لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا» ^(٢).

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» للنسائي (٣٠٦٢).

ومرض النبي ﷺ قبل وفاته، وكانت مدة مرضه ﷺ ثلاثة عشر يوماً. وكان رسول الله ﷺ في مدة مرضه يصلي بالناس إلى أن ثقل به المرض جداً فانقطع عن الصلاة في المسجد، وأمر أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يصلي بالناس.

ثم خرج ﷺ إلى الناس في شدة مرضه متوكئاً على الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عاصباً رأسه بعصابة دسماً^(١)، وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، ثم جلس والناس مجتمعون حوله، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَهُ». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: فَذَيْنَاكَ يَا أَبَانَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجَبَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَقَالُوا: مَا يَبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنُ اللَّهُ خَيْرَ عَبْدًا بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَهُ؟! قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ^(٢)، ثم نزل عن المنبر فكانت آخر مرة رآوه على منبره.

وكانت آخر نظرة نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ يوم أشرق عليهم وجهه الكريم المبارك في يوم الاثنين، بعد أن غاب عنهم أياماً، خيم عليهم فيها الوجوم والحزن، لغياب رسول الله ﷺ عن محرابه الذي طالما وقف فيه، فقد فقدوا تكبيره وقرآنه، وإشراق محيَّاه أياماً،

(١) دسماً أي: سوداء.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢).

وكان الشيخ المبارك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بهم صلاة الفجر، وهو الأسيف الذي يُقَطَّع القرآن ببكائه، فما فجأهم إلا سترُ حجرته يُرفع، وإذا هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائم بالباب ينظر إليهم يضحك، وهو يراهم وقوفاً كما علَّمهم، خشوعاً كما أدَّبهم، فطُفِح السرور على وجهه الكريم، فما رأى الصحابة منظراً أعجب إليهم من وجه رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ينظر إليهم يضحك، كأن وجهه ورقة مصحف، حتى كادوا أن يفتتنوا في صلاتهم، واضطربت الصفوف، فقد ظنوا أنه خرج إليهم ليُصلي بهم، وإذا به يُشير إليهم أن أتموا صلاتكم، ثم أرحى ستر حجرته، فكانت هذه آخر نظرة نظرها إليهم، وآخر نظرة نظروها إليه ^(١).

فلما تعالى النهار إذا بالنبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُودِّع الدنيا ويذرف آخر أنفاس الحياة، ويختار اللحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكان بين يديه ركوة ^(٢) فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ، اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَى سَكْرَاتِ الْمَوْتِ» ^(٣).

وكانت عنده ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فتأثرت بمعاناته، وجعلت تبكي، وتقول: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم. لقد كان في حال اشتياق للقاء الله، فكرب الموت هو آخر شدائد الحياة، ثم بعدها راحة الآخرة ونعيمها.

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) الركوة: إناءٌ صغيرٌ من جلدٍ يُسَرَّبُ فيه الماء، يشبه الدلو الصغير. ينظر: «تاج العروس» (١٧٨/٣٨).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٦٢٣).

ومع شدائد الموت وكربه فإنه ما ذهل عن أمته ودعوته، فأنفق آخر أنفاس الحياة، وآخر لحظات العمر وصاة لأمته، فجعل ﷺ وهو في سكرات الموت يقول: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِهَا، وَمَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ^(١)، فكان آخر ما أوصى به الأمر بالمحافظة على الصلاة والأمر بالإحسان إلى الخدم والضعفاء.

وفي هذا المشهد دلالة من دلائل صدق النبوة لنبينا ﷺ، فإنه صلوات الله عليه وسلامه في هذه الساعة الحرجة التي هي غشيات الموت وكُرْبِهِ نطق بما أهمه، وكان كل ما أهمه دعوة أمته إلى إقامة الصلاة، وحفظ حقوق الخدم والضعفاء.

إن هذه الساعة هي الساعة التي تطفو فيها الهموم الحقيقية للإنسان، وتتوارى كل الهموم المصطنعة، ولو أن أحداً عاش عمره متصنعاً، فإنه لا يمكن أن يتصنع في هذه اللحظة، ولذا فإن هذا المشهد وما بعده أحد الدلائل الكثيرة المنيرة على صدق رسول الله ﷺ في ما قال، وشدة يقينه فيما اعتقد.

وكان آخر ما تكلم به: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى». قَالَتْ عائشة: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى^(٢). وتوفي ﷺ وهو بين يدي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مستنداً إلى صدرها.

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٩١).

قَالَتْ: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي^(١) وَنَحْرِي، فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ، لَمْ أَجِدْ رِيحاً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا^(٢).

وفاضت أظهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله تعالى في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالاً ولا متاعاً، ولا ولداً إلا فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ، وإنما ترك هداية وإيماناً، وشريعة عامة خالدة، وميراثاً نورانياً عظيماً^(٣).

وكان من حكمة الله وصنعه لنبیه أن يموت في سنٍّ مبكرة نسبياً، فمات ﷺ وهو مستجمع قوته ونشاطه ويقظته الذهنية، ولم يتماد به العمر إلى مرحلة الوهن الشديد، ولم يدرك حالات العجز أو الحرج، وقد كان مما يستعيز بالله منه أن يرد إلى أرذل العمر^(٤).

وبوفاته ﷺ انقطع الوحي من السماء، وأظلم من المدينة كل شيء، وكانت المصيبة به أعظم المصائب على الأمة كما قال ﷺ: «فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي»^(٥).

(١) السحر: موضع الرثّة، ويراد به هنا الصدر. ينظر: «عمدة القاري» (١٨/٧٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٩٠٥)، و«صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).

(٣) باختصار من «السيرة النبوية الصحيحة في ضوء القرآن والسنة» (٥٩٤/٢) د. محمد أبي شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣٩٠).

(٥) «سنن ابن ماجه» (١٥٩٩).

فهو الذي لم يوجد مثله يوم وُجد، ولن يُفقد مثله يوم فُقد.

ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.

كانت رسالته نوراً من نور الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن، إنما هي نداء الخالق استعلن في سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم، ثم دَوَّى في غياهب الآفاق ومجاهل الأبد، ليكون الشعاع الهادي لكل ضالٍّ، والنداء الموقظ لكل غافل^(١).

توفي ﷺ بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم النعمة، ورضي الإسلام ديناً، فقال تعالى: ﴿لَيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

توفي ﷺ بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

توفي ﷺ وترك أمةً هي خير الأمم وأوسطها، والشاهدة عليها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكان ذلك في يوم الاثنين (١٣) ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة، والموافق لـ (٩ / ٦ / ٦٣٢ م).

(١) «وحي الرسالة» أحمد حسن الزيات.

بقي أن نعلم أن هذا النبي ﷺ قد توفي في البيت المتواضع الذي بناه أول قدومه المدينة، وعلى السرير ذاته الذي اتخذته فيه أول سكناه، ومات ولم يخلف لورثته مالا، وقال: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ، مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(١). فلم ترث منه بنته ولا زوجاته قليلا ولا كثيرا.

قال عمرو بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا أَمَةً، إِلَّا بَغْلَتُهُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا، وَسِلَاحُهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً^(٢).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي^(٣).

ومات ولم يختص أقاربه بمنصب ولا ولاية تميزهم عن غيرهم، فكانوا بين الناس كغيرهم من الناس، ومات ولم يستأثر لنفسه بشيء من أموال الناس ومتاع دنياهم، فهو الذي قال الله له: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فأجره على بلاغ رسالات الله مُدْخَرٌ له عند ربه الذي أرسله، وهو الذي يتولّى جزاءه وكِفَاءه بما هو أعظم من متاع الدنيا الزائل، وعمرها القصير الذاهب^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٢٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٦١).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣). وشر شعير: أي بعض شعير. والرّف هو وعاء يوضع فيه التمر أو الشعير.

(٤) «الحياة النبوية» للمؤلف (٣٧٢ / ٢).

كيف تحدّث الرسول ﷺ

عاش النبي ﷺ بين أصحابه معلماً وداعياً ومرياً، وكانوا يستمعون إليه بحب، ويتلقّون أمره ونهيه بالتعظيم والاحتراف، ولذا حفظوا لنا أوامره ونواهيه وتعليمه وموعظته، وروّوا لنا أقواله وأفعاله، حتى كأنما عشنا معهم فسمعنا ما سمعوا ورأينا ما رأوا.

واجتمع للأمة من أحاديث نبيها الصحيحة ما يقرب من أربعة آلاف حديث تجمع تعاليم الدين، وسيرة النبي ﷺ، وطريقة تطبيقه لشريعة الله وأدائه لفرائضه، وقد تم توثيق هذه الأحاديث، وتنقيتها، حيث حفظ عنه أصحابه ما سمعوه، وحفظ عنهم أتباعهم ما حفظوه، ورووا لنا ما روه، واهتمت الأمة بجمع أقوال النبي ﷺ وما روي عنه، وحافظت عليه، وثبتت منه، ووضعت ضوابط لروايته تحفظ نقاءه، وتتأكد من صحته فلا يُقبل حديث عن النبي ﷺ إلا بمعرفة من رواه عنه ثم من رواه عنه، حتى جُمعت في كتب موثقة جمعها علماء راعوا فيها أعلى معايير الثبوت والتصحيح، وعلماء المسلمين هم الذين يقولون: هذا الحديث صحيح عن نبينا، وذاك الحديث غير صحيح، وفق معايير

تؤكد من ثقة الراوي وحفظه لما روى، ولا يستطيع أحد أن ينسب إلى النبي حديثاً ما لم يذكر له مصدراً موثقاً معتمداً عند علماء الحديث.

ونلاحظ في أحاديث النبي ﷺ سمات عامة منها:

أولاً: تأكيده على تراث النبوات قبله، وموافقه لما علمه الأنبياء وتتابعوا على تأكيده، ومن ذلك قوله: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ إِذَا لَمْ تَسْتَحِجْ فافْعَلْ مَا شِئْتَ»^(١). وقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢). وهي القاعدة الذهبية التي تابعت النبوات على تأكيدها.

ثانياً: اختصار أحاديثه ووجازتها، وإذا نظرت إلى مجموع أحاديثه فإن معدل تلك الأحاديث يتراوح بين سطرين أو ثلاثة أسطر، فإذا زاد عن ذلك ففيه قصة، وهذا الاختصار مما سهّل حفظها وروايتها.

ثالثاً: أن عبارات النبي ﷺ مع اختصارها تجمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، وهو ما وصفه النبي ﷺ بقوله: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتَصِرَ لِيَ الْكَلَامُ اخْتِصَاراً»^(٣). فهو قواعد جامعة، وحكم محكمة.

رابعاً: فصاحة كلامه ﷺ وبلاغته وروعة بيانه، بحيث جمعت أحاديثه بين الجزالة والسهولة والجازية والوضوح، فليس في كلامه ابتذال ولا تكلف.

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣)، و«صحيح مسلم» (٤٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٢٣)، و«شعب الإيمان» (١٣٦٧)، و«الأحاديث المختارة» للمقدسي (١١٥).

خامساً: من سمات الحديث النبوي شموليته لكل مناحي الحياة، فليست أحاديثه ووصاياه روحية فقط، أو أخلاقية فقط، ولكنها شاملة للحياة الروحية والعلاقات الاجتماعية، والمعاملات الحياتية والأسرية وغير ذلك، في شمول وتكامل يقدم خطة سير صحيحة لحياة طيبة كريمة.

سادساً: مع أن كلامه ﷺ شمل نواحي الحياة كلها، ومجال العلاقات، وصاحب أفعال الناس وتفاعلاتهم، إلا أننا لا نجد فيه كلمة خادشة للحياء يُحرِّجُ ذِكْرُها أو يُحتشم من روايتها، فقد كُسيَت ألفاظُها الحشمة والعفة، وجمال الذوق والأدب، وإذا احتاج لذكر ما يُستحيا من ذكره عبَّر عنه بتعبير عَفَّ جميل، كقوله: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ...»^(١). تعبيراً عن الاتصال الجنسي بين الزوجين، ونحو ذلك.

ومن أحاديثه الجامعة المباركة وكل حديثه طيب مبارك:

١- «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(٢).

٢- «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَحَاكَ بِوَجْهِ طَلَّقَ»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» (١٤١)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٥٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٢٦).

٣- «لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١).

٤- «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

٥- «أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٣).

٦- «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»^(٤).

٧- «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعُنْفِ»^(٥).

٨- «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى»^(٦).

٩- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَأَنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(٧).

١٠- «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٨).

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٦٤)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٩٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٧).

(٣) «مسند أحمد» (٩٦٩٤)، و«الأدب المفرد» (٢٨٩)، و«سنن الترمذي» (٢٠٠٤).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٣١٧).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٥٩٣).

(٦) «صحيح البخاري» (٦٠١١)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٦).

(٧) «مسند أحمد» (٢٣٤٨٩).

(٨) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧)، و«سنن الترمذي» (٣٨٩٥).

- ١١ - «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ»^(١).
- ١٢ - «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»^(٢).
- ١٣ - «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَفِمْ»^(٣).
- ١٤ - «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»^(٤).
- ١٥ - قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَغْضَبُ»^(٥).
- ١٦ - «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٦).
- ١٧ - «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٧).
- ١٨ - «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٨).
- ١٩ - «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ»^(٩).

(١) «صحيح البخاري» (٦٠١٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧).

(٢) «سنن الترمذي» (١٩٥٦).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٣٩٧٢).

(٤) «سنن الترمذي» (١٩٥٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٦١١٦).

(٦) «صحيح مسلم» (١٩٥٥).

(٧) «مسند أحمد» (٢١٣٥٤)، و«سنن الترمذي» (١٩٨٧).

(٨) «سنن أبي داود» (٤٩٤١)، و«سنن الترمذي» (١٩٢٤).

(٩) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨٩٧).

نظرة إجمالية للحياة النبوية

باستعراض هذه الأحوال المتنوعة للحياة النبوية العريضة، يتجلى لنا من خلالها دلالات عامة منها^(١):

١- التوازن في أداء الحقوق، والتوازن في استيعاب مناسط الحياة، فأدائه لعبادته، وبلاغه لرسالاته، وقيامه بحقوق أهله، وعشرته لأصحابه، ومراعاة حق نفسه، وغير ذلك من متطلباته، كل ذلك يسير متوازياً متوازناً، من غير أن تَرى تقصيراً في حقٍّ، أو إخلالاً بواجب، وإنما الاستيعاب المتوازن للحقوق الخاصة والعامة، بحيث ترى في حياته التطبيق العملي لوصاته يوم قال: «إِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَصَدِيقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢). وقد أعطى ﷺ كلَّ ذي حقٍّ حَقَّهُ.

(١) باختصار من كتاب «اليوم النبوي» للمؤلف (٩١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٩٦٨، ١٩٧٥)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

ولما جاء ثلاثة من الشباب إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته فكأنهم تقالوها، فقالوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

٢- حياته ﷺ مزدحمة وحافلة، ولكنها ليست متوترة ولا مرتبكة، فبرغم كثرة المشاغل وازدحامها، فإن نفسه هادئة مسترخية، فلا تجد اضطراباً ولا توتراً، وإذا نظرت إليه في حالٍ ظننت أن ليس له عمل قبلها ولا بعدها، فحاله في بيته لا تدل على أن أعباء الحياة ومشاغلهما تنتظره في الخارج، وجلسه مع أصحابه لا يدلُّك على أنه في حال تحفُّز أو قلق لعمل آخر ينتظره، فهو مقبل عليهم بكله، مسترخٍ بنفسه معهم، يَسْعُهُمْ جميعاً حسن خلقه، وكأن عمله الوحيد هو هذا المجلس الذي هو فيه، إن هذه حالة استواء نفسي تستوعب الأعمال دون أن تتوتر أو ترتبك.

٣- حياته ﷺ حياة مُرْتَبَة وليست رَتِيبَة، فهي مُرْتَبَة، ولكنها أيضاً مَرْنَة، بحيث تسمح بالتموُّج تبعاً لمقتضيات الحال، فليس في حياته

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٠١)، و«سنن النسائي»

فوضى أو ارتباك، وليس في حياته رَتَابَةٌ وصَرَامَةٌ، ولكن ترتيب ومرونة، فأوقات الصلوات محدَّدة تُرتَّب ما بينها، ومجلسه ﷺ يمكن أن يطول ويقصُر بحسب مستجدات الأحوال، وبذلك تحقَّقت في حياته إيجابيات التنظيم، وتخلَّص من سلبات الرَّتَابَةِ وحَدِيَّة الصرامة.

٤- في حياته ﷺ عَفْوِيَّة الحياة وبساطتها، فحياته ﷺ بعيدة عن التواقر المتكلَّف والجِدِيَّة الصارمة. ولكن للعَفْوِيَّة والبساطة حضورها، فهو الذي يبتهج مع البهجة، ويأنس مع الأُنس، ويتوثَّب في نشوة الفرح، حتى يسقط رداؤه ليلتَقَى حبيباً جاء بعد طول غياب^(١)، ويسير في طريقه ثم يحيد إلى شاب يسلم شاة، فيَحْسِرُ عن ذراعه، ليرِيَه كيف يُحْسِنُ السَّلْحَ^(٢)، ويمرُّ برجل يطبخ لحماً في بُرْمَةٍ، فيقول: «أَطَابَتْ بُرْمَتُكَ؟». ثم يتناول منها بَضْعَةً فيأكلها^(٣). لئُونسه بذلك ويسعده.

إن هذه العَفْوِيَّة في التعامل مع الناس حَطَّمت كل الحواجز، بحيث أفضى إليهم بقلبه، وأفضوا بقلوبهم إليه، وشعروا أنهم مع النبي ﷺ أبناء مع أبٍ لهم.

٥- الأُنْس والبهجة حاضرة في بيته، فقد كان في بيته ضُحُوكاً بَسَاماً، وحاضرة في مجلسه، ففيه فُسْحَةٌ للطَّرْفَةِ الجميلة والمداعبة المؤنسة، وحاضرة في حياته، فهو الذي يخرج وينظر إلى الحبشة

(١) «الموطأ» (٢٠٠٣)، و«مصنف عبد الرزاق» (١٢٦٤٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة»

(٣٢٢٠٦، ٣٣٦٨٢، ٣٦٦٤٣)، و«جامع الترمذي» (٢٧٣٢).

(٢) «سنن أبي داود» (١٨٥).

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٣).

وهم يلعبون في المسجد، فيستمتع بمنظر لهوهم، ويدعو زوجته لتشاركه أنس المنظر، ثم يقول مؤصلاً لهذا الهدى: «الْعَبُوبَا بَنِي أَرْفَدَةَ، حَتَّى تَعْلَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفَةٍ سَمْحَةٍ»^(١). لقد كان في دينه فسحة، وفي حياته سعة للأنس والبهجة.

٦- قوة العلاقة العاطفية الزوجية، وإشباع هذه العاطفة، التي تظهر في مناولة قدح الماء، ومناولة لقمة الطعام، والمؤانسة في الحديث الليلي، والتعاهد بالزيارة النهارية، والمشاركة في مهنة البيت، والتواصل الزوجي الحميم على فراش الزوجية وتحت لحافها.

٧- تفهمه لفطر الناس وحاجاتهم ومشاكلهم، حتى في أدائه للعبادة، فكان أقصر الناس صلاة إذا صلى بالناس، مع أنه كان أطولهم صلاة إذا صلى لنفسه، وكان يدخل الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيخففها، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ وَجْدِ أُمِّهِ^(٢).

٨- يظهر من أحوال حياته ﷺ أنه كان يعيش حياة طيبة سعيدة.

أما سعادته الإيمانية، فأفوق عالٍ لم يصل إليه بشر قبله، فهو أعرف الخلق بالله وأعظمهم إيماناً وأصدقهم يقيناً، وأكثرهم تلذذاً بالعبادة، حتى وجد فيها روحه وراحته، فكان يقول: جُعِلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ، وينادي مؤذنه بلالاً فيقول: «يَا بَلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤٩)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠).

(٣) «مسند أحمد» (٢٣٠٨٨)، و«سنن أبي داود» (٤٩٨٦).

إن تلذذه بالعبادة وتذوقه لحلاوة الإيمان لا يمكن مقارنته بأي لذة من لذائد الحياة الدنيا.

وهو أيضاً سعيد في حياته الدنيوية، وهذه السعادة تجدها في لفتات حياته كلها، وتستشعر تذوقه لهذه السعادة وعميق امتنانه لربه بها، فقد أجاره ربه من الهم والحزن، وأعاده من سيئ الأسقام، فعاش في عافية بدنية وعافية نفسية وعافية أسرية، عاش في عفو وعافية ومعافة دائمة. فله ﷺ الزوجة الوضيئة التي يحبها وتحبه، يقاسمها أجمل عواطف المودة والحب.

وله الابنة الطاهرة وابناها ريحانتا دنياه، يُعْدِقُ عليهم أعذب مشاعر الأبوة.

وله الأصدقاء الصادقون: أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقاسمهما أعباء الحياة، فيُسمَع كثيراً يقول: «دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(١).

وله الصّهر والنّسب القريب في نسبه وداره الذي يحبه، ويعلم أن الله في ملكه الأعلى يحبه: أبو الحسن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وله أصهارٌ برٌّ ووفاء، حدّثوه فصدّقوه ووعدوه فوفّوا له: عثمان بن عفان وأبو العاص بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وله الأصحاب المرضيُّون الذين ينزل وحي ربه في تزكية سرائرهم وما في قلوبهم: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» [الفتح: ١٨].

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

فكان سعيداً بمن حوله ومن معه.

ثم عاش حياةً تتدافع الإنجازات الكبار فيها، وأعظم السعادات في الحياة تحقيق الإنجازات، ثم تحقيق الهدف الأكبر له في الحياة، وهو بلاغ رسالات الله، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

لا أستطيع أن أتخيل تلك السعادات على قلب الرسول ﷺ وهو يرى هذه الجموع في مسجده تكثر، ومساحة الإسلام تتسع، والناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

بل لا أستطيع أن أصور مشاعري لمجرد تخيل مشاعره ﷺ، وهو في حجة الوداع يسمع تلك الجموع حوله من كل أنحاء الجزيرة، تقول بفم واحد: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأدبت الذي عليك.

إن هذا كله بعض عطاء الله الغامر له يوم قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

٩- تجد في حياته ﷺ تذوق لذائد الحياة، واستشعار جمال ما يرى، ولذة ما يتذوق، والامتنان لله بالنعمة عليه بذلك، ففي الشربة يشربها واللقمة يأكلها يتذوق لذة ذلك بامتنان عظيم لله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَعٍ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مُودَعٍ، وَلَا مُكَافَأٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ،

وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

وفي يقظته من نومه يستشعر فضل الله عليه بنومة تتمناها عيون مؤرّقة، ثم استيقاظه بعافية وحيويّة، فيتذكّر فضل واهب الفضل: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(٢).

إذا كان هذا في الأكلة المعتادة والنومة المعتادة التي يُذهبُ الاعتيادُ استشعار نعيمها، فكيف بالنعم المتجدّدة والأفضال المتتابعة؟! إنك تستشعر أنه يقف عند كلّ نعمة، فيتذوقها كاملة، ثم يستشعر فضل الله عليه بها، حتى لكأنك تسمعه يهاتف ربه قائلاً: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(٣).

وكان ﷺ يلفت أبصار بصائرنا إلى ما نألفه حتى لا نكاد نحس به، المبيت الآمن، مع طعام ليلة وعافية بدن، فيقول: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»^(٤).

فكيف كان تذوقه هو ﷺ لذلك وما هو أكثر من ذلك؟!

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

(٣) «مسند أحمد» (٥٩٨٣)، و«سنن أبي داود» (٥٠٥٨).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٣٤٦).

إن استشعار النعم وتذوقها وتعظيمها في النفس يزيد مساحة السعادة بها، ويجعل الحياة أكثر بهجة ورُواء، والنفس أعظم ما تكون سكينه ورُضاً وامتناناً للوهاب الذي هذه هبته، والكريم الذي هذا فضله، فتثمر النعمة نعماً، وتزداد الحياة اتساعاً وتجدداً وتوهجاً، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

١٠- عندما ترى هذه الحياة النبوية الحافلة، وهذا التفاعل الحي مع الحياة، فتذكر كم الآلام والأحزان التي استقبلها النبي ﷺ في حياته ثم تجاوزها، لقد تلقاه في أول إقباله على الحياة، اليتيم المتكرر في الطفولة، ثم الأذى البالغ بعد البعثة، وفجيئته بزوجه حديجة أحب الناس إليه، ثم ثكله ببنيه وبناته في حياته، وفراق بلده التي هي أحب البلاد إليه، ومصابه في قرابته وأصحابه في أحد، وآلام حادثة الإفك، وغير ذلك من أوصاب حياته وبلاءاتها.

ولكنه مع ذلك كله كان يتمتع بقدرة عظيمة عجيبة على تجاوز المشاعر السلبية، ولياقة فائقة على استئناف الحياة، والتفاعل الإيجابي مع كل لحظاتها!

إنك وأنت ترى هذا الزخم العظيم في كل يوم من أيام حياته، لتكاد تقول: هذه سيرة من لم تمر به شدة قط، ولم يعرض له بلاء قط.

وما كان -بأبي هو وأمي- كذلك، ولكنه يتجاوز هذه الأيام ولا يستصحب آلامها، فلكل لحظة في عمره مشروعها وإنجازها وبهجتها، إنها الحياة المتدفقة المتجددة، إنها الحياة كما ينبغي أن تكون الحياة.

١١- الرحلة مع المصطفى ﷺ في أحواله المتنوعة مددٌ لحبه العظيم في قلوبنا، ولذا كان صحابة رسول الله ﷺ أشدَّ الناس له حبًّا وأكملَ الخلق له تعظيمًا، لأن كل ما يرونه من لفتات حياته يُترعُّ قلوبهم حبًّا له وتعظيمًا، فحياته ﷺ بكل تفاصيلها حياة جاذبة، ولئن فاتنا أن نرى ما رأوه، فلن يفوتنا أن نعلم به ونتعلَّمه، ولا تزال تتروى مما رآه الصحابة من رسول الله ﷺ وما سمعوه حتى يعمُرَ قلبك من حُبِّه ما عمَرَ قلوبهم، وإن صحبة النبي ﷺ في تفاصيل حياته مددٌ وجداني لخزائن الحب النبوي في قلوبنا، فهو الذي كلما ازدادت به معرفة ازدادت له حبًّا، وكلما ازدادت صحبةً لخبره ازدادت شوقاً إلى رؤيته.

ويا لَكَمْ طَوْتُ لِي حُجُبَ الزَّمَنِ أَخْبَارُ أَتْرَوَّاهَا، حَتَّى لَكَأَنِّي أَعِيشُ الْخَبَرَ رَأْيَ عَيْنٍ، فَاسْتَشْعَرْتُ الدُّنُوَ إِلَيْهِ، وَأَكَادُ أَنْعَمُرُ فِي أَنْوَارِهِ، وَأَسْتَنْشِقُ عَطَرَ أَنْفَاسِهِ، وَأَهْمُّ أَنْ أَدْنُو مِنْهُ أَلْتَمُّ يَدَيْهِ وَأَجِدُ بَرْدَ كَفِّهِ، وَأَهْتَفُ فِي مَسَامِعِهِ مِنْ كُلِّ قَلْبِي: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي^(١).

دلائل النبوة من سيرته^(١)

وكان من أظهر دلائل نبوته سيرته ﷺ في حياته كلها، فإنها تدل على أنها سيرة نبي، وقد تجلّى ذلك للصحابه الذين عرفوه فقد تبين لهم أن من كان هذا حاله فلا يمكن أن يكون مدّعياً ولا متقولاً على ربه، ومن ذلك حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ أَنْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ كَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ^(٢). فكانت ملامحه تدل على صدقه، فليس وجهه وجه المريب، ولا حاله حال المدعي.

ومن ذلك: حديث ثُمَامَةَ بْنِ أَثَالٍ الَّذِي كَانَ يَتَوَعَّدُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي بِلَادِهِ الْيَمَامَةَ فَلَمَّا أُسْرِ وَجِيَءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمَرَ بِرَبْطِهِ فِي عُمُودٍ فِي الْمَسْجِدِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَنْلِهِ فِي أُسْرِهِ مَسَاءَةٌ أَوْ أَذَى،

(١) ينظر: كتاب «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» د. عبد المحسن بن زين المطيري،

و«البراهين العقلية على النبوة المحمدية» الشيخ أحمد الأسدي، و«براهين النبوة»

د. سامر العامري.

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤).

وهي ثلاثة أيام قضاها يراقب النبي ﷺ فيرى صلاته، ويستمتع تلاوته، وينظر حاله مع أصحابه، ومجلسه معهم، ولم يرد أن النبي ﷺ عرض عليه الإسلام بالأمر أو بالقول المباشر، ولكن عرضه عليه بطريقة عملية يشاهدها، ثم بعد ثلاثة أيام أمر النبي ﷺ أن يحل رباطه ويخلى سبيله، فلما خرج من المسجد ومَلَكَ أمره عاد إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه، وشهد شهادة الحق بين يدي النبي ﷺ وهو يقول: وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَيَّ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ^(١). فما الذي استدل به ثمامة على صدق النبي ﷺ وجعله يحبه أحب من كل أحد؟ إنه سيرته التي رآها خلال ثلاثة أيام.

وكذا لما جاء عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ انطلق به النبي ﷺ إلى بيته وفي الطريق دعت امرأة ومعهها صبي فنادته فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فوقف لها وعَدِيٌّ ينظر، قال: حتى أشفقت عليه من طول القيام وقلت: والله ما هذا بملك^(٢) ووقع حبه في قلبي.

إنك متى وقفت على مجموعة صالحة من هذه السيرة الكريمة، لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك بأنها لا يمكن أن تكون إلا سيرة نبي مبلغ عن الله رسالته.

وذلك أن للحقيقة قوة غلبة تنفذ من حجب الكتمان، فتُقرأ بين السطور وتُعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنعه

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

(٢) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).

ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله، تنم على طبعه إذا أغضب أو أخرج، أو فرح أو ظفر، أو خلا مع من يطمئن إليه.

فما ظنك بهذه الحياة النبوية؟!، التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها، فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله.

ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهاناً، فمنهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته، ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماءه في وجهه^(١).

وإذا نظرنا إلى سيرته ﷺ وجدنا دلالتها ظاهرة على صدق نبوته في مراحل حياته كلها، فمن ذلك:

أولاً: أن النبي ﷺ عاش بين ظهرائي قريش أربعين سنة قبل النبوة، ومجتمع قريش مجتمع عشائري محصور لا يخفى فيه حال أحد، فلما أعلن نبوته وأعلنت قريش عداوته لم تجد موقفاً واحداً في تاريخه السابق تذكره عنه فتعيبه به، بل إنه مع كثرة خصال الخير فيه^(٢)، إلا أن أشهر ما عرفته قريش به الصادق والأمين -وهي أهم صفة تدل على صدق نبوته- ولذا فإن هرقل لما سأل عنه قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قالوا: لا، قال: لقد علمت أنه لم يكن ليَدْعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

(١) «النبأ العظيم» (٦٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

هل تدبرت في عظمة التزام إنسان بالصدق والأمانة أربعين سنة؟ لا يَكْذِبُ فيها على أحدٍ من الناس لا في بيع ولا في شراء ولا في غيرهما، ولا يخون عهداً ولا يُخلفُ وعداً، وهو سَلِيمٌ في عقله شريف في نسبه، عليٌّ في قومه، شجاعٌ في مواقفه، صاحب بذلٍ وعطاءٍ وزهدٍ وورع ومواساة، كيف يُتصور مع كل هذه الكمالات أن يتخلى عما هو فيه بعد أن بلغ الأربعين، فيرتكب كذبة من أعظم الكذبات على الأرض ولا يفعلها إلا أحقر البشر، فيدعي -كذباً- أنه رسول من عند الله يُوحى إليه، إن هذا أبعد ما يكون وقوعاً.

ولقد أشار القرآن إلى هذا المعنى ونَبَّه كفار قريش إليه فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

إنهم صغيروهم وكبرهم يعرفونه معرفة تامة بكل خلقٍ جميل، حتى إنهم كانوا يسمونه -قبل البعثة- بالأمين، فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق المبين؟^(١).

فكانت سيرته قبل النبوة من دلائل صدق نبوته بعد بعثته.

ثانياً: أُمِّيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وأنه ما قرأ مكتوباً، ولا كتب مقروءاً، ومع ذلك جاء بكل هذا العلم الذي لا يحيط به العلماء، ليتضح أن مصدر علمه ليس ما هو مكتوب قبله، ولكن مصدره وحى الله إليه، كما قال ابن تيمية: وَكَوْنُ مُحَمَّدٍ كَانَ نَبِيًّا أُمِّيًّا هُوَ مِنْ تَمَامِ كَوْنِ مَا أَتَى بِهِ مُعْجِزاً خَارِقاً لِلْعَادَةِ، وَمِنْ تَمَامِ بَيَانِ أَنَّ تَعْلِيمَهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ تَعْلِيمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

(١) «النبأ العظيم» د. محمد عبد الله دراز (٣٨).

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زَتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. فَعَبْرُهُ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ عِلْمُ النَّاسِ مَا يَكْتُبُونَهُ وَعَلَّمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ ^(١).

ثالثاً: أن المحن والشدائد التي مرت به كان بعضها يزلزل العزائم، ويذهب بالرجاء، ويصيب باليأس، ومع ذلك كان ﷺ أكثر ما يكون يقيناً وأثبت ثباتاً في هذه الشدائد، فعن خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بَرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ شِدَّةَ فَقْلُنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَجَلَسَ وَقَالَ: «وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» ^(٢). ففي أشد الشدائد عليه في مكة يُبَشِّرُ بِالْأَمْنِ بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمَوْتَ.

وفي الغار وقريش محيطة به وقد أهدرت دمه وخرجت تتعقبه يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وفي شدة الفزع يوم الأحزاب يبشر بقصور فارس وقصور الشام وقصور اليمن ^(٣).

وفي وقت شدة الجوع الذي يشتكيه الصحابة إليه يقول لهم: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا عَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٦٦/١٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦١٢).

(٣) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُّ الْكَعْبَةُ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنْ الْيَوْمِ، نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ وَنُكْفَى الْمُؤَنَّةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْتُمْ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ»^(١).

إن هذا اليقين في وقت الشدة والكرب لا يكون إلا بوحي من الله.

رابعاً: عبادة السر التي رويت عنه، كما في حديث ابن عباس أنه بات عند رسول الله في بيت حالته مَيْمُونَةٌ كَيْلَةٌ فلما كان نصف الليل استيقظ النبي ﷺ فنظر إليه وقال: «نَامَ الْغُلِيمُ؟». ثم جلس يمسح النوم عن وجهه ويقرأ الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنْ^(٢) مُعَلَّقٍ فتوضأ وُضُوءاً خَفِيفاً وَقَامَ يُصَلِّي، قال ابن عباس: فقامت فتمطيت كما يصنع النائم، ثم تَوَضَّأَتْ نَحْواً مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ، عَنْ يَسَارِهِ فَحَوَّلَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى حَتَّى ذَهَبَ هَوِي مِنْ اللَّيْلِ، وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة^(٣). وهذا التهجد في جوف الليل وكل من حوله نيام لا يمكن أن يفعله مدع وإنما يفعله الموقن أشد اليقين.

وَعَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ^(٤).

(١) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).

(٢) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشد تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٥٠٦/٢).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٤) «سنن أبي داود» (٩٠٤).

ولم يكن النبي ﷺ يعلم بمجيء عبد الله بن الشخير، ولكن توافق مجيئه والنبي ﷺ بهذا التأثر والبكاء.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَحَسَّسْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ، فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». فَقُلْتُ: يَا بِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّكَ لَفِي شَأْنٍ آخَرَ^(١).

وعنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفرائش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي نِعَمَكَ وَلَا ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

فهذه العبادات الخفية لا يمكن أن تصدر من متقوّل يتظاهر أمام الناس، ولكنها دليل على أنه أعظم الخلق يقيناً بما يدعو إليه.

خامساً: قصة موت ابنه إبراهيم، فإنه لما مات قال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، وذلك بناء على عقيدة جاهلية هي أن الشمس تكسف لموت عظيم أو مولده، فقام النبي ﷺ وهو يغالب أحزانه ليصحح لهم هذا التصور الجاهلي: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا،

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٨٦).

فَقُومُوا فَصَلُّوا»^(١)، فلو كان مدّعياً لكانت هذه فرصته ليؤكد دعواه بهذا التصور، ولكن دلائل الحق معه أقوى من أن يتزيد لها، بل نفى تصور الجاهلية ذلك وأبطله.

يقول إميل در منغم: ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيراً ولحده بيده، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموت إبراهيم، ولكن محمداً كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك، فقال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ...». فقولٌ مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجال^(٢).

سادساً: التوازن في حياته ﷺ وهذه من معجزات سيرته، فإنك قلماً تجد نابغاً في أمرٍ ومتميزاً في منحي من مناحي الحياة إلا وجدت هذا التميز على حساب نواح أخرى في حياته، فقد نجد النابغ في علمه ولكن ذلك على حساب علاقاته العامة، أو علاقاته الاجتماعية، وقد تجد القائد العظيم ولكن إقباله على ذلك أحدث ضموراً في حصيلته العلمية، أو أخلاقه في التعامل مع العامة ونحو ذلك، أما النبي ﷺ فلا تنظر إلى ناحية من نواحي حياته إلا شعرت أنها مشبعة تماماً وكأنه قد تفرغ لها وحدها، فإذا نظرت إليه ﷺ رسولاً، وداعياً، ومعلماً، وزوجاً، وأباً، وقائداً، وصاحباً، ومحارباً، ومسالمماً إلى غير ذلك من مناحي حياته وجدتتها كلها كاملة ليس في شيء منها نقص أو ضمور.

(١) «صحيح البخاري» (١٠٤١)، و«صحيح مسلم» (٩٠٤).

(٢) «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» عبد المحسن بن زين المطيري (٨٢).

كان محمد ﷺ مثل الله الأعلى للإنسان الكامل، صوره خلقاً سوياً
 يرسم الأخلاق بالممثل، ويعلم الدين بالعمل، وينظم الحياة بالقدوة،
 فكيف اجتمع فيه ما تفرّق في جميع الناس من خصال الرجولة،
 وصفات النبيل، ومكارم الأخلاق^(١).

إن هذا التوازن والتكامل لا يمكن أن يتحقق بالمقاييس والقدرات
 البشرية ما لم تكن تأييداً ومدداً من الله.

سابعاً: عدم التكثر من الدنيا، بل عبرها أزهى ما يكون فيها، فقد
 دخل المدينة على حالٍ من القلة، وبنى بيته فيها متقارب الجدر قليل
 المتاع صغير المساحة فالبيت غرفة واحدة وفناء صغير أمامها لكل
 واحدة من زوجاته، ثم فتح الله عليه وكثر أتباعه وقدمت عليه الأموال
 فلم يتغير بيته ولا أثاثه، ولم يتخول من هذه الدنيا شيئاً، بل قسم الأموال
 حثواً في الثياب، وعاد إلى بيته الأول الذي بناه أول ما قدم وعاش فيه
 ومات فيه، وكانت أشواقه هناك في الملاء الأعلى، أما الدنيا فما تأثلها
 ولا تكثر منها.

ولما مات لم يورث مالا لورثته، ولا منصباً لقرباته، وبلغ رسالات الله
 وعاش في الدنيا كفافاً من غير أن يرزأ الناس شيئاً من دنياهم وإنما
 تركها لهم ينتشلونها من بعده، وعبرها ولم يتأثلها، وقال لأهل الدنيا
 كلهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهَوْلَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

وما الذي يطمع فيه مدَّعي النبوة سوى المجد الدنيوي والتَّعَمُّمَ بالملذَّات؟!

ولقد كان ﷺ أبعد شيء عن هذا، لأنه رسولٌ من عند الله حقاً وصدقاً وعدلاً.

وإنَّ المدَّعي الذي يتخذ الدين مركباً لأغراض نفسه ومطامع أهوائه لا يمكن أن يعيش كفافاً، ويموت كفافاً، ويترك أهله على الكفاف.

ثامناً: حاله مع زوجاته، فقد توفي ﷺ عن تسع زوجات، وإن الإنسان الكاذب قد يستطيع أن يتحرَّز من الناس في حياته الخارجية، لكن هذا لا يحصل للإنسان مع زوجته في حياته الخاصة، فإن العادة جرت بسقوط الكلفة، وانبساط الرجل مع أهله، وزوجته أعلم الناس بحاله وخاصة شأنه، فالنبي ﷺ مع كثرة أزواجه وهنَّ من عدَّة قبائل ومن أعمارٍ متفاوتة، وكون آباء بعضهن أعداء له، ولكنَّ لم تتقل إحداهن عن حياته الخاصة إلا كل كمال يمكن أن يوصف به إنسان، ولا يمكن أن يتواطأ أن كلُّهنَّ على إخفاء ما ينافي حال نبوته وكَماله، فهذا في غاية من البعد، وكنَّ يعِشنَّ معه على الكفاف لا كما تعيش نساء الملوك، حتى اشتكين إليه ذلك فنزلت آية التخيير: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

فكلهن اخترنَّه ولو كان فيهن من لم تكن على يقين من نبوته لكان هذا التخيير فرصتها لتختار لنفسها حياة أخرى، لكنهن كلهن آثرن

الآخرة على الدنيا، وصبرنَ على تلك الحال، وبقينَ بعده وفِيَّاتٍ عشرَتهن معه، متشوقات للحاق به في أكرم موعود.

تاسعاً: بُعده عن الغرض الشخصي، فكان ينهى عن إطرائه بالغلو فيه ومجاورة قدره ومنزلته، ويقول: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١). وينهى عن القيام له ويقول: «لَا تَقُومُوا لِي كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعَظَّمُ بَعْضُهَا بَعْضاً»^(٢)، وعن الرُّبِيعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنَيَّ عَلَيٍّ، فَجَلَسَ عَلَيَّ فِرَاشِي، وَجُورِيَّاتٌ يَضْرِبْنَ بِالْدَّفِّ يَغْنِينِ، حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتَ تَقُولِينَ»^(٣).

ولما توفي عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ -امرأة من الأنصار-: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟». فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ قَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهُ مَا أَذْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي»^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٥٢٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٤٣).

فما الذي كان يمنعه أن يتقوّل ما يشاء في شأنٍ هو بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجع فيه، إلا أنه رسول من عند الله صادق في بلاغه عن الله؟^(١).

عاشراً: أكّد النبي أن سلسلة الرسل والأنبياء قد اختتمت به، ونفى أي احتمال لتوقع نبي آخر بعد نبوته، أو لشرعية أخرى بعد شريعته، وهي حالة استثنائية غير معهودة في تاريخ النبوات.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٢). إنها جراءة في الإخبار عن المستقبل ثم تحقّقت كما أخبر فبعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام لا نجد أثراً لنبوة، ولا شرعية سماوية.

وها نحن نقف أمام حقائق أربعة أساسية:

- ١- إن موسى لم ينف مجيء نبي بعده، بل على العكس، بشّر به وأكده، ولقد جاء حقاً نبيّ بعد موسى وهو المسيح.
- ٢- وإن المسيح لم ينف مجيء نبي بعده، بل على العكس، بشّر به وأكده، ولقد جاء حقاً نبيّ بعد المسيح وهو محمد.

(١) «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» (٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٨٤٢).

٣- ثم لم يكتفِ المسيح بالتبشير بالنبي «المُعزّي» الذي سيأتي بعده، بل أكّد أيضاً أنه سيكون النبي الأخير، فرسالته ستكون الخاتمة لأنها تبقى مع البشر «إلى الأبد» كما توضحه لنا عبارة إنجيل يوحنا: «وسأطلب من الأب أن يُعطيكم مُعزّياً آخر يبقى معكم إلى الأبد». [يوحنا ١٤: ١٦].

٤- أما محمد فهو وحده، من بين كل الأنبياء، الذي لم يشر بأي نبي بعده، بل على العكس أكّد بنفسه وأكّد كتابه أنه «خاتم النبيين»، وأنّه لا نبي بعده.

وما يزال تأكيده صامداً على الزمن لم يهتز، رغم مرور هذه الفترة الزمنية الطويلة، وغير المسبوقة في تاريخ النبوات. وأخيراً بعد مرور أكثر من ثلاثة آلاف عام على مجيء موسى، وألفي عام على مجيء المسيح:

أ- ألم يحن الوقت ليسأل أتباع موسى أنفسهم السؤال البدهي، والأخطر على الإطلاق: هل علينا أن ننتظر ثلاثة آلاف سنة أخرى ليأتي ذلك النبي الذي وعدنا به موسى: «نبياً من وسطك»؟.

ب- ألم يحن الوقت، أيضاً، ليسأل أتباع المسيح أنفسهم: وهل علينا أن ننتظر ألفي سنة أخرى ليأتينا ذلك «المُعزّي» الموعود الذي بشرنا به المسيح؟^(١).

(١) «الأسئلة المصيرية» د. بسام ساعي.

وهكذا لا يزال المرء يقلِّب نظره في سيرة هذا النبي الكريم ويتتبع أحواله في حياته حتى يثمر له يقينا راسخا أن هذه حال نبي كريم، وما هي بحال مُدَّعٍ ولا مُتَقَوِّلٍ، وأن أحوال حياته شواهدٌ على صدقه، ودلائلٌ على نبوته ﷺ^(١).

(١) «الحياة النبوية» للمؤلف (٢/٣٩٥).

الرسول وإخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

نشأ ﷺ في مجتمع أمِّي وثنيٍّ، مقطوع الصلة بأنبياء بني إسرائيل، وعلاقته بالنبوة هي العلاقة عبر التاريخ السحيق بنبوة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ التي تلاشت معالمها، وتحولت لديهم من إسلام حنيف إلى وثنية جاهلية، وإذا بهذا النبي الأمي يتحدث في ما أنزل عليه من القرآن وفي ما أوحى إليه من الحكمة عن القافلة المباركة من أنبياء الله ورسله، نوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ويونس وأيوب وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم، ويذكر دعوتهم وأخبارهم مع أممهم، وأوصافهم وما جرى لهم.

فمن أين عرف هذا؟ وهو الأمي في هذا المجتمع الجاهلي الأمي والذي ليس فيه أحد من أتباع الديانات الأخرى، وليس لديه عن هؤلاء الأنبياء كتب تُقرأ ولا أخبار تُروى، إلا أن يكون حياً أوحاه إليه ربه الذي أرسلهم ثم أرسله في إثرهم خاتماً لهم، ولذا فإن ذكره المفصل لأخبار الأنبياء هو إحدى دلائل نبوته، فلا مصدر لهذا العلم إلا الوحي.

كما أن ذكره للأنبياء قبله محفوف بالمحبة والتكريم، والتعظيم لدعوتهم ورسالتهم، وذُكِرَهم بأحسن أوصافهم وأجمل هيئاتهم، وقد تكرر ذكرهم في القرآن، وذكرت أسماءهم أكثر كثيراً مما ذكر اسم محمد نفسه، فذكر إبراهيم (٤٨) مرة وذكر موسى (١٣٦) مرة، وذكر عيسى (٣٦) مرة، في حين ذكر اسم محمد وأحمد خمس مرات فقط في القرآن كله.

وهذا نفسه برهان علمي وأخلاقي على صدق نبوة محمد ﷺ، فما يبلغ هذه الدرجات العليا من الإنصاف والتجرد وإيثار هؤلاء الرسل في كثرة الذكر ووفرة الثناء والتمجيد إلا نبيُّ حقٍّ تمحّض للحق، يصدع بما يوحي إليه، ولا يكتم منه شيئاً^(١).

وشتان بين خبر القرآن وحديث الرسول ﷺ عن الأنبياء الكرام، وبين تلك الصورة المشوهة المذكورة عنهم في العهد القديم من الكتاب المقدس والتي تصفهم بالقبائح، وتبتهتهم بالفواحش^(٢).

إن علاقة نبينا محمد ﷺ بإخوانه من أنبياء الله ورسله الذين سبقوه على تباعدهم في الزمان والمكان علاقة أخوة وتأس واقتداء،

(١) «علاقات الكبار» لزين العابدين الركابي (٨ - ٩).

(٢) ففي العهد القديم أن نوحاً شرب الخمر فسكر وتعرى، وأن لوطاً زنى بابنتيه وانجبتا منه، وأن يعقوب قد سرق بركة أخيه من أبيه، وأن هارون هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ليعبدوه، وأن داود قد زنى بامرأة متزوجة وتآمر على زوجها ليقتل في الحرب، ونحو ذلك من المنكرات حتى قال القسُّ المُنَصِّر دامنيد أوبراين: لا تكاد تجد أحداً من الأنبياء من الممكن أن يسمح له بالاتحاق بكنائسنا دون أن يشترط عليه أن يصلح سلوكه بصورة بالغة. ينظر: «براهين النبوة» د. سامي عامري (٤١٠).

كما قال ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ^(١)، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»^(٢). وكانوا يتلقونه بلفظ الأخوة في رحلة المعراج فيرحبون به: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فهم إخوة في الإسلام، وإخوة في النبوة. وبين الله دعوتهم التي اتفقوا عليها جميعاً فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فالدعوة الأولى والقضية الكبرى في دعوة كل نبي هي عبادة الله وحده، وعدم الإشراك في عبادته مع غيره من خلقه، فلا يستحق العبادة غيره **عَزَّوَجَلَّ**، ولذا كان كل نبي يدعو قومه قائلاً: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

لقد مشى على كوكبنا الأرضي هذا أنبياء مباركون أنزل الله عليهم ملائكته وبلغهم وحيه ورسالته، ومضمونها معرفة الله ومحبه وطاعته، والعيش الرضي في معيته، والاستعداد الكريم للقاءه في الدار الآخرة، وهذا قدر مشترك بين رسالات الأنبياء، ولذا جاء القرآن مؤكداً أن رسالة محمد ﷺ هي رسالة الأنبياء قبله^(٣)، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) العَلَّات: الإخوة من أب واحد، وأمهاتهم متعدّدات. ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» (١٨٤/٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٤٣).

(٣) من مقال لزين العابدين الركابي.

وقد جاء ذكر أجيال الأنبياء المتتابعة كثيراً في القرآن الكريم، فذكر دعوتهم وما جرى لهم مع أقوامهم، وممن ذكر الله قصته نبي الله نوح ودعوته لقومه وطول صبره عليهم حتى دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥-٩]. وذكر الله عقوبته لهم بالغرق لما طال كفرهم وإجرامهم، وجاء وصف مشهد الطوفان الذي أغرقهم مفصلاً في القرآن الكريم حتى كأنما ترى المشهد رأي العين.

وجاء ذكر قصة نبي الله إبراهيم وجداله مع قومه فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا عَصَاَنَا مَا فَتَنَّا لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّوكَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٣﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٩﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢]. وذكر قصة تحطيمه لأصنامهم، ومحاولتهم إحراقه بالنار فأنقذه الله منها، ثم هجرته إلى فلسطين، وبنائه الكعبة مع ابنه إسماعيل في مكة، وذكر تفاصيل هذه المراحل في حياته مرحلة مرحلة.

وجاء ذكر قصة نبي الله يوسف وإلقاء إخوته له في البئر، ثم أخذه إلى مصر وبيعه هناك، ثم سجنه ثم خروجه من السجن وتولييه الوزارة،

وقدوم إخوته عليه، وكيف كان محسناً في كل مراحل حياته وأحوالها، ثم قدوم أبويه وأهله كلهم إليه، وكيف صارت العاقبة له بعد صبره وإحسانه.

وجاءت القصة في القرآن بالصور المعبرة والمشاعر النفسية والانفعالات العاطفية حتى كأنك تعيش حوادثها وأحاسيسها.

وذكر الله قصة موسى وكررها في القرآن مفصلةً ومختصرةً، وذلك لكثرة عبرها، فجاء ذكر موسى في طفولته حين خافت عليه أمه فألقته في النهر فالتقطه آل فرعون ونشأ في قصورهم، ثم قصته مع فرعون بعد النبوة وما دار بينهما من حوار وما جرى له معه من أحداث، ثم مسيره ببني إسرائيل واتباع فرعون وجنوده لهم، وكيف انفلق البحر لهم فعبروه وتبعهم فرعون فغرق فيه، ثم حياته مع بني إسرائيل في التيه، ومعاناته معهم وصبره عليهم، وكلها مشاهد فيها دروس وعبر وقدوة بموسى في صبره عليهم ومعاناته معهم.

وجاء ذكر عيسى ابن مريم في القرآن مفصلاً ومتنقلاً مع مراحل حياته منذ حمل امرأة عمرانَ بأُمِّه مريم، ثم حمل مريم به بنفخة الملك، ثم ولادتها له، وذكر الله نبوته ودعوته لبني إسرائيل فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۖ﴾

وقد أثنى الله على أمه مريم فلم تُذكر امرأة في القرآن باسمها إلا مريم، وفي القرآن سورة طويلة باسم مريم فيها قصتها وقصة ابنها عيسى ابن مريم، وقد ذكر الله الثناء عليها على لسان الملائكة فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢﴾ يَمْرُؤُا أَفْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿[آل عمران: ٤٢، ٤٣]. وأثنى على عيسى فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَآتَيْنَاهُ الْبُحُورَ الْمُدُنِ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقال النبي ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»^(١).

إنَّ المسيحيين والمسلمين متفقون اتفاقاً مدهشاً على قدسية المسيح، ومجمعون على حبه واحترامه الشديدين، ومؤمنون إيماناً تاماً بمعجزاته الكثيرة، وبحقيقة ولادته الإعجازية، وبحقيقة وفاته الإعجازية أيضاً، بل بحتمية عودته إلى الأرض من جديد، ليقود فيها البشرية ويسود فيها الأمن والمحبة والسلام.

وكما أثنى القرآن على عيسى وأمه، فإنه أكد على أنه رسول مرسل من الله ليس إلهاً ولا ابناً للإله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفُ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ اتَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]. ﴿إِنِّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٢).

وأنكر دعوى مَنْ قال إن الله ولدًا فقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ
 أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ
 الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۚ سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
 لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥]. فعيسى عبدُ الله ورسوله، خلقه الله من غير
 أب كما خلق آدم من غير أب، والله عَزَّوَجَلَّ هو الأحد الصمد الذي لم يلد
 ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وكل الأنبياء يُذكرون في القرآن بالذكر الحسن الجميل
 فقال الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۚ
 [مريم: ٤١]. وقال عن موسى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ
 رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

والإيمان بجميع الرسل من لوازم الإيمان بنبوّة محمد ﷺ، قال
 تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].
 وقال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا
 نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. فلا يجوز التفريق
 في الإيمان بنبوّتهم، فكلهم أنبياء الله ورسله وإنكار نبوّة نبيٍّ منهم
 كإنكار نبوّتهم جميعاً.

وسير أنبياء الله ودعوتهم هي محل القدوة والتأسي لكل من آمن بهم، وقد ذكر الله أخبار الأنبياء وأسماء كثير منهم ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. فهم القدوة للبشرية كلها، ولذا كان النبي ﷺ يتأسى بهم، فعندما بلغه بعض ما يؤذيه من بعض من كان معه كظم غيظه، وقال: «يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى! لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»^(١). وقد كان النبي ﷺ يتواضع عند ذكرهم ويحتفي بفضائلهم، فعندما سُئِلَ مَنْ خَيْرِ النَّاسِ؟ قال: «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(٢). وكان ينهى عن المفاضلة بين الأنبياء فيقول: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ»^(٣). وقال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى»^(٤). وقال: «لَا تَفْضَلُونِي عَلَى مُوسَى»^(٥). وذلك تواضعاً منه وحفظاً لمكانة إخوانه الأنبياء لما تشعر به المفاضلة من انتقاص المفضل.

وقد وصف ﷺ هيئات الأنبياء وصفاتهم الخلقية كأنما أدركهم وعاش معهم، ووَصَفُ المظهر الحسن وتفصيله من دلائل الحب والقرب، ولذا فإن وصفهم كان بكمال صفاتهم، وكان أنبياء الله ورسله بهيئات حسنة، فليس منهم ناقص الخلق أو معيب الخلق، وإنما كانوا فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْكَمَالِ.

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٩٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٣٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٤١١).

وكان وصفه ﷺ لكمالهم الجسدي الذي هو وعاء كمالاتهم الخلقية والعلمية، فوصف إبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كأننا ننظر إليهم. فوصف موسى بأنه رجل قويّ طويل الجسم، مسترسل الشعر، يميل لونه للسُّمرة.

ووصف عيسى بأنه متوسط الطول، ذو شعر مسترسل لامع، أبيض البشرة مائل للحمرة، كأنما خرج للتو من الاستحمام، كناية عن النقاء والإشراق والوضاءة.

ووصف إبراهيم فقال: «أَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ بِهِ»^(١). فكانت ملامحه الجميلة وقوامه المتناسق كلامح أبيه إبراهيم وقوامه.

وهذا الوصف الجميل للأنبياء يُبَيِّنُ كمالهم، ومحبة النبي ﷺ لهم، فقد ذكرهم بأجمل أو صافهم.

لقد كان هؤلاء الأنبياء أنواراً متعاقبة في تاريخ البشرية، تنير طريقها، وتدلّها على رشدّها، وتجدد لها رسالة الله كلما خبت أنوارها، حتى انتهت رسالاتهم، واجتمعت كمالاتهم عند أفضلهم محمد ﷺ آخر الأنبياء.

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٦٨).

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة مع مراحل عمر النبي ﷺ وأحداث حياته، ومعالم شخصيته، ودلائل نبوته، فإن هناك معالم مُهمّة علينا أن نستحضرها ونتذكرها كلّما تذكرنا هذه السيرة، والتي اتضحت لنا جلياً وتكررت خلال سِيرِنا مع سيرته ومن أهمها:

أولاً: وضوح سيرة النبي ﷺ:

فحياته ﷺ واضحة مشرقة يمكننا من خلال تتبع ما روي لنا منها أن نعرف نبينا ﷺ وكأننا قد عشنا معه، ونعرف من تفاصيل حياته أكثر مما نعرف عن آبائنا، إننا نعرف ملامحه، وعبادته، وأخلاقه، وطريقة تعامله، نعرف كيف يأكل وكيف يجلس وكيف ينام، ونعرف حياته في المسجد وفي الطريق، في مجلسه مع أصحابه، وفي بيته مع أهله، فكأنه كان يعيش في بيت زجاجي شفاف.

نعرف أسماء زوجاته وبناته وأصحابه، بل وأسماء الحيوانات التي عنده: حماره وفرسه وناقته، وعدد الشعرات البيضاء القليلة في لحيته.

فليس في سيرته حلقات مفقودة، ولا مناطق معتمة، إنها حياة واضحة ساطعة كما قال إرنست رينان: تلك سيرة نشأت تحت الشمس. وإذا قارنًا ذلك بما روي في سيرة موسى عليه السلام في العهد القديم فإننا نجد تاريخ موسى كزعيم ضمن أحداث تاريخية، وليس فيها ما يؤخذ منه القدوة والحالة النبوية له.

أما ما يوجد في الأناجيل الأربعة من حياة المسيح وكلماته فليس فيها إلا النزر اليسير، ولو جُمع ما ذكر فيها عن حياة المسيح فإنه لا يغطي إلا قرابة ثلاثة أسابيع، وقد كتب الناقد (دنيس نينهام) في مقدمة تفسيره لإنجيل مرقس: إنها لحقيقة تصدمنا أن كتبة الأناجيل لم يخبرونا بأي شيء عن هيئة يسوع وبنيته الجسمية وصحته، كما لم يخبرونا عن شخصيته، وعمّا إذا كان سعيدا مبتهجا رابط الجأش أم إنه كان على العكس من ذلك.

إنهم لم يفكروا حتى أن يخبرونا بطريقة ما عما إذا كان قد تزوّج أم لا، كذلك فإنهم لم يعطونا معلومات محدّدة عن طول فترة دعوته أو عمره حين توفي، كما أنه لا توجد أقل نبذة عن تأثير بيئته الأولى عليه أو عن أي تطوّر في نظرته ومعتقداته^(١).

فأين هذا من الوضوح الموجود في سيرة النبي ﷺ والوصف الدقيق لحياته؟!.

(1) D.E. Nineham Saint Mark Harmondsworth: Penguin 1963 p.35.

ثانياً: توثيق سيرته ﷺ:

فالسيرة النبوية لها مصادر متعددة، من أهمها القرآن الكريم، وقد كُتب القرآن كله في حياة النبي ﷺ وبين يديه، وأحاديث السنة النبوية كُتب بعضها في حياة النبي ﷺ وحُفظت بقيتها وكُتبت بعد ذلك بدقة وتوثيق دقيق، فليس هناك حديث يروى عن النبي ﷺ إلا ونعرف مَنْ رآه وَمَنْ رواه، ثُمَّ من رواه عنه بعد ذلك، وحال هؤلاء الرواة.

والذين رَوَوْا سيرة النبي ﷺ هم الذين رَأَوْها أو سمعوها من النبي ﷺ مباشرة، فقصة نزول الوحي روتها عائشة زوج النبي ﷺ، وقصة الهجرة رواها أبو بكر وهو صاحبه في طريق الهجرة، وقصة حجّه إلى مكّة رواها جابر الذي رافقه في حجّة الوداع، وهكذا فرُواة السيرة هم شهودها، وهم معروفون بسيرهم وأحوالهم.

وَمِنْ أَوَّل ما أُلِّف في السيرة مغازي عروة بن الزبير الذي كان أبوه صاحب رسول الله ﷺ وحواريّه، وخالته عائشة زوجة رسول الله ﷺ، ثم تتابعت كتب أحاديث النبي ﷺ وسيرة حياته التي لا يُذكر فيها خبر إلا مع ذكر مَنْ شهدّه وأخبر به، وَمَنْ رواه عنه، وَلِذَا فإن المسلمين يَرَوُون حياة النبي ﷺ وكأنهم يَرُونها لشدة وثوقها وتوثيقها.

إنَّ إنكارَ حفظِ السيرة النبوية يلزم أن لا يُصدّق شيءٌ من أخبار التاريخ، فإنّه لا يوجد من أخبار التاريخ ما حَقَّق ما يوازي ما في التراث الإسلامي أو يقاربه من معايير الجمع والنقد والتوثيق.

وإذا قارنّا ذلك بسيرة النّبيّين العظيّمين موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السّلام فإنّ أماننا إشكالات كبيرة في تدوينها وفي روايتها وفي وثوقية هذه الروايات.

فسيرة موسى والذي عاش قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة عشر قرناً بقيت فترة طويلة روايات شفوية، وأناشيد دينية.

ولم تُكتب التوراة إلا بعد أن عاد اليهود إلى وطنهم من الأسر البابلي وانعدمت الكتب المقدسة رأساً، فكتبها عزرا مرة أخرى، ويرون أن هذا كان بإلهام من الله، وكان ذلك بعد أكثر من سبعمئة سنة من وفاة موسى عَلَيْهِ السّلام.

ولكن فيها تناقضات وأخطاء لأنه جمع وثائق بينها اختلافات واضحة، حاول أن يؤلف بينها فتكوّن هذا النص، بما فيه من اختلافات وتحريفات، ومن ثمّ وقع الاختلاف في قبول أجزاء من نصوص العهد القديم بين اليهود أنفسهم، وكذا بين الطوائف المسيحية أيضاً.

أما إذا أتينا إلى حياة المسيح من خلال الكتاب المقدس فإنّ المادة التاريخية لا تعتمد على سند موثوق لتلك السيرة، حتى شاع بين دارسي حياة المسيح التمييز بين يسوع كما هو في المخيال الإيماني للمسيحيين، ويسوع التاريخ الذي عاش على الأرض.

وأول أزمة تواجهنا أن هذه الأنجيل كتبت كلها بعد وفاة المسيح، وأقربها كُتبت بعد وفاته بثلاثين سنة تقريباً، ومؤلفو الأنجيل ليسوا شهود عيان، كما أنهم مجهولو الهوية.

وتوجد اليوم الآلاف من المخطوطات للكتاب المقدس، ولكنْ يَفْجَرُنا أنْ نعلم أنه لا توجد جملة واحدة اتفقت عليها جميع المخطوطات، حتى قال بارت إيرمان: إن عدد الاختلافات بين مخطوطات العهد الجديد هو أكبر من عدد كلمات العهد الجديد^(١).

ثالثاً: هي سيرة نبيٍّ أولاً:

نقروها على أنها سيرة نبي مرسل من الله، نبيٍّ يتلقى الوحي من الله ويبلغه للناس، ولا نقرأ السيرة على أنها سيرة زعيم أو قائد، أو مصلح اجتماعيٍّ، وكأنما تُقدِّم سيرة إبراهيم لنكون أو تشي جيفارا، ولا يقدِّم الإسلام وكأنه ثورة اجتماعية ضد التفاوت الطبقي، نعم لقد كان محمد ﷺ مُصلِحاً، ولكنه قبل ذلك كان نبياً يتلقى الوحي من الله.

فكل نبيٍّ مصلح، وليس أيّ مصلح بنبي مهما بلغت إصلاحاته، لأن جوهر النبوة ليس الإصلاح ولا التعمير، ولكن جوهر النبوة هو هذه الصلة بالله وبغيبه المغيب.

النبي جليس على المائدة الربانية يتلقى من ربه الكلمة والتشريع والتكليف، وهو معصوم لا ينطق عن الهوى، أما المصلح الاجتماعي فمن أهل الاجتهاد مثله مثلنا، وحظه حظنا، يخطئ ويصيب،

(١) «براهين النبوة» د. سامر العامري (٩٤)، و«هل العهد القديم كلام الله؟» د. متقذ السَّقَّار (٢١٣)،

ولا عصمة له، ولا خروج من دائرة المحسوس، وأي فرق هائل بين هذه المراتب!.. وأي سقوط بالنبوة إذا نحن جردناها من هذه الصلة الربانية!، وماذا يبقى من الدين إذا جردناه من الغيب؟!^(١).

لم تكن معركة الإسلام هي التغير الطبقي، وإنما كانت معركته هي الانتقال بالعقول من فكرة تعدد الآلهة إلى عقيدة التوحيد، ومن العبادة الوثنية إلى عبودية الله عَزَّوَجَلَّ..

ومحمد ﷺ بشر مثلنا في بشريته، ولسنا مثله في نبوته، لأنه يوحى إليه ونحن لا يوحى إلينا بشيء، وهذا الفرق الدقيق هو سر النبوة، إن النبي في حضرة الملائكة الأعلى والملكوت، يلتقي روح القدس جبريل، ويسمع منه.

هو الإنسان الكامل، والرسول الخاتم، والبشر الذي يوحى إليه، والمجتهد المعصوم، الذي اتصلت في سيرته الأرض بالسماء، فهو ﷺ روح في جسد، ككل البشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكن روحه ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تصل إليه، إنه إمام أولي العزم من الرسل، الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة، وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه،

(١) «محمد ﷺ» للدكتور مصطفى محمود (٨-١٠).

ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العاكمين بين نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها^(١).

إننا هنا مع سيرة نبيّ اختاره الله واصطفاه، وأرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، جاء إلى الدنيا ليُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن مّتاهة الضلال إلى بصيرة الهداية، ومن قلق الحيرة إلى طمأنينة الإيمان.

ومع أنوار الرسول يرى الحقيقة كلّ باحث عنها بإخلاص، ويتجاوز أسئلة الوجود الخطيرة «من أنا؟»، و«من أين أتيت؟»، و«إلى أين أذهب؟»، لتجد الروح سكنتها، وتعرف طريقها وترى نهايتها، وتعيش على الأرض موصولةً بالسماء، وتحيا في الدنيا متشوّقة إلى الآخرة.

مع سيرة النبي تعرف الرسول ورسالته، فحياته هي التطبيق الأول والأكمل للرسالة التي أرسله الله بها لتكون منهج الحياة، والدين الذي اختاره الله لنا ليكون سبب سعادة في الدنيا وفوز في الآخرة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. تعرّف على هذا النبي فإنك إذا عرفته عرفت الإنسان الأكمل والأفضل في هذا الوجود، وعرفت موقعك في هذا الكون وطريقك في هذه الحياة.

(١) باختصار من مقدمة د. محمد عمارة لكتاب «النور الخالد» (٩).

فهرس الموضوعات

٥	المقدمة.....
٨	وادي غير ذي زرع.....
١١	ظلام الوثنية.....
١٥	أصحاب الفيل.....
٢٠	ميلاد اليتيم.....
٢٢	الرسول ﷺ وأمه.....
٢٦	النبي ﷺ وعمه.....
٢٩	الرسول ﷺ ورعي الغنم.....
٣١	الزواج بخديجة.....
٣٤	الرسول ﷺ بيني الكعبة.....
٣٧	أربعون سنة.....
٤١	طلائع البعثة النبوية.....
٤٧	في غار حراء.....

- ٥٦ قم فأنذر
- ٥٨ محمدُ الرسول
- ٦١ القضايا الكبرى في الدعوة المكية
- ٦٩ أسباب رفض قريش الدعوة
- ٧٣ برهان النبوة
- ٧٩ حقائق القرآن
- ٨٤ وَعَدُ اللَّهِ يَتَحَقَّقُ
- ٨٩ حالة المؤمنين في مكة
- ٩٤ طريق الدعوة
- ٩٧ انتشار الدعوة
- ١٠٠ الهجرة إلى الحبشة
- ١٠٦ حصار الشعب
- ١١٢ أحزان الرسول ﷺ
- ١١٥ الخروج إلى الطائف
- ١٢١ الإسراء والمعراج
- ١٢٧ بيعة العقبة
- ١٣٤ الهجرة إلى المدينة
- ١٣٧ هجرة النبي ﷺ
- ١٤٢ مع النبي ﷺ في مكة
- ١٤٧ المرحلة المدنية

١٤٩	الرسول ﷺ والمدينة
١٥٥	الوصول إلى المدينة
١٥٨	في قباء
١٦١	مسجد قباء
١٦٣	إلى المدينة
١٦٦	صحيفة المدينة
١٦٩	المسجد النبوي
١٧٣	مؤاخاة المهاجرين للأنصار
١٧٥	أهل الصُّفَّة
١٧٩	السوق
١٨٤	بيت الرسول ﷺ
١٩٠	الرسول ﷺ وزوجا
١٩٨	الرسول ﷺ والمرأة
٢٠٦	الخلق العظيم
٢١٤	الرسول ﷺ والخاطئون
٢١٩	الرسول ﷺ والمخالفون
٢٢٩	الرسول ﷺ والأعداء
٢٣٣	الرسول ﷺ والحرب
٢٤٠	أخلاق النبي ﷺ في الحروب
٢٤٨	صلح الحديبية

٢٥٣	مراسلة الملوك.....
٢٥٨	فتح مكة
٢٦٣	عام الوفود.....
٢٧١	حجة الوداع
٢٧٩	إلى الرفيق الأعلى
٢٨٦	كيف تحدّث الرسول ﷺ
٢٩١	نظرة إجمالية للحياة النبوية.....
٣٠٠	دلائل النبوة من سيرته.....
٣١٤	الرسول وإخوانه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
٣٢٣	الخاتمة.....
٣٣١	فهرس الموضوعات.....



في قلب كل مسلم شوقٌ لاهف للنبي الكريم ﷺ، يتمني لو صحبه، لو رآه، لو أنيس بقربه، وكلما ازداد معرفة به ازداد حباً له وشوقاً إليه، وليس ثمَّ ما يروي هذا الشوق مثل العيش مع سيرته ومزيد التعرف عليه، فهو نوع من صحبته، ومزيد قرب إليه، وإشراف على هديه وهداه، ليتحقق النَّاسِي وحسن الاقتداء به.

وكلّما ازداد تعرفنا على سيرته اقتربنا منه حتى كأنما نعيش معه، نترآي أنوار طيفه، ونحضر مجلسه، ونصلي وراءه، نرى صلاته الخاشعة، ونسمع قراءته المرتلة، ونتعرف على عظمة أخلاقه التي جَبَلَهُ اللهُ عليها.

ولا يزال المسلم يعيش مع السيرة حتى يشعر أن الرسول يعيش في ضميره، وتتبعه بصيرته في عمله وتفكيره.

فهذه سيرته بين يديك، ستفيدك نوراً يزيد إيمانك، وحكمة تقود حياتك.

وقد حرصت أن تكون مختصرة وجامعة، معرّفةً بمعالم سيرته، وكريم شمائله، ودلائل نبوّته.

واعلموا يا من تطالعون هذا الكتاب أنكم تعيشون لحظات مترعة بغبطة الحياة مع إنسان ورسول رفع الله به قدر الحياة.